
فقه المعرفة


عبد الباقي يوسف



نشر إلكترونيا في يونيو ٢٠٠٣



فهرس



الجزء الأول : التدرج في معرفة الله

الجزء الثاني : شمس الإيمان

الباب الأول : ثنائية الشيخ والمريد

الباب الثاني : فضاء الإيمان المفتوح

السيرة الذاتية للكاتب



الجـــزء الأول

التدرج في معرفـــة اللـــــه

١- مقدمـة

ليس من سبيل أمام الإنسان لمعرفة نفسه إلا معرفة ربه، وليس له من سبيل معرفة ربه إلا معرفته لنفسه ،ومن ثم لأشكال الحياة من حوله ٠
إننا لا ننظر إلى الله نظر العين ، ولكن نتعرف على الذات الإلهية ونحن ننظر إلى كل إبداع إلهي ، فالذي لا يعرف الله يصعب عليه أن يؤمن به ، وهنا تنطرح الحكمة الإلهية على ضمير الإنسان فتزجيه نحو التعرف على ربه ، ولا تزجيه نحو النظر إليه ، على ركيزة أن المعرفة هي الأصل في تقديم الله إليك ، تقديم الله بكل جلاله وعظمته وقدراته ومدلولات أسمائه الحسنى ٠ ففي حياتك اليومية تقول عن شخص تراه كل يوم يمر بجانبك ويلقي عليك السلام بأنك لاتعرفه ، وتقول عن شخص لم تره رأي العين قط ولكنك تتعامل معه من بعيد بأنك تعرفه ٠ إذاً ليس المهم النظر إلى الشخص ، ولكن المهم مدى حجم المعرفة بطبيعة الشخص ، فمعرفة الشخص هي ذات الشخص ، أما النظر لوحده مهما طال فإنه لن يقدمه إليك ، ولن يقدمك إليه ٠ المعرفة هنا غنتك عن النظرة ، بيد أن النظرة هناك لم تغنك عن المعرفة ٠ وأنت لا تؤمن بوجود وردة لا تهبك رائحة ، ولكنك عندما تشتم رائحة وردة فإنك تؤمن بوجودها حتى لو خفى عنك ظاهرها ٠
لهذا فإن ربك لم يأمرك أن تنظر إليه ، بل أمرك أن تقرأه ٠ ففي البدء " كانت الكلمة " ولم تكن النظرة٠ القراءة هنا تمنح مخيلتك الخيال الخصب وتفسح في مشاعلها أنهار التأمل والتفكر ، فالقرآن بذاته هو خطاب لغوي تأملي فكري يوسع المدركات العقلية والرؤى التأملية والتخيلية وهو دعوة جلية للاستدراك واليقظة من غفوة اللاقراءة ، حتى الرسل والأنبياء ارتقوا إلى ربهم بالقراءة ، وكذلك فإن قلب النبي يطمئن عندما يخاطبه الله ويضرب له الأمثال التي تشير إلى قدراته ولاتُظهره له ٠
لقد آمن النبي بربه دون أن يره رأي العين في زمن شهد قمة المجد الوثني ، وكان الشخص الوحيد الذي أنكر ذاك المجد الوثني ورفضه لينشر رسالة رب لم يره ، ولكنه أصغى جيداً لمدلولات كلمة /اقرأ/ التي حملها إليه ملاك ، فقد كانت الكلمة عالماً من المعرفة وشمساً سطعت على ظلام أزلي ، أجل إن قوة إيمان محمد ولدتها تلك الكلمة الأولى التي لبثت الأساس المتين لمراحل التطور الإيماني لديه ٠ فالكلمة كانت برهانه الأكبر إلى المعرفة ، لقد تلقاها وهو في الأرض من رب يبعد عنه بعداً لا يبلغه به خياله ، ولكنه استمع إلى الكلمة جيداً وبنى عليها كفاحه ، واستطاع أن يقنع المقربين له بها

حتى توسّع الدين الجديد الذي دعا إليه ، والناس صدّقوه وآمنوا بالله من خلاله ودخلوا دين ربهم أفواجاً بناءً على الكلمة التي سمعوها من هذا الرجل الأمين ٠ واستمدت المعرفة أهميتها الكبرى لأنها غدت الدليل إلى معرفة الله الذي ما كانوا يعرفوه حتى شاع مثل في الناس يقول : " لم أر الله بعيني ، ولكن عرفته بعقلي " ٠ وهذا المثل التلقائي الذي يُردد في الأوساط الشعبية ، يعزز مكانة المعرفة وأهميتها في درجة الإيمان ٠ إذاً فليس من سبيل للإيمان بالله إلاّ سبيل المعرفة التي يكتسبها الإنسان على قدر إصغائه للكلمة ، بل إن الإيمان بذاته هو الشكل الأصفى والأرقى للمعرفة البشرية ٠ فغدا الإنسان المؤمن يتدرّج في إيمانه بربه معتمداً على الحدس لاعلى النظر ، حتى يبلغ مرحلة إيمانية متقدّمة يرى فيها الله بحدسه ٠

وقد جعل الله تبارك وتعالى أشكالاً وألواناً للمعرفة البشرية وهي فروع تؤدي إلى سعة معرفته ، لذلك فإن الإنسان كلما بحر في علوم المعرفة ازداد إيماناً بقدرات الله مهما اختلفت أجناس هذه المعرفة من أدب ، وعلم ، وفلك ،وفن ، وطب ، وفقه ٠ يبقى هذا الكلام المبارك الذي جاءنا , الدليل الأكبر لانفتاحنا على معرفة أنفسنا ، ومعرفة ما في الطبيعة التي نعيش فيها ، وتعيش فينا,ففيه نقع على شرح أنفسنا ، شرح الطبيعة ، شرح الله ، فهو الكلام الأقوى والأبقى على الأرض ،بل هو الكتاب الأكثر ثقة وخلوداً وامتلاءً " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرا بيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء " ٠ (أ)
العلم في جوهره لا يتحقق إلا عبرا لمعرفة ، فالمعرفة هي أم العلوم ، والعلوم كلها هي فروع شجرة المعرفة ٠ لقد أكرم الله الإنسان بأن جعله يتفقه في المعرفة ويتفكّر في آيات الكون ، وهذا يحقق للإنسان متعة اكتساب المعرفة ، ومتعة ارتقائه من كائن غير عارف ، إلى كائن عارف ، من كائن مظلم لكائن مضيء ، إضافة إلى أن هذه المعرفة تحقق له الطمأنينة الروحية وتزيح عنه كل مرض من أمراض الروح ٠
فهو إذن لم يأ ت صدفة من مجهول ،و بالتالي لن يذهب إلى مجهول ٠ كلمّا اكتسب هذا الإنسان –المتفكّر بآيات الكون – المعرفة ، ازداد طمأنينة ، وامتلأ ثقة بجدوى وجوده وحياته ٠
علينا دوماً أن نكون منفتحين لاستقبال أشكال الحياة ونرنو نحو اكتشافات جديدة تزيد في درجة معرفتنا بالله وإيماننا به ، فإن الإيمان يتدرج بنا نحو الأعلى كلما تدرّجنا في المعرفة ، وهو يهبط بنا كلما تدنت لدينا المعرفة ٠

ودوماً إن أولئك الذين لا يؤمنون بالله هم الذين ما عرفوه ٠ من هذه النقطة الحساسة تناولتُ فقه المعرفة ، وحكمة الله بالتدرّج في معرفته ٠وهو بحث شاق ومرهق استنزف وقتاً طويلاً ، لكنه أمتعني في فصوله وزادني إيماناً٠

أ ــ سورة فاطر ، الآيتان ٢٧ ــ ٢٨

٢- نحـــــو تعريف للمعـــرفـة

ليس بوسعنا قول شيء يجدي عن المعرفة قبل وضعها تحت المجهر التاريخي وا لتأملي والحسي • ونحن نتأمل عوالم وجزئيات هذه الكلمة الدلالية الكبرى ، تجلو أمام حواسنا ومدركاتنا معالم التدرّج التي تشكّل معيار التوازن في عمق الإنسان ، هذا المعيار الذي يمكن للإنسان امتلاكه والتحكّم به وفقما يشاء بواسطة بناء علاقة معرفية عميقة معه ، والذي يمكن له أن يستبدّ بصاحبه الذي يطلق العنان لأهوائه ونوازعه بكافة المستويات العدوانية التي تبعده عن قيمة الحكمة الإنسانية • فهذا المعيار هو منشأ الزلازل العصبية والغرائزية العدوانية الكبرى ، وهو منشأ روح الحكمة والاستقرار النفسي والهدوء العصبي •
ويمكن ملاحظة معالم هذا المعيار في الوجوه التي تشرق بالاستقرار والطمأنينة ، والوجوه المظلمة بالاضطراب ، والمنطفئة بالتهابات الشر •ولاأقول بأن شعرة المعرفة تفصل بين الوجهين ، بل إنه جبل المعرفة الذي يفصل بينهما • سيكون هذا الفصل لبنة أساسية لما ستتبني عليه عمارة فصوله المتفرعة التي تمضي نحو سمت الله •

كلمة شاملة لانهائية تغري إنسان كل زمان ومكان للعوم في فضاءاتها اللامتناهية ، والنهل من معينها الذي لانضوب فيه • دوماً يبرق وميض معرفة في مدركات إنسان غافل ، ينبثق من غيب ، فينتبه بأن نوراً أضاء مساحة مظلمة في فضاء روحه •
مادام الغيب يلبث مشرعاً في سلّم خطوات الإنسان ، فإن المعرفة تلبث حاملة إليه نور لآلئها كل ساعة وكل هنيهة •
يجد الإنسان نفسه مندفعا بقوة غريزية نحو عوالم مغلقة ، نحو كشف أسرار لا يعرفها ، كلمات لم يسمعها ،يظل ملاحَقاً وملاحِقاً هذه الغريزة ليحقق أكبر قسط من مدركات معرفية ، حتى غمضه الروح الأخيرة يدرك بأنه علم شيئاً جديداً وهو في ذروة تلك اللحظات الو داعية الأخيرة للكون •
المعرفة هي نظرة الإنسان نحو مستقبل غامض ، مستقبل يخبئ مفاجآت متوقعة وغير متوقعة ، إنها شمس لسوف تشرق بكل حيواتها ، وليل سوف يخيِّم بكل سكونه •

إنسان لم يتعرّض لشمس المعرفة هو في النهاية لسوف يموت ارتجافا من قوة البرد ٠
يمكن الآن أن نتوسع في كلماتنا لتحملنا إلى أسئلة المعرفة ضمن فضاء فقهي مفتوح ٠

ليست المعرفة مادة تُدَّرس في معاهد وجامعات ، ولافلسفة بشرية موضوعة ، ليست تياراً أو مذهباً أو نظرية فكرية ٠ إن كل ما بلغه التاريخ الإنساني من مكتشفا ت وعلوم ومعارف هي عناقيد في دالية المعرفة ٠ المعرفة تحمل الأرضين والسماوات ، تستوعب كل ما كان وماسيكون ، إنها الأرشيف الأكبرلذاكرة الكون ٠
ولنتأمل كم نبدو صغاراً أمام هذا الثقل المعرفي الهائل الذي علينا ألاّ نيأ س من تسلقه ومدّ أيادينا إلى عناقيد أعنابه ٠
أقول بقوة : إن المعرفة هي ثورة ذهنية جريئة على جمود العقل البشري ومدركاته الفكرية ٠
لم تكن المعرفة في يوم منحصرة في أناس دون غيرهم ، ولا في زمان دون غيره ، وهي لاتقبل الذهاب إلى المقابر ، أو تنطفئ في بطون كتب صفراء ٠ إنها الشمس التي تسطع كل يوم فتأتي لبني الإنسان بضوء جديد غير الذي أتاه بالأمس ٠

أما كيف يشكّل الإنسان جزءاً من هذه المعرفة فهذا أيضاً أمر مفتوح كالمعرفة ذاتها لأن الطرق إليها متعّددة ومتفرعة وأحياناً تكون متشتتة فيلتبس الأمر على السائر ويتوه في تيه خطواته٠ ليست الكتب وحدها وسيلة للمعرفة ، ولا الفضائيات وحدها ، ولا التجارب البشرية وحدها ، ولا الأسفار في الأرض ، ولاتعلّم اللغات وحدها ، ولاالتقدم في السن ، أو المكانة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السلالة ٠ فكل لون من هذه الألوان هو طريق إلى غصن من غصون شجرة المعرفة وكلما نهل المرء من ثمار غصن امتلأ بالحياة وأحس بالنضج وهكذا فهو يقطف ثمار المعرفة ويزداد استقرارا وانفتاحا وامتلاء
فيقول : إنني أزداد سعادة كلما تعلَّمتُ جديداً ، وأبدو حزيناً في يوم مضى لم أتعلم فيه جديداً ٠
إن متعة المعرفة هي أمتع من كل متاع العالم ، وإذا علمها كبار أثرياء العالم لحسدوا ذاك الشخص المتواضع الذي يستمتع بثمار معرفته ويكون دافئاً بشمسها البهية ٠

ثمة أمر آخر بودي أن أضيفه إلى جملة هذا الحديث وهو أن الإنسان كذلك يتعلم من نفسه ، فهو كلّما تعمق بمعرفة نفسه أكثر كلما تعرّف على أسرار العالم أكثر وربما أن كبار المبدعين اعتمدوا بالدرجة الأولى على أنفسهم في إبداع أعمالهم الفكرية والأدبية الكبرى ، فحديث الإنسان مع ذاته أحياناً يكون أثرى من حديث الآخر ٠ ولا يغر أحد أنه يعرف نفسه جيداً فليس بوسع أحد أن يعلم كل كبيرة وصغيرة ٠٠٠ ظاهرة أو مخفية عن نفسه ٠ فالنفس وأي نفس هي عالم من الظلمات إلى جانب أنها عالم من الشروق ٠

يجوع العقل إلى المعرفة كما تجوع المعدة إلى الطعام ، والغذاء المعرفي هو الأجدى والأبقى من أي غذاء دونه ٠ ورغم هذا فإننا ننفق في سبيل الأغذية الأخرى أكثر مما ننفقه في سبيل الغذاء المعرفي الذي هو في الواقع يبني الإنسان: حرفاً حرفاً٠٠ كلمة كلمة ٠٠ سطراً سطراً ٠ربما في بعض المناسبات يلجأ الكثيرون لتقديم الهدايا إلى أنفسهم على غرار تقديم الهدايا للآخرين في مناسباتهم السعيدة ، مثل اجتياز الامتحانات المرحلية بتفوق ، فيفكر أن يكافئ نفسه بأن يتقدّم لخطبة مَنْ يجب ، ويمكن بعد صيام شهر رمضان أن يهدي نفسه بعض ثياب جديدة في عيد الفطر ، أو يجدد آثاث منزله ٠
كثيرون يرون أن حق النفس إنما يكون في المتع الآنية والرحلات دون أدنى تفكير بمتعة المعرفة الذهنية ، مثلا مالمانع أن تهدي نفسك مجموعة من الإصدارات المعرفية الجديدة من مختلف فروع المعرفة في مناسبات كهذه ؟ لماذا لايذهب أحدنا لصديق أو قريب في مناسبة سعيدة فيهدي إليه كتباً نفيسة فتبقى وتدوم إلى أمد بعيد خاصة إذا كتبنا كلمة لمناسبة الإهداء على الصفحة الأولى من كل كتاب ,
فالإنسان يحتاج في كل يوم من أيام عمره إلى أن يتعلم شيئاً جديداً لم يكن يعلمه من قبل ، وعليه أن يدّخر لذلك المال والجهد والوقت ، فكما تدلف مخزن غذاء ، أو متجر ثياب ، عليك أن تدلف مكاتب الكتب والمطالعات , إن المعرفة لاتقدر بثمن وليس ثمة متعة تفوق متعة معرفة علوم ومعارف جديدة كل يوم ٠ إننا لانقول هذا لمجرد المعرفة فحسب ، بل المعرفة التي تكون في خدمة النفس وفي خدمة الناس أجمعين٠

المعرفة هي انفتاح النفس كوردة في ربيع أي أنها تكون طيبة وتقدّم الطيب حتى للأرض التي تكون فيها ، واللامعرفة هي انغلاق النفس كوردة ذابلة في خريف أبدي ٠

إن الرصيد الثمين الذي يحققه الإنسان في مسيرة حياته يكون بقدر ماقرأ من كلمات معرفية ، وليس بقدر ما جمع من أوراق في البنوك ، فالإنسان عندما يترك الحياة يعجز أن يأخذ معه أوراق المال ، لكنه لايعجز أن يأخذ معه كلمات المعرفة ، وعندما لايفيده المال ، فإن المعرفة تفيده " وهل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون"(أ)٠ والعالم الفقير عند هو خير من الجاهل الغني ,كان عرب ماقبل الجاهلية يقولون " إن الأدب كاد أن يكون ثلثي الدين " ٠ والحقيقة فإن ما يميّز المعرفة ويحفظ لها ديمومتها وتجدّدها أنها لانهائية وكلما يعرف المرء أمراً يكشف مدى جهله ٠ كان سقراط يقول : " ازدد علماً ،تزدد جهلاً " ٠ وهكذا فإن صوت المعرفة هو صوت الأبدية , سبق لعلي بن أبي طالب أن قال :

مالفخر إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
ففز بعلم تعش حياً به أبداً فالناس موتى وأهل العلم أحياء

إنها كلمات تحمل دعوة صادقة إلى الالتفات للعلم والمعرفة ، وأن تكون المعرفة في سلّم الأولويات لا في الكماليات : "وقل ربي زدني علماً " ٠(ب)
تبقى المعرفة هي التي تميز إنساناً عن غيره والإنسان يمكن له أن يرتقي في ألوان المعرفة حتى يغدو مرجعاً معرفياً في لون معرفي ما ٠
أبواب المعرفة مشرعة أمام الجميع لاتنغلق أمام أي إنسان وفي أي وقت ، ولكن على الإنسان أن يسعى إلى المعرفة ويطوّر نفسه فهي لاتطرق باب أحد ولكنها دائمة الانتظار لمن يطرق أبوابها ٠
في الموروث الصوفي تعرّض كثير من المتصوفين لتعريف المعرفة في شبه إجماع على أن المعرفة لاتتحقق إلا بمعرفة النفس ٠ قال التستري: " أول مقام في المعرفة أن يعطي العبد يقيناً في سره تسكن به جوارحه "٠ وورد في كتاب "التعرف لمذهب أهل التصوف " لأبي بكر الكلاباذي : " العارف مَنْ كان علمه حاله "٠ وأما النفري فقد تعّرض في كتابيه "المواقف " و "المخاطبات " للمعرفة وميّز ما بينها وما بين العلم ، فرأى بأن المعرفة هي نظرة الإنسان إلى داخله ، بينما العلم فهو نظرة الإنسان إلى الخارج ٠ ومن هنا فإن المعرفة هي أعلى من العلم ، كون الروح أسمى من المادة ، والإنسان الذي لايتعرف على داخله يستحيل عليه أن يتعرف على شكله ٠
ليس بوسع عقل بشري فك سر استمرار الحياة ، لأن ليس بوسع هذا العقل أن يصل مرحلة الاستقرار الكلي ٠ وهذا الاستقرار يمكن أن يقدّم تفسيراً

كبيراً ومخيفاً للعقل ذاته الذي لم تعد تغريه الحياة عندئذ ٠٠ لقد قدّم الإنسان إنجازات مذهلة في شتى الميادين ٠٠ وما سيقدمه بلا شك سيكون أعظم من كل هذا ٠٠ وكل يوم يكتشف الإنسان ما هو أهم وأفضل لرفاهيته وإطالة عمره ونظافته و صحته ٠ إن الإنسان يحب الحياة ولذلك يفني عمره وهو يجملها ويلطفها وينجب فيها أطفاله ليعيشوها من بعده ٠٠٠ الإنسان يحب الحياة ويؤمن بجدواها ولذلك يعقد صداقات فيها ٠٠ يصر على السيرة الحسنة والسمعة الطيبة ٠٠ والذين يبنون الحياة هم أكثر من الذين يدمرونها ٠ مع أن عملية بناء مدينة واحدة قد تستغرق ثلاثين سنة وإن قصدنا باريس أو فيينا قد تستغرق خمسين سنة, بينما تدميرها لا يستغرق أكثر من يومين فقط ، وعملية إبداع رواية تستغرق خمس سنوات أحياناً ، بينما عملية حرق هذه الرواية لاتستغرق أكثر من ساعة واحدة ، ومع ذلك فان الأرض عامرة بالبناء والكتب والإبداعات المدهشة ٠٠ وقد تستغرق عملية ولادة إنسان واحد تسعة أشهر ،وتستغرق عملية إفناء مئة ألف شخص ساعتين فقط ، ومع ذلك هناك مليارات البشر ٠٠ إذن الإنسان بخير , الذين ينجبون ويربون أكثر من الذين يقتلون , والذين يبنون أكثر من الذين يدمرون , والذين يعطون أكثر من الذين يأخذون , والذين يحبون أكثر من الذين يكرهون ٠٠ والذين يبتسمون أكثر من الذين يستاءون ٠

لقد استطاع الإنسان أن يحرر نفسه من الأمية ٠٠ واستطاع أن يؤمن بالعلم وهذه القناعة المرسخة في ذهنه تجعله يدفع طفله إلى التعليم في أقرب مدرسة , تجعله يفضل العلم على المال , واقرب مثال أن أطفال أثرياء العالم يتعلمون على أيدي أساتذة فقراء٠ يقتنع الأب الثري بأن هذا الأستاذ أو المدرس الفقير سيعطي إ ابنه أكثر مما يمكن له أن يعطيه من الأموال ٠ ولو كان الإنسان يعيش بالمال وحده لما دخل أطفال الأثرياء المدارس ٠ لقد أصبح الإنسان على قدر كبير من الوعي وليس بوسع شخص واحد مهما بلغ نفوذه أن يجعلني أنظر إلى الحياة من تحت جنحه ٠٠ إن الخطيئة الكبرى تكمن في أن يتمكن هذا الشخص السيئ من أن ينصب نفسه وصياً على الحياة كلها ,وأصدق هذا منه , وأنظر إلى الحياة بسوداوية لأن هذا الرجل السيئ يسبب تفسخاً في الحياة ٠

الحياة لاتعني شخصاً واحداً ٠٠ لأن هذا الشخص ليس ثابتاً ولايمكن له أن يبقى ثابتاً وإن كان يوحي إلى الثبات ٠ أوضّح في هذه الحالة بأن علاقة الإنسان الكبرى تكون في الله ٠٠٠ والله ليس كمثله شيء ٠٠٠٠ وتسارع كلمات جليلة لايمكن نسيانها : "الله نور السموات والأرض ،مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، والمصباح في زجاجة والزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ،ولو لم

تمسسه نار " ٠(ت) والله هو الأقرب إلى الإنسان وقد ورد في الخبر الصحيح عن الله تعالى :" ما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضته عليه ومازال العبدُ يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي به يسمع وبصره الذي به يبصر ويده التي بها يبطش ورجله التي بها يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وماترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموتَ وأنا أكره مساءته " ٠ (ث)
إن أي إنسان بحاجة إلى أن يؤمن , اللاإيمان يعني الضياع ويكفي أن الله يحمل عن كاهل الإنسان المتاعب ويكفي أن الإيمان ذاته ينقذك من إحساسك بالفناء واللاجدوى ٠
بالطبع ليست كل معرفة إيجابية، فيمكن أن تنعكس المعرفة سلباً على الإنسان فتقوده إلى متاهات لامتناهية ٠ وفي تقديرنا فإن ما يضبط المعرفة ويوظفها توظيفاً إيجابياً هو الإيمان بالله الخالق الواحد الذي لاشريك له ٠ ويمكن للمعرفة الخالية من الإيمان أن تُحدث خللاً في توازن الإنسان واستقراره الفكري ٠ فاللاإيمان يمكن أن يقود البعض إلى أسئلة بدون أجوبة ومهما يكن من أمر فإن العالِم الملحد لايكتسب استقرارا بمقدار ما يكتسبه العالِم المؤمن ، وكذلك فإن العالِم المؤمن يمكن أن يقوده إيمانه إلى وضع نقاط على حروف كثيرة ، ولكن إلحاد الملحد لايقوده إلى ذلك إلاّ إذا مال إلى شيء من إيمان ٠ والعالِم المؤمن كلما رسخ في العلم تواضع لخالقه العظيم ، بينما العالِم الملحد كلما رسخ في العلم تمرد على قانون الطبيعة وعلى الأخلاقيات الفطرية للإنسان إلى أن يجعل هذا الإنسان كائناً غريزياً وفي كثير من الأحيان بيولوجياً بدعوى أنه سيد الكون ولاشيء محظور على رغباته ٠ وإذا أمعنا النظر في هذه الحالة التمردية فنرى بأنها تجعل الإنسان عبداً لغرائزه ، لاسيداًعليها وهذا بذاته يدفع غالبية الذين هم من ديانات وعقائد أخرى لدخول الإسلام لأنه البديل الأقوم نحو حياة متوازنة وهادئة ٠ فالإنسان مهما كان رحيماً فإنه لن يكون أرحم بنفسه من الله ،

ومهما بلغ الإنسان من حكمة ،فإنه لن ينجح في أن يكون أحكم من ربه ذلك أن الحكمة الإلهية الخالصة هي التي وضعت هذه القوانين والتشريعات لإنسان كل زمان وكل مكان وأي خلل أو تدخل في نصوص هذه القوانين والتشريعات لايؤدي إلاّ إلى خلل في حركة المجتمع برمتها ٠سأقدّم هنا آراء بعض المفكرين
الذين يعطون صورة حية عن التفاصيل الخفية لمجتمعاتهم ٠ يقول شارل رينيه :" إن الحضارة الغربية الحديثة تقدّم لنا عدة ظواهر خطيرة منها : إزدياد نسبة الإجرام واستفحال شر الدعارة وانحطاط الأخلاق السياسية ،

وفشو روح الوصولية ، والقضاء على عناصر الاستقامة والنزاهة والتضحية "٠ ويرى أرنولد توينبي في كتابه "الحضارة في محنة ": "أن الحضارة الغربية المتدهورة تمر الآن في طور الانحلال والتدهور ولايمكن إنقاذها إلاّ بالدين " ٠ كما يرى الدوس هكسلي :"أن العالَم يسير إلى الهاوية ، وأن أزمة الإنسان أزمة ناجمة عن المفاهيم الخاطئة والأصنام الجديدة التي رفعتها الحضارة " ٠
أمام كل هذا اليأس فنرى الدعوة الواضحة من غالبية المفكرين للتمسك بقيم ومبادئ الإسلام كرسالة أخلاقية لعموم البشر لأنها السبيل نحو حياة هادفة وطيبة, هؤلاء الذين قعدوا إلى القرآن ودرسوه دراسة متأنية, فقد أوضح الفيلسوف الإيرلندي الشهير برنارد شو :" لايمضي مائة عام حتى تكون أوروبا ولاسيما إنكلترا قد أيقنت بملائمة الإسلام للحضارة الصحيحة ٠٠ إني أعتقد أن الديانة المحمدية هي الديانة الوحيدة التي تكون جائزة لجميع الشرائط اللازمة وتكون موافقة لشتى مراحل الحياة " ٠

وفي كتابه " يقظة الإسلام والغرب " يقول أوجين يوغ :" إن الإسلام دين سهل للبشر أن يعتنقوه ، ولهذا فإنه منتشر في جميع أنحاء العالم حتى في مجاهل آسيا وأفريقيا وفي أوروبا وفي الأمريكيتين " ٠ ويقول الروائي الروسي تولستوي عن إعجابه بشخصية محمد صلى الله عليه وسلم : " يكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم وهذا عمل عظيم لايفوز به إلاشخص أوتي قوة وحكمة وعلماً ،ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال " ٠ وفي رأي للكاتب الإنكليزي المستر ولز يقول :" إن الديانة الحقة التي وجدتها تسير مع المدنيّة أينما سارت هي الديانة الإسلامية ، إن القرآن وما فيه من قوانين سيبقى مدى الدهر وتزول الجبال ولايزول ، ولاتزيد الأيام هذا الدين إلاّ معجزات وحقائق ولايمسه سوء أبداً مهما كانت الدسائس والمؤامرات "٠ وأما جوزيف شاخت فيقول :" إن الإسلام هو المظلة التي سيركن إليها الهاربون من زيف
العصر المادي "٠ وبناء على هذه الحقيقة الحسية يندفع الناس من شتى أصقاع الأرض نحو بيت الله الحرام لاكتساب الطمأنينة ، ويمكن أن نرى عشرة آلاف شخص دخلوا الإسلام دون مقابل شخص واحد خرج منه ٠ إننا دوماً نرى أشخاصاً دخلوا الإسلام ولانرى أشخاصاً خرجوا منه ، وإن حدث ذلك فلا يكون إلاّ في حالة استثنائية شاذة نادرة ٠ لايوجد في العالم كله مكان ديني يجمع شتى ألوان وأجناس البشر بشكل سنوي متواصل كبيت الله الحرام ، لايوجد مكان واحد في العالم كله يتجه إليه هذا العدد الهائل من البشر ومن كافة مواقعهم وألوانهم وأعراقهم ولغاتهم في اليوم خمس مرات

كالقبلة الشريفة ٠ وعلينا أن نتخيّل كم من البشر يتجمعون نحو القبلة من كافة

أصقاع الأرض بشكل يومي متواصل دون كلل ولا ملل ، وهل يمكن أن نرى مثل هذا الواقع في أي مجتمع آخر غير المجتمع الإسلامي . إن أي طالب مسلم يدرس في الغرب فإنه يكون موضع إهتمام أي طالبة غربية زميلة له ليتزوجها و يأتي بها إلى سحر الشرق وجمال الشرق الروحي وهذا مايحدث على الأغلب ، ولكن لايحدث العكس ، ومهما لبث أهل الغرب في بلادنا سواء من عمّال ، أو سيّاح ، أو خبراء فلا نرى إمرأة مسلمة تترك دينها وبلادها لتسافر معه إلى الغرب . نحن نعترف بحضارة الغرب وتفوقه ، ولكننا نتحدث عن آثار إحتضار الروح لدى أبناء هذه الحضارة الهائلة . إن نسبة الجريمة والإدمان على المخدرات والإنتحار لايمكن لها أن تُقارَن بنسبتها في المجتمعات الإسلامية الملتزمة ولو بنسبة من توجيهات الإسلام .
ذات يوم اهتدى حكيم الشعر العربي " المتنبي " إلى أن يكتب :

بالدين يسمو المرء للعلياء ... وينال ما يرجو من النعماء

الدين نور والضلال ظلمة ... شتان بين النور والظلماء

وبأفكار قريبة إلى هذه الأبيات يلخص سانتيلانا نظرته بين القانون الديني الذي يمضي به الإنسان بهدي الدين ، وبين القانون الوضعي الذي وضعه الناس وهو يخص كلامه عن القانون الروماني فيقول : "إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا هو مجموعة من القوانين السائدة التي أقرها الشعب ، إما مباشرة أوعن طريق ممثليه ، وسلطات القانون مستمدة من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم .. إلاّ أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك فالخضوع للقانون الإسلامي هو واجب إجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه ، ومَنْ ينتهك حرمته لايأثم تجاه الإجتماعي فقط بل يقترف خطيئة دينية أيضاً . فالنظام القضائي والدين هما شكلان لاثالث لهما لتلك الإرادة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتعاليمه ، فكل مسألة قانونية إنما هي مسألة ضمير ، والصبغة الأخلاقية تسود القانون لتوحّد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيداً تاماً ، والأخلاق والآداب في كل مسألة ترسم حدود القانون ,من هنا فإن الشريعة الإسلامية شريعة دينية " ٠(ج)

مراجــع:

أ - سورة الزمر ، الآية ٩

ب - سورة طه ، الآية ١١٤

ت- سورة النور ، الآية ٣٥

ث- حديث صحيح أخرجه البخاري عن أبي هريرة وأوله : مَنْ آذى لـي ولياً فقد آذنته بالحرب .

ج- من بحث لـ سانتيلانا بعنوان : " القانون والمجتمع " ضمن كتاب " تراث الإسلام " بيروت ١٩٧٢ .

٣- اكتساب المعرفة عبر اللغة

نزل القرآن على مجتمع عربي أمي لايجيد القراءة والكتابة وكذلك من خلال رسول أمي عليه أن يبلغ هذا القرآن عبر اللغة . وهنا تميّز محمد صلى الله عليه وسلم عن سائر أنبياء البشرية فهو النبي الوحيد الذي بُعث في مثل هذه الظروف .فعندما جاء الإسلام لم يكن هناك من يجيد الكتابة إلا سبعة عشر شخصاً- يمكن لمن يشاء معرفتهم في العقد الفريد لابن عبد ربه - ويذكر الجهشياري في " كتاب الوزراء والكتاب " مَنْ كانوا يدوّنون الوحي نقلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم خشية الضياع أو النسيان وهم :علي بن أبي طالب ،وعثمان بن عفان ،وأُبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وخالد بن سعيد ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ومعيقيب بن أبي فاطمة ، وعبد الله بن أبي السرح . إذ لم يكن النبي ليكتب الوحي فور تلقيه وبعد ذلك شجع النبي محو الأمية ، بل ودفع بعضهم لتعلّم لغات أخرى مما لهذه المعرفة اللغوية من كسب للانفتاح على العالم . يقول زيدبن ثابت : " أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم كتاب يهود ، قال : إني والله ما آمن يهود على كتاب . قال زيد فما مرَّ بي نصف شهر حتى تعلمته له ، فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم " رواه الترمذي([١]) . فأصبح طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة رغم أن عدد النساء عند نزول القرآن كان الأقل ففي "فتوح البلدان " يذكر البلاذري :أم كلثوم بنت عقبة ، وحفصة بنت عمر ، والشفاء بنت عبد الله التي كانت كاتبة في الجاهلية ، وأم سلمة التي كانت تقرأ ولاتكتب ولأن ٠القراءة هي المصدر لنشر الوعي الديني أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتكريم العلماء والعارفين لأنهم يسهمون بفعالية في نشر رسالة الإسلام حتى أقر القرآن بأنهم : " ورثة الأنبياء " وقال النبي صلى الله عليه وسلم :" مَنْ تعلم العلم يحيي به الإسلام لم يكن بينه وبين الأنبياء إلاّ درجة ". وقال :"إنما بُعثتُ معلماً ". وأمر الناس أن يوقروا علماءهم فقال للأنصار عندما قدم عالمهم سعد بن عبادة :" قوموا لسيدكم ". وفي رواية :"قوموا لحبركم ".

---

[١] سنن الترمذي ،(٢٢) باب ما جاء في تعليم السريانية ، رقم الحديث (٢٧١٦) وقال:هذا حديث حسن ٠

وقال أبوثعلبة : يارسول الله ادفعني إلى رجل حسن التعليم ، فدفعني إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم قال : دفعتك إلى رجل يحسن تعليمك وأدبك ". وقال عليه الصلاة و السلام:"علموا ويسروا ولاتعسروا ، وبشروا ولاتنفروا ". "سيأتيكم قوم يتفقهون ، ففقهوهم وأحسنوا إليهم ". ويكفي أنه وجه خطاباً عاماً لكافة المسلمين :" تركت فيكم ما إن تمسكتم به ، لن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنتي ". والإنسان كذلك يتدرّج في تحصيل العلم يقول الله تعالى :" يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات "(أ) .

وقال صلى الله عليه وسلم :" من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ,سهل الله له طريقاً إلى الجنة "(ب) .

وروي عنه أنه قال :" يا أبا ذر لئن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ، ولئن تغدو فَتُعلّم باباً من العلم عُمل به أو لم يُعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة "(ت) .

وروي عنه أنه قال :" فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد " (ث) .

وكما روي عنه صلىالله عليه وسلم :" فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم "(ج) . وقال صلى الله عليه وسلم :" أن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في جوف البحر ليصلون على معلمي الناس الخير "(ح) .

ويقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه :" العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق ".

وعن فضل العلم يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه :"تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لايعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة ، وهو الأنيس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة ،والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ،والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخيرة قادة وأئمة تقتص آثارهم ، ويقتدى بفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم . ترغب الملائكة في خلتهم ومصاحبتهم وبأجنحتها تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ،لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار ، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة . التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ،به تُوصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وهو إمام العمل ، والعمل تابعه ، يُلْهَمهُ السعداء ويحرمه الأشقياء ".

فالعلماء أسهموا بفعالية بالغة في نشر الإسلام وأيضاً هم الذين كتبوا القرآن نقلاً عن النبي . إن الله هو الذي حفظ القرآن ، ولكن هؤلاء أيضاً كتبوه ولهم فضل كتابته ، فهم أناس الاستنارة الأجلاء ، وأبرز اختصاصيي الروح وفقه الذات .

يقول صاحب المنار:" بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أمياً , ولم يُنقل لنا أن الله سبحانه وتعالى بعث نبياً أمياً غيره ، فهو وصف خاص لايشارك به محمداً صلى الله عليه وسلم أحد من النبيين ، والأمية آية كبرى من آيات نبوته فإنه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم النافعة ، وهي ما يُصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم ، وأعمالهم وأحكامهم ، وعمل بها فكان لها من التأثير في العالم ما لم يكن لغيره من خلق الله ".

نحو محبة الكتاب

إنك لاتتعلق بشيء إلاّ إذا أحببته وتعلقك به يكون على مقدار محبتك له . ليس بوسعك أن تتعلق بشيء لاتحبه وإذا رأيت في نفسك بعض الميل فاعلم بأنه ميل آني يزول بزوال اللحظة وأن مجرد تحقيق فعل هذا الميل يزيله لأن الميل ولد في البدء لتحقيق رغبة يمكن لها أن تنتهي .

العلاقة الزوجية بين الزوجين تعطي مثالاً حياً في هذا الشرح . المرأة هي حرث الرجل وهو يأتي حرثه أنّا شاء ومن هذه العلاقة / الحرثية / تولد علاقة أكثر عمقاً يمكن تسميتها بـ " الألفة " ومن هذه الألفة تولد ذروة العلاقة الزوجية التي هي "المودة " . هذه المودة هي التعلق الأصدق و الأبقى طيلة الحياة الزوجية ، وفي تقديرنا بأنها ذاتها التي ستدفع الزوجين إلى رغبة اللقاء في مكان آخر خارجا ً عن هذا العالم رغم أن ذاك المكان سيوفر للزوج نساءً أجمل وأبهى ليقضي وطره منهن ، وهولن يكون بحاجة إلى " حرثية " العلاقة بينه وبين حليلته السابقة .لكنها "المودة " اللتي لاتموت إذا ماشاء الله وجعلها بين الزوجين .وفي البيت الزوجي ذاته نجد خلود المودة حينما يأتي الرجل امرأته ويقضي وطره منها ثم تتصرف ، لكنها لاتترك البيت كله لأن المودة تربطها . والأمر الآخر في أوقات النفاس أو الحيض فإن المرأة لاتترك بيتها رغم أنها لاتصلح له " حرثياً " وهو كذلك يبقى يتودد إليها ، وحتى لو أصابها عارض ومنعها كلّياً من جماعه فلن تدعه مودته التي ولدت بأن يتركها ، حتى إذا اضطر وتزوّج من أخرى

فإن هناك الأقوى الذي يربطهما . وفي رأيي أن هذه المودة ذاتها هي التي تُبقي المرأة في بيتها عندما يتزوج زوجها من أخرى لأنها تكون قد ألفت هذا الزوج وهذه العشرة معه وإذا كان العشاق يرون بأن الحب ماهو إلاّ للحبيب الأول ،فإني أرى بأن المودة – التي هي أعلى درجات الحب – ما هي إلاّ للزوج الأول . بهذه المقدمة أردتُ أن أمهّد لأجد مدخلاً لحديثي عن علاقتنا بالكتاب . وهو موضوع حسّاس لايوليه الكثيرون عنايتهم .لايكفي أنك تبني مكتبة في بيتك قد يتراكم عليها الغبار أو قد يأتي من يخلفك فيبيعها . إن الخطوات الأولى للتعلق بالكتاب تكون عن طريق محبته.

كيف نحب الكتاب ؟

قبل الأجابة على هذا السؤال أقدّم هذا التعريف من مختار الصحاح إذ يقول :" كَتَبَ من باب نصر
و(كِتَاباً) أيضاً و (كتابة) و(الكتاب) أيضاً الفَرْض والحُكْم والقدر . و (الكاتب) عند العرب العَالِمُ ومنه قوله تعالى :" أم عندهم الغيب فهم يكتبون " . و (الكُتّاب)بالضم والتشديد (الكتبة) . و (الكُتّاب) أيضاً و (المكتب).
و (اكْتَتَب) أي كَتَبَ ومنه قوله تعالى :" أكْتَتَبَها " وأكْتَتَب أيضاً كتب نفسه في ديوان السلطان . و (المُكْتِب) بوزن المخرج الذي يُعَلّم الكتابة ، و (اسْتَكْتَبَه) الشيء سأله أن يكتبه له . و(المُكاتَبَة) و(التَّكاتب)بمعنى . و (المُكاتَبُ) العبد يُكَاتب على نفسه بثمنه فإذا سعى وإداه عَتَقَ " .
محبة الكتاب تأتي من الاعتناء به والتعامل معه باحترام إذ لايجوز أن يأتي أبٌ فيقرأ كتاباً ، ثم يقذفه جانباً أمام أولاده ، أو يكتب عليه شيئاً ، أو يتناول شراباً فيضع الكأس على كتاب ، أو يهمل الكتاب حتى يمسي بالياً ، وعلى الآباء الذين يرغبون في زرع محبة الكتاب في نفوس أولادهم أومَنْ هم معهم تتبع القواعد التالية :
١-لدى شراء كتاب جديد ، حمله بعناية ويُفضل أن يكون مغلفاً وتجنّب حمله بعشوائية أوطويه او تمزيق أي جزء منه .
٢- عند القراءة المتقطّعة ، يفضل استخدام ريشة بدلاً عن طي أعلى الصفحات ، ثم وضع الكتاب في مكان مؤقت يحفظه ويحميه من آثار الطعام أو الشراب أو الغبار ريثما العودة إليه .

٣- عند القراءة الواحدة ، أن يؤخذ الكتاب من موضعه المخصص له في المكتبة ، ثم يُعاد إليه مباشرة دون أن يُكلّف ذلك من قِبل أحد .
٤- الحفاظ على مكان كل كتاب في قسمه المخصص له ضمن المكتبة .
٥- في حال تعرض كتاب للتلف ، المسارعة في تجليده وصيانته .
٦- التعامل مع الكتاب بلطف واحترام وكذلك أن تقوم الأم بتعليم أطفالها عبارة :" هدوء .. بابا يقرأ "على غرار :" بابا نائم ".
عند الالتزام بهذه التعليمات وما يتفرع منها ، فإنه يتولد شعور بالاحترام نحو الكتاب خاصة لدى الناشئة ومن هذا الاحترام يتعزز إحساس بالحب في نفوسهم تجاه الكتاب ومتى ماحل الحب ، حل التعلق بالكتاب . فالأب هوقدوةلأبنائه والأبناء دوماً يميلون إلى القيام بأفعال آبائهم وعندما يكبرون وينجبون
فإن صورة الآباء تلبث في مخيلاتهم فيقومون بما قام به آباؤهم . إن الكتاب هو زاد فكري ومعرفي يحتاجه كل إنسان مهما كان تخصصه في الحياة .

الأمية الثقافية

لقدتم الحديث مطولاً عن الأمية المنتشرة في بلادنا لأسباب متفاوتة وفي تقديرنا أن هذه الأمية تضاءلت ولسوف تتضاءل في السنوات العشر القادمة على نحو أوسع ،لأن أي أب ومهما كان موقعه فهو لن يترك أبناءه دون دخول مدارس في عصر التفجر المعلوماتي . لكن الخوف كل الخوف من تفشي الأمية الثقافية بين شرائح واسعة من فئات مجتمعاتنا المتعلمة . فالطبيب ، أو المدرّس ،أو المحامي ، أو المهندس ، أو السياسي .. ما إن يتخرج ويواجه عمله حتى تراه يتوقف كلياً عن تثقيف نفسه . فلدى الطبيب قناعة أن كل ما يدفعه إلى التفوق في مهنته هو الإلمام بمزيد من النشرات والكتب والمحاضرات والمكتشفات الطبية . وقس هذا على الاختصاصيين الآخرين ، وهذا نفسه يأتي حتى على الفقيه . والواقع أن كل أجناس المعرفة تكمل بعضها فالفقيه الذي لايعرف شيئاً عن آثار التدخين من الناحية الطبية تكون نظرته شكلية . فعليه أن يحفظ الشعر ، ويقرأ في الفضاء ، ويقرأ في الهندسة ، ويقرأ في الأدب والحكمة حتى يستطيع أن يوسّع مفهومه عن الحياة المعاصرة وبالتالي يمكنه أن يجري مقارنات بين هذه المنجزات الحديثة وبين فقهه . وهؤلاء جميعاً عليهم أن يحسنوا التعامل مع الثورة

المعلوماتية الكبرى .وفي هذا ما أسميه : انفتاح العلوم البشريةعلى بعضها وتلاقح أجناس المعرفة بعضها ببعض . في حياتنا اليومية نقع على أشخاص من ذوي الإختصاصات وعندما نزورهم في بيوتهم تحل الصدمة علينا . فأزور فقيهاً في بيته ولاأرى في مكتبته الصخمة التي أفرد لها جناحاً كاملا من البيت كتاباً في الفلك أو الطب أو الأدب أو السياسة أو البيئة أو الشعر أو التاريخ .وهذا بذاته يكون لدى أصحاب الاختصاصات الأخرى . هذه هي الأمية الثقافية بعينها . فما المانع أن يقرأ الطبيب شيئاً من الشعر أو المسرح أو الرواية أو الفقه او يشترك في مجلة ثقافيةأو دينية أو فكرية إلى جانب إشتراكه في مجلات طبية وهذا يأتي على الفئات الأخرى . إن محبة الكتاب هي محبة المعرفة البشرية برمتها ،والكتاب لايعني أبداً اختصاصا من الاختصاصات ، بل الكتاب هو المعرفة بمختلف أجناسها وألوانها . من هنا علينا أن نعزّز مكانة الكتاب في نفوسنا ونوليه قدراً أكبر من وقتنا وجهدنا ومالنا لأن الأمية الثقافيةهي أشد بؤساً وجهالة من الأمية التعليمية وإذا كانت الأمية التعليمية تُمحى على طاولات المدارس ، فإن الأمية الثقافية لايمحوها إلاّ الكتاب .

اقرأ .. قبل :اسمع أو أنظر

لقد دعا الله الإنسان ليقرأ قبل أن يسمع أو ينظر ، وعلى ذلك فإن الذي لا يقرأ ، يكون سمعه ضعيفاً وتكون نظرته قاصرة . وما أن يبدأ الإنسان في القراءة حتى تراه يسمع جيداً ، ويرى جيداً .لقد بيّن الله في القرآن الكريم فضل العلم على الناس وهذه طائفة من هذه الآيات المباركة :

- "وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ لِمَنْ آمن وعمل صالحاً ولايلقاها إلا الصابرون "(خ)
- "وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون " (د)

-"شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة و أولو العلم قائماً بالقسط لاإله إلاّهو العزيز الحكيم "(ذ)

-"يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات "(ر)

-"قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون "(ز)

"ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم "(س)

ومما قاله النبي صلىالله عليه وسلم :

- "إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض

العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا "(ش)
-"مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه في الدين إنما أنا قاسم ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً تقوم الساعة وحتى يأتي أمر الله "(ص)
-" إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدي بها في ظلمات البر والبحر فإذا طمست النجوم أو شك أن تضل الهداة "(ض)
-"العلماء ورثة الأنبياء ، وإن العلماء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر "(ط)
-" مَنْ خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع "(ظ)
فإذن يكتسب الإنسان المعرفة والنضج والامتلاء بالحياة من كل شيء حوله . والحكمة في الإسلام هي ضالة المؤمن أينما وجدها أخذ بها . والإسلام ذاته الذي كان ثورة و انقلابا على الجاهلية أقر بأن فيها من الخصال الحميدة ودعا إلى العمل بها رغم جاهليتها .والرسول دفعك لتبحث عن العلم ولو في الصين وكانت الحكمة تُتلى في بيته كما يُتلى القرآن وقد أمر الله نساء النبي أن يذكرن :ما يتلى في بيوتهن "من آيات الله والحكمة " وسورة كاملة من القرآن حملت اسم لقمان وهو ليس نبياً ولكنه كان حكيماً ومما قاله هذا الرجل الحكيم الذي دفعته حكمته إلى تلك المكانة العالية في القرآن وهو يخاطب ابنه :"جالِس العلماء و زاحمهم بركبتك ، فإن الله سبحانه يحيي القلوب الميتة بنور العلم ،كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء ، وإياك و منازعة العلماء فإن الحكمة نزلت من السماء صافية ، فلما تعلمها الرجال صرفوها إلى هوى نفوسهم ". يبدو أن إمام الحكمة هذا كان شعلة استنارة في قومه حتى استطاع برحمة الله أن يحظى بهذا الاحتفاء الإلهي . وهنا سأقف أمام ما يمكن أن يلخّص موقف هذا الرجل الخالد من ظاهرة الحياة في الناس ، فقد سُئل : أي الخصال خير للإنسان ؟
قال : الدين •
قيل: فإذا كانت اثنتين ؟
قال : الدين والمال .
قيل : فإذا كانت ثلاثة ؟
قال الدين، والمال ، والحياء.
قيل :إذا كانت أربعة ؟
قال : الدين ، والمال ، والحياء ، وحسن الخلق .
قيل : فإذا كانت خمساً ؟
قال : الدين ، والمال ، والحياء ، وحسن الخلق ، والسخاء .
قيل : فإذا كانت ستاً ؟

قال : مَنْ اجتمعت فيه الخصال الخمس ، فهو تقي نقي ولله ولي .
القراءة هي إحدى أهم مصادر المعرفة ، ومهما بلغ الإنسان من تطور وتقنية لتلقي المعرفة ، فإنه لايستغني عن القراءة من كتاب فثمة معرفة لاتتحقق إلاّ عبر الكلمة مهما تقدّم الزمن ، وسأضرب لكم مثلاً ، فإذا تم تقديم سورة من سور القرآن الكريم من خلال مشاهد تمثيلية مصّورة في محاولة للاستغناء عن قراءة آية فإنها تفشل فشلاً ذريعاً في ذلك ، لأن هذا القرآن خلقه الله وأنزله ليُقرأ .. ليقرأ فحسب . وهذا بذاته يكون فيما لو قام شخص ما بالتغني بسورة أو آية . لأن القرآن أُنزل ليُقرأ ، لا ليُغنى أو يُلّحن . وبالتالي فإن ما تأخذه بالقراءة لا تأخذه بأي وسيلة أخرى حتى لو كانت سماعية بصوت أبلغ قارئ له.
إن على الإنسان أن يتعرف على الله بجهوده ومسعاه العملي ، فمنظر ربيع أو شجرة عامرة بالبلابل والورد من خلق شاشة ، لايقدّم لك ما يقدّمه دخولك واستنشاقك الطبيعي . وكذا فالقارىء مهما بلغ من حسن في صوته وبلاغة في قراءته ، فإنه لايقدم لك كنوز القرآن بقدر ما تقدّمه قراءتك الذاتية والتأملية له : " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار "(ع)
القراءة هي ذاكرة الإنسان ، والإنسان هو ذاكرة القراءة ولذلك فإن هذا الإنسان لم يجد طريقا إلى كماله إلاّ بعد أن تعلّم كيف يقرأ . فإنسان لايقرأ هو إنسان ناقص بكل المقاييس مهما كان موقعه الاجتماعي .

يرى بعض الذين لا يقرؤون أن القراءة لم تعد مجدية في عصر التفجر المعلوماتي لأن مايريده الإنسان بات في متناول يده بمجرد الضغط على زر . هذا كلام صحيح ولكنه ناقص لأن المعرفة وأي معرفة لاتأتي إلاّ عبر القراءة الفكرية والقلبية والبصرية ، وإن أتت فإنها تأتي غير مكتملة وكذلك تكون سريعة النسيان . يمكن أن يستفسر هؤلاء عن السبب والواقع فإننا تعلمنا من الحياة والتجارب بأن ما يأتي بسرعة ،يذهب بسرعة والعكس صحيح . وللمثل على هذا فكم من معلومة أتتنا عبر القنوات الفضائية ..؟ ما الذي لبث في ذاكرتنا منها ؟. في حين أننا نحفظ نشيداً قرأناه وكتبناه على مقاعد الصفوف الإبتدائية الأولى حتى لو بلغنا الثمانين من العمر ، لأن المعلومة أتت بالجهد المضني مما أدى إلى ترسيخها ترسيخاً عميقاً في الذاكرة . يمكن لنا أن نستمع بشكل يومي إلى أشرطة تحتوي على سور من القرآن الكريم ، لكن لانحفظ في حين أننا حفظنا سوراً منذ المرحلة الإبتدائية

ولانتساها ولذلك جاء الخطاب الإلهي إلى النبي : اقرأ . ولم يكن : اسمع .رغم أنه كان في حالة سماع :" اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم "(غ)
إذن كان عليه أن يقرأ ماسمع وبذلك يحفظ, وأي طريقة أخرى فإنها لاتجدي ولاتؤدي إلى الحفظ . وهذا الخطاب ذاته يشمل الناس حتى يسيروا على ما سار عليه نبيهم ويحفظوا خطاب الله . هذا المثال الديني يعزز مكانة القراءة ويثبت أن لابديل عنها .. في شوارع أوربا وفي قطاراتها وحافلاتها ومواقفها الداخلية ترى الناس يستغلون هذه الأوقات الضائعة لقراءة جريدة أو جزء من كتاب في حين أن مكتباتنا تتحول شيئاً فشيئاً إلى محلات لبيع الخردة وبيع بناطيل الجينز وإذا سألت أصحابها قالوا لك : لاأحد يقرأ .. لكن الناس يلبسون الجينز ويبتاعون الخردة . هذا يحدث في بلادنا مع تفجّر الثورة المعلوماتية في وقت يزداد فيه أهل الغرب قراءة٠ لايمكن للسماع أن يكون على حساب القراءة .. فمشاهدة فيلم لايمكن بأي حال أن تغني عن قراءة الرواية التي أخذ عنها هذا الفيلم . ومن هذا المنطلق فإننا نرى أن أكثر الروايات العالمية مبيعاً هي تلك التي تتحول إلى أفلام وهنا تتحول السينما إلى عملية ترويج للقراءة ، فأنت في القراءة لاأحد يشاركك ولاأحد يشوّش عليك على عكس ما تشاهد الأحداث في صالة سينما ضخمة ومهما حاولت التركيز واستطعت أن تشاهد هذه الأحداث عبر جهاز في منزلك فلن تظفر بما تظفر به من خلال مسك الرواية بيديك وقراءتها حرفاً حرفاً من الغلاف إلى الغلاف . مثل هذا الكلام لايعني الدعوة إلى القطيعة عن وسائل تلقي المعرفة الأخرى ولكنه دعوة لعدم الميل كل الميل إليها فإن الأشجار في النهاية تقف على جذورها ٠

مراجع:

أ- سورة المجادلة ، الآية ١١
ب- رواه ابن ماجة بسند صحيح
ت- رواه ابن ماجة بسند ضعيف وقد روي موقوفاً عليه
ث- خرجه الترمذي وابن ماجة وسنده ضعيف جداً .
ج- رواه الترمذي بسند ضعيف .
ح- الترمذي

خ- سورة القصص ، الآية ٨٠

د- سورة العنكبوت ، الآية ٤٣

ذ- سورة آل عمران ، الآية ١٨

ر- سورة المجادلة ، الآية ١١

ز- سورة الزمر ،الآية ٩

س- سورة النساء ، الآية ٥٩

ش- البخاري ، كتاب العلم ، باب كيف يقبض العلم

ص- الحديث متفق عليه

ض- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٥٧/٣ ،لكن الهيثمي في مجمع الزوائد ١٢١/١ ذكر أن فيه رشد بن سعد وهو مختلف في الاحتجاج به ، وأبا حفص صاحب أنس وهو مجهول .

ط- رواه الترمذي ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٦٩٤/٢

ظ- أخرجه الترمذي في العلم

ع- سورة آل عمران ، الآيتان ١٩٠- ١٩١

غ- الآيات من ١ - ٥

٤- تاريخ اللغة

اللغة هي كنز الإنسان وهي ميزته وتاريخه ، واللغة هي دليل العقل والرزانة وقد أكرم الله الإنسان بأن جعله يتكلّم ويكتب ويقرأ ، وهو كذلك يتدرّج في اكتشاف لسانه وإمكانات هذا اللسان الناطق . فمهما توسع اللسان وجرت عليه لغات وكلمات لغوية جديدة فإنه يبقى جاهلاً بلغات أخرى لأناس يعيشون معه وفي زمنه على ذات الكوكب . وهذا يبيِّن غنى وسخاء الله في منح هذه اللغات لإنسانه ،فالتواصل اللغوي هو من أرقى أشكال التواصل بين إنسان وآخر . عندما تتحاور مع شخص ، يعني بأنك تحاول أن توصل إليه فكرتك عبر اللغة ، وبالتالي فأنت تصغي إليه في محاولة أخرى منك لفسح المجال أمامه ليقنعك بوجهة نظره ، وفي كل هذا فإن اللغة هي ناقلة الأفكار و وسيطة فعّالة بينك وبينه . وقول الإنسان هو الإنسان نفسه ، فموقفك من أي قضية مرتهن بلسانك وعندما تنتمي إلى أي جهة فكرية أو عقائدية فإنك تقدّم التزاما عبر اللغة بمنهج ومبادئ تلك الجهة وتبصم على قولك ليكون دليلاً حياً عليك لأن اللغة لا تموت حتى لو مات قائلها . وقولك لأمر يعني فعلك له . وقد ورد في سورة الصف الآية ٣ :" كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " . ودوماً فإن الشخص الذي يقول ما لا يفعل هو شخص مكروه غير موثوق به . والإنسان نفسه تعرّف على ربه بواسطة اللغة ، وبدون اللغة لوجد مشقة بالغة نحو معرفة الله . أما اللغة فهي خطاب الله الواضح للناس بألسنتهم ، ومن خلال هذا الخطاب الإلهي الواضح فقد تعرّف الإنسان على نفسه كذلك وعلى الطبيعة وعلى الأفلاك وعلى تاريخه . فالقرآن الذي نزل عبر خطاب لغوي هو وثيقة تأريخية عن أصل الإنسان وسيرته وتاريخه . والإنسان يتعرف على ماضيه من خلال حديث الله عنه إذ لم يكن هناك من يؤرخ لذاك الماضي الغابر، ولا يوجد كائن من البشر يدّعي بأنه رأى الإنسان الأول ، أو يعلم علم اليقين كيف جاء هذا الإنسان ، ولكن الله يقول بأنه خلق هذا الإنسان ويقول للناس ما وقع معه من أحداث ، والناس يصدّقون بأنهم جميعاً أولاد شخص يُدعى آدم ، وأم تُدعى حواء ، وهما أصل البشرية وهو واقع قاله الله عبر اللغة ولم يجسر شخص أن ينسبه إلى نفسه . أما الذي لايعجبه أن يؤمن بهذا الكلام ، فهو بذات الوقت يعجز من أن يقدّم البديل ، وكل ما يستطيع أن يقوله هو أن يفتح أمام الإنسان أبواب متاهات لا تنتهي فيصبح الإنسان دائراً في فراغات عن نفسه دون أن يجدها . هذا كله يشير بوضوح إلى أهمية اللغة التي نتحدث بها ونصغي

إليها ، وهو بذات الوقت يفسح أمامنا الدروب نحو أسئلة مشروعة عن أصل اللغة ونشأتها .

مسؤولية اللغة

يميل الإنسان بفطرته إلى اللغة للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره ، وما أن تتحول هذه الأحاسيس والمشاعر إلى لغة تُلفظ على اللسان أو تكتب في صحيفة حتى يشعر الإنسان براحة وهدوء . وعلى هذا فيمكن أن يُفهم أن بكاء الطفل هو عبارة عن كلمات لم تتضح بعد ، فيشعر الطفل بعد بكاء طويل وبعد أن تُلبى حاجاته براحة وصفاء وسكينة . ليس كل لسان بناطق ، ما ينطق هو لسان الإنسان فحسب ، ومن هنا فإن لسان الإنسان هو موقفه من العالم أو من قضية ما ، واللسان هو هوية حاملة .
هنا سأطرح بعض النقاط في هذا الموضوع المثير مثل : نشأة اللغة ، وعجز الحيوان عن اللغة ، وآراء متعددة لعلماء لغويين عن اللسان ، وأنتهي إلى موقف الدين من اللغة.
يتميز الإنسان عن سائر مخلوقا ت الأرض بأنه كائن يتكلم ، وهذا يعني أنه يفكر ، أنه يقرأ . هذا يعني في نهاية الأمر أنه كائن عاقل ومتعقل . إذاً اللغة هي سمة خاصة بالإنسان وهي التي تحدّد مساره وتُلزمه بالأنظمة والقوانين وهو بالتالي – بعد تمكنه من الاستماع والإسماع – يكون مسؤولاً عن هذه اللغة . والواقع هذا شكل من أشكال التكريم الإلهي لبني البشر فلا يتم الإيعاز للإنسان بواسطة السيف ، بل بواسطة الكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن . وأما الذي لاتصله الرسالة فلا يكون مُلزماً بتنفيذها ، وبالتالي فكل قوانين الأرض انبنت على الكلمة . إن أي قرار إذا أراد ولي الأمر أن يعممه فإن ذلك سيكون عبر الكلمة واللغة وقبل انتشار وسائل الإعلام فقد كانت القرارات تُبلَّغ للناس عبر أشخاص يسيرون في الطرقات ويُلفتون الأنظار إليهم بالقرع على طبول كبيرة . ثم يبلغون القرارات عبر الصوت المباشر على أن يعُلم الحاضر السامع ، الغائب غير السامع . واللغة ذاتها تُستخدم كعلاج للأمراض النفسية والعصبية ففرويد اعتمد بشكل رئيسي على علاج مرضاه عن طريق الجلسات واستخدام اللغة ، أي أنه كان يعالج مرضاه باللغة •ولذلك أطلق جان بول سارتر مقولته :" مسألة اللسان توازي مسألة الأجسام تماماً ". ولكن لابد من القول بأن اللسان هو على جميع المستويات يمثل موقف الفكر . اللسان مرتبط بالفكر والفكر هو الذي يحرّكه ويُجري عليه الكلمات ، بل يُجري عليه حتى الهذيان ، كما

يفرض عليه الصنمية والصمت السفلي في مواجهة الفوضى الكلامية العارمة . وها هنا يتم التقسيم على نحو أوضح إلى ثلاثة أركان : الركن الأول والمصدر الأول هو " الفكر " ، ثم الركن الثاني هو " اللسان " الذي يستجيب لنداء الفكر بالتحريك ، ثم الركن الثالث المنطلق إلى الآخر وهو " اللغة " التي تتشكل بواسطة اللسان لأن إنسان بلا لسان لا يجيد الكلام ومن هذه النقاط تولد الفونولوجيا على قاعدة الكوجيتو الديكارتي : أنا أفكر إذاً أنا موجود . ويمكن قلب النظرية إلى : أنا أتكلم إذن أنا أفكر .

لقد امتلك الإنسان اللغة وهذا أهم إنجاز اكتسبه في تاريخه الطويل فمن خلال اللغة يفجر حالة الشاعرية في كوامنه ، ومن خلال الألفاظ يسجل الأفكار الخالدة الكبرى . ويستخدم الإنسان اللغة لإقناع الإنسان بوجهة نظره أو بشيء ما . وبذلك فحتى الأديان أتت عن طريق اللغة وأصرت أن تنتشر عبر كلمات ، والله يأمر رسله أن ينشروا رسائله عن طريق الكلمة الطيبة ، فعندما طغى فرعون أمر الله موسى وهارون أن يذهبا إليه ويقولا له " قولاً ليناً لعلّه يتذكر أو يخشى " .

إن الإيمان ذاته يتدرج فيه الإنسان عبر اللغة وعلى هذا فإن الداعية في الواقع هو عالِم لغوي يحفظ أول ما يحفظ القرآن الكريم ، ومن ثم الحديث النبوي ومن ثم الشعر ، لأن مهمته لا تكتمل دون تمكّنه من أصول وحتى كيمياء اللغة . والإنسان المؤمن من السواد كذلك ليس بوسعه أن يُكمل إيمانه دون لغة ، فالذكر هو لغة .. والنية على عبادة هي لغة ، والصلاة تتبنى على اللغة ، فهي التي تجعله يعيش حالة مطلقة من الخشوع بين يَدي ربه .

ومن هنا فقد اتقد هاجس البشرية بحثاًعن اللغة الفطرية للإنسان ، فتم مثلاً عزل مولود حتى كبر دون أن يسمع لغة علّه يأتي بلغة الإنسان الفطرية ، لكن تبيَّن أن الإنسان يكتسب اللغة وهي ليست صفة وراثية بأي حال كلون العينين أو الصوت أو الطول ٠ ومرة أخرى سعى الإنسان لتحميل هذه المسؤولية الكبرى للحيوان علّه يجد في عالمه شيئاً جديداً في محاولة يائسة جديدة لإنطاق هذا الحيوان ، وبدأت المحاولات الجادة مع أكثر هذه الحيوانات شبهاً بالإنسان- الشامبانزي – لكن بعد محاولات مضنية أكد لهم هذا الحيوان عدم قدرته من تجاوز الحدود الخَلقية الموضوعة له ، وعدم تجاوزه على حق مقدّس إختُص به الإنسان وليست المسألة في أن يتمكن الحيوان من الحديث ، ولكن في اللغة ذاتها ، لأن اللغة هي التي ترقّي ناطقها ، فلو افترضنا أن الحيوان تكلّم ، لأصبح مقدوره أن يمحو أميته ، ويقرأ ، ولأصبح بمقدوره أن يتناقش مع الإنسان ، ويحفظ آيات الله ، وهنا كان الإنسان إنحرم من تناول اللحوم ، أو ركوب الحيوان ، أو الصيد سواء في البر أو البحر . إذ كيف لك أن تذبح كائناً يردد آيات الله ، وكانت هذه اللغة

ستقود الحيوان إلى عبادة الله لأنه أصبح كائناً عاقلاً وربما كان سيدخل بيوت العبادة ويُرسَل إليه أنبياء ورسل . هنا ندرك بأن الله يعلم مالانعلم ، وأننا أحياناً نستخدم عقولنا لمسائل مخجلة ، ولكن تلك هي حدود الله فلا نستطيع أن نقربها ، ولايسمح لنا الله أن نقربها حتى لو كررنا ملايين المحاولات . فهذا " خَلقُ الله ". إذن لم يستطع الحيوان أن يتحمّل مسؤولية اللغة التي هي خاصية الإنسان ، وتأكد لهذا الإنسان بأن المسألة هي أبعد وأعمق من الحنجرة ، فحتى لو تم تركيب حنجرة بشرية لأي حيوان سيفشل في أي محاولة نطق .

وتمكّن الإنسان في محاولات جادة أخرى من اختراع إنسان آلي ، لكنه لم ينجح في أن يخترع صوتاً لهذا الإنسان أو يخترع له سمعاً أو حواساً درّاكة ، وبالتالي لم ينجح في أن يُنطق هذا الإنسان ، أو أن يجعله يستجيب لكلمة مسموعة . إنه وهو آلي ، يستجيب فقط للآلة . إن الله هو الذي يخلق للأصوات نبراتها ، وقد اكتشف العلم الحديث أن للأصوات بصماتها ، فبصمة صوت إنسان لاتشابه بصمة صوت إنسان آخر كما في بصمات الأعضاء البشرية . وكذلك جرت دراسات عديدة على علم الأصوات وفشل المنشغلون مجدداً من التعرف على أسرار تفاصيل هذه النبرات التي تميّز صوتاً عن آخر ٠ فكلما يولد إنسان جديد يولد له صوت جديد لايشبه صوت إنسان من قبله ومن بعده ، فمن أين تأتي كل هذه الأصوات ؟! . هذا هو الإبداع الإلهي المتجدد في كل شيء ، إذ لايبدع إنساناً مكرراً في أي صفة من صفات إنسان سبقه . اللغة هي عالم مفتوح من المعرفة أمام الإنسان ، واللسان هو مفتاح اللغة ، والإنسان يرقى بواسطة اللغة ، وينحط كذلك بواسطتها . كل يوم تتسع الدراسات في علم اللغة واللسان والأصوات وكلها تدور في دائرة ملغزة تاركة كل الأبواب والاحتمالات مشرعة أمام محاولات أخرى . الإنسان هو ذاته يبدأ بتعلم اللغة بذات الطريقة البدائية منذ ملايين السنين .. يبدأ منذ الشهور الأربعة الأولى بـ : دا .. دا .. دا .. ثم : البأبأة ، ثم المأمأة ، إلى أن يتدرب لسانه على عالم جديد هو عالم الكلمات الذي بواسطته تتم الحياة فيما بين البشر على سطح الأرض . فكلما يزداد وعياً ، يزداد تمكّناً من اللغة ، والأبوان يصران على تعليمه اللغة أولاً لأنها السبيل إلى كل شيء . فاللغة هي الإنسان ، والإنسان هو اللغة ,و حيثما تكون اللغة يكون الإنسان ، ولذلك فإن خوف الأمم لايكون على زوالها بقدر ما يكون على زوال لغاتها , فمتى ما ماتت لغة قوم فإنه لن يجد بدّاً من الذوبان والانحلال والانقراض ٠ فاللغة هي التي تحمي شخصية أي أمة من الأمم من الزوال واللغة العربية هي محمية من الزوال بقول الله : " إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون " ٠ اللسان العربي هنا هو لسان عالمي حي تم

بموجبه مخاطبة العالم ولذلك هناك خطأ فادح حول محلية اللغة العربية التي تتعزل عن العالمية فهي بالدرجة الأولى لغة خطاب عالمية ، ورسالتها تكتمل بعالميتها ودين الإسلام ليس منغلقاً على العرب لكنه دين مفتوح أمام العالم برمته , وبطبيعة الحال فإن هذا ينتهي بنا إلى أن اللغة هي ليست وسيلة مؤقتة لسكان الأرض ، بل ستكون حيثما يكون الإنسان بعد مماته ، وهي ذاتها ستكون في الجنة وفي النار لأن أهل الجنة وأهل النار يعبّرون عن مشاعرهم بواسطة اللغة, ومن هذه الحقيقة الدينية كذلك تكتسب اللغة قدسية بالنسبة للإنسان فهي تحفظ أعماله بواسطة الكتابة التي تُدوّن وتُحفظ له أو عليه .

نشأة اللغة

سأعتبر كل ما قلته تمهيداً لما سألخصه هنا بكثير من الإيجاز ، إذن كيف وصلتنا اللغة ومَنْ هو أول إنسان نطق لغة , وما هي اللغة التي نطقها ؟ لقد اطلعتُ على تأويلات مختلفة ومن مختلف العصور والاتجاهات الفكرية وهي تأويلات بطبيعة الحال تناقض بعضها فمنها ما ترى أن الإنسان قد اكتسب اللغة من أصوات الطبيعة فمثلاً أن الماء يخر فسُمي خرير الماء ، والشجر يحف فسُمي حفيف الشجر ومثل ذلك صرير الباب وقعقعة الشنان وجعجعة الرحى . فأ نت عندما تطرق الباب يصدر منه صوت وكأنه يقول : طق .. طق . وقد رأى ابن جني (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) صواب هذه النظرية إذ قال : " ذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوي الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء وشحيح البغل ، ونهيق الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي . تم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذه عندي وجه صالح ومذهب متقبَّل " (ب) .
وهناك اتجاه آخر يرى بأن اللغة هي مسألة غريزية وفطرية في الإنسان وحتى لو وضعنا عشرة أطفال في مكان منعزل فإنهم عندما يكبرون سيعبرون عن مشاعرهم بالإيماء أو الإشارات . وماكس مولر المتوفى سنة ١٩٠٠ يميل إلى هذا الاتجاه بقوله :" إن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زُوّد بها الإنسان في الأصل للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبه ذات مقاطع ، كما زود باستعداد فطري للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة ".

وهناك اتجاه آخر يرى أن الإنسان قد اخترع اللغة كما اخترع المصباح الكهربائي مثلاً أو ما نشاهده من الاختراعات البشرية (ت)، والدليل أنه يطوّر لغته ويحدّثها من قرن إلى قرن وكذلك يخترع لغات متعددة ٠ إضافة إلى ذلك فإننا نجد اتجاها يدعو إلى عدم الخوض في البحث عن أصل اللغة ودليل هذا الاتجاه هو أن الباحث سوف يبحث في دائرة مفرغة وبالتالي يعود من حيث ما انطلق . يمثل هذا الاتجاه الإمام أبو حامد الغزالي الذي يحدد موقفه في كلمات موجزة يقول فيها :" أما الواقع في هذه الأقسام فلا مطمع في معرفته يقيناً إلا ببرهان عقلي أو بتواتر خبر أو سمع قاطع ، ولامجال لبرهان العقل في هذا ، ولم يُنقل تواتر ولافيه قاطع ، فلا يبقى إلاّ رجم الظن في أمر لايرتبط به تعبد عملي ولاترهق إلى اعتقاده حاجة ، فالخوض فيه إذاً فضول لا أصل له "(ث) .
وابن السبكي الذي جاء بعد الغزالي يؤكد هذا الاتجاه بقوله :" الصحيح عندي ألاّ فائدة لهذه المسألة ، ولذلك قيل : ذكرها في الأصول فضول "(ج).
ولكن رغم كل ما قيل فإنه يمكن البحث عن جذور هذه المسألة في الدين وفي مضمون العلاقة ما بين الله والإنسان . فنحن نرى بأن الله قد أنزل القرآن من خلال جبريل على خاتم رسله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . فهل أن الله لم يكن يعلم اللغة العربية وأنه تعلمها من الإنسان وعلّمها لجبريل حتى يخاطب بها رسوله ؟ . ثم أن الله يسمع ما يقوله الإنسان في سريرته وخلوته دون أن يتلقظ به ، فلو لم يكن الله عالماً بهذه اللغة فكيف يعرفها وبالتالي مَنْ الذي يترجمها له ؟
إن إعادة قراءة القرآن عامة بخصوص هذه الغاية تدلنا على أسئلة أخرى, ولكننا نجد إجابات لها في صفحات القرآن ذاته . يقول الله تبارك وتعالى :" ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم "(ح).
ويمكن معرفة أن الله قد خلق السموات والأرض وخلق اللغة . أي أنه قد خلق اللغة قبل أن يخلق الإنسان وبعد أن خلق الإنسان علّمه اللغة :" وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين "(خ) . ثم أن هناك حوارات تجري بين الله وإبليس عندما يرفض إبليس أن يسجد لآدم . والله يروي هذه الحوارات باللغة العربية وليس الهدف ذكرها في هذا المقام . وكذلك الخطاب الذي كان بين آدم وحواء قبل أن يهبطا الأرض ، والخطاب ما بين الله وآدم عندما ندم آدم على خطيئته وسأ ل ربه المغفرة فاستجاب له ٠كل هذا نحن لانعلم عنه شيئاً ولكن الله يرويه لنا باللغة العربية . وهذا في تقديري يشير إلى وجود لغة حتى قبل أن يهبط الإنسان الأرض ، بل وقبل أن يُخلق الإنسان . لقد أخرج ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس ما نصه :" أن آدم عليه السلام كانت لغته في

الجنة العربية ، فلما عصى سلبه الله العربية ، فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه العربية ". وعن عمر بن الخطاب أنه قال : يا رسول الله ما لك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟
قال :" كانت لغة إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل عليه السلام محفظنيها ، فحفظتها ". أخرجه كذلك ابن عساكر في تاريخه . وابن النديم المتوفى سنة ٤٣٨ هـ يروي عن لسان إسماعيل :" فأما الذي يقارب الحق وتكاد تقبله النفس أنه تعلم العربية من العرب العاربة من آل جُرْهُم ولم يزل ولد إسماعيل يشتقون الكلام بعضه من بعض ، ويضعون للأشياء أسماءً كثيرة بحسب حدوث الموجودات وظهورها فلما اتسع الكلام ، ظهر الشعر الجيد الفصيح في العدنانية وإن الزيادة في اللغة امتنع منها بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لأجل القرآن ". ومرة أخرى عن أصل هذه اللغة فقد أخرج الحاكم في المستدرك وصححه عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا :" قُرْآناً عربياً لقوم يعلمون " ثم قال :" أُلهِم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً ". الآية هي الثالثة من سورة فصلت .
وإذا كان الإنسان قد اخترع اللغة فإنه يكون قد أسمى "الله " بهذا الاسم وبالتالي قد وضع له أسماءه الحسنى ، وهذا بطبيعة الحال يتدرّج إلى تسمية الملائكة والجنة وجهنم والأرض والسماء والساعة .. وهذا مخالف لطبيعة الإنسان الذي يتعلم من الله ما لم يعلم وليس هو الذي يعلّم ربه "ما لم يعلم " . ونستدل مرة أخرى بقول الله لبيان هذا الرأي :" وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم .قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ". هذا برأينا دليل واضح على أن الله هو مصدر اللغة وهو الذي علّمها لآدم ، وبالتالي فإن آدم قد :" أنبأهم بأسمائهم "(د). أي بدأت لغة صوتية ما بين آدم والملائكة ، وهم سمعوا واستجابوا لما سمعوا ، وكذلك فإن آدم يكون قد سمع صوت الله حتى تمكّن من الاستجابة اللغوية له . والآية بنظرنا لاتشير إلى وجود رسول بينهما كما حدث مع محمد عند تلقي الوحي من خلال جبريل الذي بالطبع تحدّث مع محمد اللغة العربية •

تعريف اللغة عبر التاريخ

قال ابن خلدون في المقدمة :" اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة عن المتكلم من مقصوده ، وتلك العبارة فعل اللسان ، فلا بد أن تصير ملكة

متقررة في العضو الفاعل لها ، وهو في كل أمة حسب اصطلاحاتهم "(ذ).
وعرّفها ابن الحاجب في المختصر:" حدُّ اللغة كلُّ لفظ وضع لمعنى ". أما أبو الفتح ابن جني فقد عرّفها بقوله :" حدُّ اللغة أصوات يعبّرُ بها كل قوم عن أغراضهم ". وقد ورد في الإصحاح الثاني من سفر التكوين :" والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان . فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول " .
ورأى ابن تيمية :" واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً ، ويؤثر أيضاً في مشابهة صور هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق " .

آخر السطور

بما أن الله قد خلق الإنسان ، فإنه لا يخلقه بدون أن يعلمه لغة ، خاصة وأن الله يتوجه إلى الإنسان عبر اللغة وليس من الصواب أن يأخذ ذو علم كامل ومطلق لغة كاملة من مخلوق خلقه هو ولم يمنحه إلاّ القليل من العلم . وقد ورد في الأثر بأن القرآن مخلوق وقد خلقه الله والقرآن هو خطاب لغوي ، وإذا خلا القرآن من الخطاب اللغوي لما كان بالأصل بحاجة لأن يُقرأ ولا أن يكون قرآناً لأننا عند ذاك كنا سنقلّب صفحات بيضاء . وهذا بذاته لا ينفي أن يكتشف الإنسان اللغة ، أو يكتشف اختلاق ألسنته كما أنه يكتشف زرعاً جديداً أو حيواناً جديداً .
اللغة هي صوت العقل والضمير معاً والإنسان يستمد رقيه وكماله من اللغة التي تحدّد معالم شخصيته وأي إنسان بدون لغة - إرسالاً و تلقياً - لهو إنسان ناقص . أظن أن علينا أن ندرك قيمة هذه اللغة ولا نرمي الكلمات جزافا وليس المبذر في قناعتي هو ذاك الذي يُبذّر أمواله فحسب ، بل هو ذاك الذي يبذّر حتى في نظراته وخطواته وكلماته . " فقلنا : يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك أ لاّ تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى " (ر) .

مراجع:

أ- سورة الحجر ، الآية ٩

ب- الخصائص ، أبو الفتح ابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٣ ، ص ٤٧- ٤٨ ، ١٩٨٦ .

ت- بمعنى أن كل شعب اخترع لغة تنسجم مع تركيبته الاجتماعية .

ث- التمهيد ، تحقيق د . مفيد أبو عميشة ، ج١

ج- المزهر في علوم اللغة ، جلال الدين السيوطي ، المكتبة العصرية ، ط ٢ ، ص ٢٦ ، ج ١ ، ١٩٩١ لبنان .

ح- سورة الروم ، الآية ٢٢ .

خ- سورة البقرة ، الآية ٣١ .

د- سورة البقرة ، الآيات ٣١-٣٢-٣٣.

ذ- مقدمة ابن خلدون ، الجزء الأول من كتاب : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بلا تاريخ ، ص ٥٤٦

ر- سورة طه ، الآيات ١١٧ –١١٨-١١٩-١٢٠

٥- نور القرآن

الإنسان كائن مجهول ، لايعرف شيئاً عن هويته عن تاريخه ، لكنه بشكل فطري يدرك بأن له خالق .. مَنْ هو هذا الخالق .. إنه يجهل كل شيء عنه ولذلك كلما يرى كوكباً أو قوة خارقة يهتف : هذا ربي . ثم يتبيَّن له خلاف ذلك . لقد قال الكثيرون للبشر : أنا ربكم ، وربما من أبرز هؤلاء " فرعون " ولكن لم يجسر أحد على الإطلاق أن يقول : أنا خلقتكم ، أنا أميتكم ثم أحييكم ، أنا رفعتُ السماء ، أنا مددتُ الأرض ، أنا أُمطر . بل لم يجرؤ أحد وعبر التاريخ البشري أن يطلق اسم " الله " على نفسه أو ولده ، ذلك أن الإنسان في حقيقة نفسه يُدرك قدراته المحدودة ويخشى قوة الله وبالتالي يبقن بأنه ليس الله لسبب قريب إلى الحقيقة وهو أنه لايستطيع أن يمنع عن نفسه الموت وفي هذا يؤكد القرآن :" وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم
وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا "(أ). لم يسبق لأحد أن ادعى بأنه خلق البشرية واستوى على العرش ، أو قال بأنه يعلم السر ، أو تحدّث عن أدق تفاصيل خلق الإنسان . ولكن الله يقول هذا ويتحدى مَنْ يأتي ويُبطل قولاً من أقواله . هكذا خلق الإنسان ، ثم بدأ يعلّمه كيف خلقه ، ويعلمه كيف خلق الكون ، ويعرّفه على الطبيعة ويعرّفه إليه على نحو متدرج . أنظر وتأمل في هذه الآيات كيف أن الله يعلّم الإنسان سيرته ، تكوينه ، وكيف يعرّفه بنفسه ومن ثم بالطبيعة وبالملائكة وبربه وهنا سأختار من مجمل القرآن أشكال التدرّج نحو انفتاح الإنسان على معرفة الله والإيمان به :" وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لاتعلمون "(ب) . ثم يروي خلقه بتفصيل :" لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ". لا يمكن لنا أن نقع على كتاب في العالم كله يقول مثل هذا الكلام ويتحمل مسؤولية الخلق الكبرى هذه إلاّ كتاب الله ، إنه يريد لعبده أن يتمتع بنعمة المعرفة . وهذا بذاته شكل من أشكال التكريم الإلهي للإنسان ، فيريد للإنسان أن يعرف ربه ومن ثم يعبده عن معرفة ، أي لا ينقاد إلى العبادة تحت السوط ، بل يتجه إلى التعبد بمودة ورجاء أن يتقبّل الله منه وكذلك يتخذ ما ينفق قربات عند الله ، لأن معرفة الباري

تحبب به العبادة وتجعله يتلهف فيجود بولده ونفسه في سبيل الله الذي يمنحه هذه الفرصة الثمينة ليعبر عن قوة إيمانه وعن محبته لربه :" الرحمن , علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان "(ت). و يذكّر عبده :" لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل مَنْ يشاء عقيماً إنه عليم قدير "(ث). ويرشده للتوكل على الله لأن الإنسان هو ملك ربه وليس ملك نفسه ، ويخطئ ذاك الذي يقول بأنه حر بنفسه ويفعل ما يشاء بها ، فلولا التوكل على الله لما استطعت أن تستسلم للنوم بطمأنينة ولما غفت لك عين ، حتى ذاك الملحد فإنه عندما يضع رأسه على الوسادة فإنه يستمد الطمأنينة من وجود الله ، إن الله يريح جسدك بالنوم ، فإن كنت ملك نفسك هل تستطيع أن تستبدل النوم بوسيلة راحة أخرى أكثر فاعلية ٠ ويبدو لك بدون تأمل بأنك أنت الذي تضحك في المسرات وتبكي عند المصائب ، وإذا كنت أنت فهل تستطيع أن تستبدل هاتين الهبتين الإلهيتين بما هو أكثر فاعلية وتعبيراً . إن الله يعلّمك :" وأنه هو أضحك وأبكى "(ج) . وبذلك فإنك تتدرّج في معرفة الله وتستوعب قوله لك :" ولا تقولن لشيء : إني فاعل ذلك غداً ,إلاّ أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدني ربي لأقرب من هذا رشداً"(ح). وعلى ذلك فإنك تقول بقلبك ولسانك معاً :" اللهم مالك الملك تؤتي الملك مَنْ تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز مَنْ تشاء ، وتذل مَنْ تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير "(خ) . ويعلّمك الله بأن معرفته لا تقتصر على ظواهر الأمور فقط ، بل تشمل بواطنها ، وذلك حتى ينقذك من التوسوس بما ليس لك لأن العصيان غالباً ما يبدأ في نفسك بالوسوسة ولذلك فقد أعلمك الله بـ :" أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه "(د). وكذلك :" فإنه يعلم السر وأخفى "(ذ) . وهذا ليس كلاماً عابراً ، بل يريك الله ذلك عملياً فيروي تبارك وتعالى في القرآن الكلام الذي يقوله المرء في قرارة نفسه ، وقد فضح الله أناساً قالوا كلاماً في نفوسهم ولم تلفظه شفاههم فيقول الله لك :" ويقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله "(ر) . وكذلك يريك قدرته الخارقة :" والأرض مددناها "(ز) ، ثم :"فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة "(س) ويقول :" أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً "(ش). وكذلك يريك قدرته :" ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا : آتينا طائعين "(ص). وإذا كان الله يدعوك إلى معرفته من خلال ما ترى ، فكذلك هو يدعوك إلى معرفته في نفسك فيقول تبارك وتعالى :" وفي أنفسكم أفلا تبصرون "(ض). ويقول النبي :" من عرف نفسه ، عرف ربه

"(ط) . إنك وأنت تتدبر في قراءة آيات القرآن ترى أشكال العلوم وألوانها مما وصل إليه الإنسان ومما لم يصل ، وعندها تدرك أن علوم العالم كله لاتغني عن قراءة آية واحدة من آيات هذا الكتاب المبارك .هنا كان بودي أن أنتقل قليلا إلى مسألة الإبداع الأدبي في تقديم شخوص أدبية يخلدون على ألسنة الناس ربما أكثر من شخصيات حقيقية , ولسوف ننظر إلى بعض تفاصيل في المقارنة بين الإبداع الأدبي وبين الخلق الإلهي ٠ يمكن أن نقع على أقوال لكتّاب يقولون بخلق شخوصهم ، وأظنني وقعتُ على هذا كثيراً في أماكن متعددة ، ولو أخذنا الأمر بمحمل الجد وأمعنّا التأمل في هذه المسألة لتبيّن لنا أن الكاتب ومهما بلغ من قوة في التعبير ونظرة ثاقبة فهو لايرتقي إلى أن يتحول إلى خالق حتى ولو كان خالقاً لشخصيات على ورق . ومن هنا فإن القرآن يتميّز عن سائر الكتب الأخرى لأنه من خالق لاخالق له ، والكتب الأخرى تكون من مخلوق له خالق . فالله يتحدث عن مخلوقات من خلقه ، بينما الكاتب يتحدث عن أناس إختارهم للكتابة عنهم . وأظن بأن الحديث يحتاج لبعض شرح : تولد الشخصيات الأدبية على فراش من ورق ويقف الكاتب خلف كل هذه الولادات .. يتولى مختلف الأدوار حتى تكبر هذه الشخصيات وتتقدم إلى الناس وتقدم إليهم الحكمة والمعرفة والخبرة والأحداث .. يكون الكاتب طبيباً إذا مرضت ، وحاكماً بالعدل إذا اختلفت ويكون أباً يجهد للصرف عليها ، وأماً تسهر الليالي لترضعها . ليس للشخصيات الأدبية إلاّ مبدعها وهي لاتنادي أحداً إلاّ مبدعها الذي تحمل إسمه . وهذه الشخصيات ذاتها هي التي تقف إلى جانبه في ليالي العزلة والمرض الموحشة ، فعندما يتخلى الجميع عن الكاتب يرى شخوصه بالقرب منه تؤنسه وتروّح عن نفسه آلام الروح ، ويمكن لها أن تطعمه وتلبسه وتقيه سؤال اللئيم .. إنها ترد الإحسان بالأحسان ولذلك يواصل الكاتب ليله بنهاره في سبيل رعاية شخوصه وتقديمهم بصورة حسنة وحقيقية باذلاً كل إمكاناته وخبراته في هذه المهمة . أريد هنا أن أوضح نقطة هامة من نقاط المعرفة البشرية المتصلة بالإنتاج الأدبي وأركز قليلاً على شخصية " المنتَج " الذي هو بطل العمل أو أحد أركانه . وهنا أقول بأن الكاتب مهما تميز بتفوقه الثقا في والمعرفي والعقلي فانه في النهاية يكتسب المعرفة ولا يبلغ ذروتها .. أي أن علمه ناقص مهما تقدم في درجات الكمال وعلى هذا فأنا أخالف مَنْ يقول بالخَلق الأدبي وأنه قام بخلق شخوصه القصصية أو الروائية . إن الخالق هو كامل العلم والمعرفة ولا شيء يزيده معرفة وعلماً ، ولكن الكاتب هو " مخلوق " وهو ناقص العلم والمعرفة ويتعلم من شخوصه ، ويجهل مصائرهم النهائية .. فالشخصية هي التي ترسم خطواتها ، ولشيء من الوضوح فان شخصية في قصة قصيرة – يكون الكاتب قد انتهى منها –

يمكن لها أن تعيد الكاتب إليها لتحول هذه القصة القصيرة إلى عمل روائي بما يستجد لها من أحداث ويمكن أن تتحول هذه الرواية إلى ثلاثية أو أكثر من الأجزاء الروائية فالشخصية هي التي ترسم خطواتها وتصنع أحداثها والكاتب عندما يباشر في الكتابة وفي أثناء الكتابة تتضح أمامه هذه الصورة وبالتالي يقوم برسمها ، والأمر الآخر أن هذه الشخصية قد ترفض ما يكوّن عنها الكاتب مسبقاً ، والواقع فان الكاتب ينتج الأدب ولايخلقه كما أن الفلاح ينتج الزرع ولايقوم بعملية نفخ الحياة فيه كما أن الأم تنجب المولود ولاتخلقه ولايمكن للمخلوق أن يكون خالقاً بأي وجه لأنه يكون التناقض بروحه فالمخلوق ناقص المعرفة والخالق كامل المعرفة ويعلم الغيب . وثمة أمر آخر لابد من إيضاحه في هذه النقطة وهوأن الأبداع في الخلق يكون جديداً لامثيل له من قبل ، فالإنسان هو خلق جديد وإبداع جديد والحيوان هوخلق جديد وإبداع جديد ..والجن هوخلق جديد وإبداع جديد والملائكة خلق جديد وإبداع جديد ٠

إن الخالق حينما يبدع فانه يبدع جديداً ولكن الكاتب الذي يقول بالخلق فهو لا يقدّم جديداً .. إنه ينقل الإنسان " المخلوق " بصورته الفيزيائية والسيكولوجية, ينقله كاملاً من الواقع – حتى لو كان هذا الواقع خيالياً – إلى الورق٠ فالخلق يقترن بالإبداع والكاتب يعجز أن يخلق كائناً جديداً ويبدع كائناً جديداً, ولكن الخالق يستطيع أن يخلق ويبدع كائناً جديداً غير الإنسان والحيوان والجن والملائكة ، ونحن بطبيعة الحال نقدّم أفكاراً جديدة عبر أبطالنا وشخوصنا .. وليس وظيفة الأدب الخلق ولكن من أبرز وظائف الأدب هو فضح واقع وتعريته بهدف إصلاحه . والأدب صرخة وجدانية تنطلق من ضمير الكاتب ودوماً الغاية الكبرى من الأدب هي تقديم المسرة والحقائق للمجتمعات والتخفيف من الألم والمعاناة ، وأيضاً فالأدب لا ينجح كاملاً في هذه الوظيفة لأن مايقوله الأديب فهو نسبي يحتمل الخطأ ويحتمل الصواب وقد يحتمل معاً جانباً من الصواب وجانباً من الخطأ لأن علم هذا الأديب ناقص ولذلك فان الرسول صلى الله عليه وسلم جاء أمياً ولم يتلق علمه من الناس ولم يتلق الأدب من الناس ، بل تلقى المعرفة من الله .. وهي معرفة كاملة ولذلك فهو "معصوم " ولذلك فهو أسوة على قاعدة قوله : " أدبني ربي فأحسن تأديبي " . إذن نحن مخلوقات تتعلم وهذا ليس عيباً ولانقصاً فينا فكل جيل يقدم جديداً للجيل القادم وليس مطلوباً من الإنسان أن يتحدى طبيعته البشرية ليعلم كل الحقائق ويبلغ الكمال المعرفي لأنه عند ذاك سيولد كل إنسان نسخة مكررة من الإنسان السابق ولن يكون لوجوده أي معنى ولذلك فان الإنسان يثق بالإنسان ويتواصل في التزاوج والبناء الأسري

لأن الحياة هي أغنى وأثرى من جميع تصوراته ودوماً يمكن أن يأتي ماهو الأبهى والأدهش .
دائرة الخلاف تتسع ما بين الفن والواقع ومهما كان الكاتب بارعاً فانه يعجز عن نقل شخصية بكامل أحاسيسها وتفاصيلها إلى عالمه الفني لأنه يعجز أن يغور في أعماق هذه الشخصية ويصغي لحديث نفسها ويلم حتى بأحلامها سواء في النوم أو اليقظة ، ولذلك فان الشخصيات الفنية تحاول أن تقول لنا ما أملاه عليها كاتبها ووفق هذا المفهوم فاننا يمكن أن نتعرف بالكاتب من خلال التعرف بأبطاله وشخوصه الذين يقدّمون رؤيته سواء السلبية أو الإيجابية في نهاية الأمر . ومن هنا فان الكاتب هو منتج الأفكار وصانع الأفكار ومقدّم الأفكار ، هذه الأفكار التي تُحدث التغيرات الكبرى في المجتمعات البشرية . ليس لنا من سبيل للمعرفة إلاّالمعرفة ، ولابديل عن المعرفة إلاّ المعرقة ، ولا مستقبل للإنسان إلاّ مستقبل المعرفة . إنها الدواء لكل داء ، وإنها الجواب لكل سؤال ، حتى تلك الأسئلة المؤرقة ليس من سبيل لإيجاد أجوبة لها إلاّعبر المعرفة . فقط الإنسان الذي يسعى إلى نور المعرفة يلبث مشرقاً وما دونه يبقى في غروب أبدي حتى لو أشرقت عليه ألف شمس . ليست المعرفة في جامع أو في كتاب ، أو في لغة ،أو في دين ، أو في أمة . المعرفة تنبع من كل القنوات ، لاشيء في الكون لا تنبع منه معرفة ، ولا شيء في الكون لايلزم الإنسان ، دوماً علينا أن نكون دائم التلهف للمعرفة ، و الإنسان كذلك هو دليل للمعرفة . دوماً عليك أن تبحث عن إنسان جديد تعلم منه شيئاً لم تكن تعلمه من قبل . الإنسان كنز من الأسرار المعرفية الهائلة وهذا الكنز لا نفاذ له . دوماً هناك شيء جديد لدى إنسان لم تتعرف إليه بعد , إن الله يعلم أناسا حتى يتعلم منهم أناس ٠ كان الإمام الشافعي يقول :

كلما أدبني الدهر أراني ضعف عقلي
وإذا ما ازددت علماً زادني علماً بجهلي

إن الناس هم أدلاء للمعرفة فيما بينهم لأن المعرفة مجزأة عليهم ، وإذا كان الشر دوماً يأتي من الآخرين وهذا قول لاغبار عليه ، لكن الخير أيضاً لايأتي إلاّ عبر الآخرين . وفي جميع الأحوال فإن الأبواب المفتوحة هي خير من الأبواب المغلقة . تكمن المعرفة في لغة جديدة نتعلمها ، في بلد جديد ندخله أول مرة ، في بيت جديد نطرق بابه أول طرقه ، في كتاب جديد نقرأه أول مرة ، في صحيفة ، في تمثيلية نشاهدها ، في مسجد ندخل إليه ، في التعرف على أنواع الحيوان والنبات ، في تعلم استخدام التقنيات الحديثة ، في ركوب وسائط النقل بمختلف أشكالها : طائرة ، باخرة ، سيارة ، دراجة

، خيل ، جمل . إن أي إنسان يمتلك وقتاً كافياً للتعرف على مظاهر الحياة من حوله، ولكنه هو الذي يفني عمره في قرية واحدة أو في مدينة واحدة ، أو في دولة واحدة ، أو في قارة واحدة . أو من البيت إلى العمل ، أو من البيت إلى الجامع ، أو أنه يُبلي نفسه بمرض جمع المال ، أو يفني عمره في مقهى . إن الصلاة لوحدها لا تكفي ، وقراءة القرآن لوحدها لا تكفي ، ومن الناس مَنْ يكتفي بذلك فيعتبر نفسه عارفاً ٠ القرآن هو دعوة للانفتاح على العالم ، وإنسان منغلق على قراءة القرآن والتردد إلى جامع لن يرى أبعد من المسافة التي تفصل بيته عن الجامع . وقد تنبّه النبي إلى هذا الواقع لدى فئة من المسلمين فلم يقل : يُستحب ، أو: إن من سنتي ، بل قال بان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . لم يقل : طلب الفقه ، أو الدين ، أو الطب ، أو الأدب ، بل قال : طلب العلم . فأصبحت ْ العلوم الإنسانية برمتها في دائرة هذه الفريضة ، وهذا لا يعني أنه مفروض على المسلم أن يغدو عالماً في كل علوم الدنيا ، بل أن يسعى إلى معرفة شيء من كل علم ، ولم يكن أمر النبي عبثاً بقدر ما كان في خدمة الإنسان ، واليوم فإن المسلم الذي يعلم شيئاً عن الطب يجيد الإسعافات الأولية في الحالات الطارئة كالغرق والحريق ، ويتعرف على أضرار التدخين وعلى أضرار المخدرات ، وعلى الأمراض التي تنتقل عن طريق الجماع ، وكذلك يعرف كيف يقي أطفاله البرد وتلوث هواء البيت ، والذي يعلم شيئاً عن التربية يقدّم طفلاً مربياً تربية سليمة ، والذي يعلم شيئاً عن الرياضة فهذا يغنيه عن أمراض كثيرة ، وكذلك الأمر بالنسبة لقيادة السيارة ، واستخدام الكمبيوتر ، والسباحة ، والفقه ، والأدب ، والفنون . هذه كلها علوم ينتفع بها الإنسان ولذلك كان النبي يصر أن :" علّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل " فالإنسان عليه أن يكون قوياً وعارفاً ومدركاً و :" المؤمن القوي هوخير من المؤمن الضعيف " وهي ليست قوة عضلية على قدر ما هي قوة علمية وفكرية ومعرفية . إن الله واسع يريد للناس أن يتعارفوا ويتحابوا ويصرف عنهم الظن بالسوء ، ويدعوهم إلى الظن الحسن في عائلة بشرية متحابة متكاتفة متماسكة فهو يكون حيثما تكون الجماعة :" ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ، أو بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ،أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكتم مَّفَاتِحَهُ ، أو صديقكم ، ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أوشتاتاً "(ظ). وهذا يجيز لك دخول البيوت المذكورة حتى في غياب صاحب البيت شرط أن تكون لديه موافقة مسبقة على ذلك كأن يقول لأهله :إذا دخل فلان أكرموه . وبهذه الحالة فقد تحرّج البعض من الأكل

بمفرده إلى درجة رفض الأكل فنزل :" ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو شتاتاً " فأصبح بإمكانك أن تأكل في بيت صديق أو قريب مع أهله وبدون حضوره . إن الله يدفع الناس للتوادد والتراحم والتآلف وصلة الرحم ، ويجنبهم العزلة والفرقة والبغضاء وسوء الظن حتى يتمكنوا من العيش في عائلة بشرية واحدة بحميمية .
يقول الله فيما رواه عنه النبي :" أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي خيراً "(ع). والإسلام هو رسالة حسن الظن فقد قال أبو هريرة :"سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :" كل أمتي معافى إلاّ المجاهرين . وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول :يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر ربه "(غ). وكذلك فعلى الناس أن يستروا بعضهم البعض في حال وقوع معصية وألاّ يتجسسوا . فقد جاء الإسلام انقلابا على عادات الناس وتقاليدهم البالية وظنونهم السيئة
عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : يا معشر مَنْ أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ،لا تؤذوا المسلمين ولاتعيّروهم ولاتطلبوا عثراتهم ، فإنه مَنْ تتبع عورة أخيه المسلم ، تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله ، ونظر ابن عمر إلى الكعبة فقال : " ما أعظمك وما أعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منكِ" (ف). وأخرج ابن عساكر عن أبي قلابة أن أبا الدرداء رضي الله عنه مر على رجل قد أصاب ذنباً فكانوا يسبونه . فقال :" أ رأيتم لو وجدتموه في قليب ، ألم تكونوا مستخرجيه ؟ فقالوا : بلى ، قال : فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم . قالوا أ فلا نبغضه ؟ قال : إنما أبغض عمله ، فإذا تركه فهو أخي ". وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى عليه وسلم أنه قال :" إنكم تجالسون بينكم بالأمانة ولا يحل لأحد أن يفشي على صاحبه ما يكره "(ق). كل هذه الأخلاق الكريمة بدأت تنتشر في الناس بتدرّج وتستقطبهم للدخول في الإسلام الذي يحمي الإنسان برمته . وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :لايستر عبدٌ عبداً في الدنيا ، إلاّ ستره الله يوم القيامة (ك) . وتواصل النبي في نشر هذه الأخلاق مغتنماً كل جمع وكل فرصة ، وكذلك فعن أبي هريرة أن النبي قال :" إياكم والظّن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم ، المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايخذله ولايحقره ،: التقوى ههنا .. التقوى ههنا . –ويشير إلى صدره – بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وعرضه وماله , إن

الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأعمالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم "(ل) •وورد في الخبر الصحيح :" إن الرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيهوي بها في النارسبعين خريفاً ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغتْ فيُرجع بها في عليين "(م) .
والواقع فإن مرجع كل هذا هو القرآن الكريم ففيه يقول الله :" ما يَلفظُ من قولٍ إلاّلديهِ رقيب عتيد "(ن) . وكذلك مما يقول الله :" لا يحب الله الجهر با لسوء من القول "(هـ) . لقد ملأ القرآن كل الجوانب الروحية في الإنسان ، وحفظ له حق العيش بكرامة في مجتمع إسلامي نقي ، وإذا رأى البعض غير هذا ، فإننا قد نرى هذا الخلاف معه ونشاركه الرأي ، ولكن نحن نتحدّث عن رسالة الإسلام ، ولا نتحدث عن واقع المسلمين أو نصوّرهم كمجتمع مثالي مصفى . ونرى أن نخبة من رموز الفكر العالمي الذين أشهروا إسلامهم ، لم يدخلوا المسلمين ، ولكنهم دخلوا الإسلام حتى أن أحدهم حينما زار المسلمين في ديارهم ورأى ما رأى قال :" أحمد الله بأني تعرفت على الإسلام قبل أن أتعرف بالمسلمين ". ليس لك من عدو أشرس وأفتك من الجهل وهو في أعلى مراحل تطوره يبلغ مرحلة ينتزع فيها إنسانيتك منك ولايُبقي فيك إلاّ شكل إنسان ، وبذات الوقت يجعلك أكثر الناس دفاعاً عن حالة اللاإنسانية هذه ،بل وتقاتل في سبيل الحفاظ على هذه الحالة فيك فتمسي حكمتك اللاإنسانية المفضلة والتي تدافع بها عن نفسك :" إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب ". وهكذا ينعدم الشعور الإنساني لديك ، وتموت الأخوة الإنسانية في ضميرك إلى أن ترى الناس كلهم على شاكلتك ذئاباً . هذا ما حذّر النبي منه في أمته ولذلك جعل طلب العلم فريضة عليها كي يجنبها الوقوع في هذا المستنقع ومن هذا فقد بيّن الله له وللناس حينما أنزل عليه :" وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين " وهي دعوة مفتوحة لمن هم خارج الإسلام لينتفعوا بهذه الرحمة العالمية التي خص الله بها العالمين من خلال آخر نبي ورسول يرسله للناس .
علينا أن نعرف ، ونبذل كل ما باستطاعتنا لنعرف . وعليك أن تتقن اللغة التي تتحدث بها ، لأن اللغة الركيكة تدل على ركاكتك وقد قال النبي :" إن من البيان لسحرا " فأنت إذا طلبت حاجة من شخص ولم يجبك ، فاعلم بأنك فشلتَ في إقناعه بهذه الاستجابة ، وفي ذات الوقت فإن غيرك يظفر بمراده من ذات الشخص عبر البيان اللغوي المؤثِر الذي وصفه النبي في قوله . وهذا البيان لا يكتسبه الإنسان إلاّعبر الاستمرار في القراءة وعلى الأخص قراءة القرآن والسنة وكتب الأئمة والتراث الأدبي . والنبي لم يكن يتمكن من إقناع كفار قريش الرموز برسالته لولا تمكنه من اللغة التي لها الأثر البالغ في نفس السامع وقد أرشده الله إلى سبيل اللغة مبعداً إياه عن سبيل السيف ،

فما تحققه الكلمة الطيبة المؤثرة ، لا يحققه السيف :" أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ". ومبعداً إياه عن السيف :" وكفى الله المؤمنين القتال ". وإذا تأملنا في رسائله إلى كبار الملوك في زمانه نرى هذه الحكمة ، فهو عندما يخاطب ملكاً ليدعوه إلى الإسلام لايصفه إلاّ بالعظمة ، مثل :" من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم الروم .وفي رسالة إلى النجاشي يقول فيها :" بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سِلمٌ أنت ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى حملته من روحه ونفحه ". ومما يروى أن المقوقس قبَّل رسالة النبي وأهدى إليه من ضمن الهدايا ماريا القبطية ، فتزوجها النبي . وأما النجاشي فقد دخل الإسلام على يد جعفر بن أبي طالب وزوّجه النبي بأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وقام النجاشي بصداقها أربعمائة دينار من عنده .

كثيرون يتلون آيات هذا الكتاب لكنهم لا يبلغون نور الحروف فيه ، من هنا يمكن اعتبار أن القرآن هو أقل الكتب قراءة ، رغم أنه أكثرها قراءة فالقرآن لا يُقرأ فيه سوى ظاهر الكلمات ، وأغلب الناس يقرؤون الآيات على قاعدة أنهم يؤ دون واجباً دينياً ، أو أن هذه الآيات التي قرؤوها مئات أو آلاف المرات ستدخلهم الجنة . مثل ذلك كمثل عامل يكد في القيام بعمل وكل همه أن يقبض الأجر ولا يهمه سوى قضاء اليوم في العمل . إن غالبية أموال المسلمين تذهب في طرق شتى وأحياناً تسهم في إشعال حروب وفتن صغيرة وكبيرة في المسلمين أنفسهم . قبل أن يمدّ المسلم يده إلى كتاب إيمانه عليه أن يكون قد علم شيئاً عن ثقافة قراءة هذا الكتاب ، حتى تعينه على اكتشاف النور الذي يكون في بواطن الكلمات . فإن مرض هذا المسلم ، أو أحس بوجع روحي هرع إلى صيدلية القرآن فأتى بعلاج شاف . قد تسأل : كيف أقرأ القرآن ؟ . قبل أي فعل مدّ يدك إلى الكتاب وأنت تركّز على فكرة قراءته واكتشاف شيء من نوره ، ابحث في القرآن عن النور الذي فيه ، اقرأه وتخيَّل بأنك تنظر إلى الله مخاطباً إياك بألفاظ الجلالة . لا تترك آية قبل أن تلمس أنوارها ، اعد القراءة حتى تشعر بنور الكلمات وقد أنار جانباً من ظلمة عقلك ونفسك . فإن قرأت آية ، ثم علمتَ أنها لم تترك أثراً في نفسك ولم تحرّك فيك ساكناً ، اعلم بأنها ليستْ قراءة ، فأعد قراءتك . فانظر إلى نفسك قبل قراءة القرآن ، ثم تأمّل نوازع دواخلها بعد القراءة ، فإن هبّتْ عليها أنوار التغيير اعلم بأنك قرأت القرآن ، وإن لبثت على ما هي راغمة ميولاتها عليك ، آمرةً حواسك بالسوء ، اعلم بأنك لم تقرأ القرآن وإن ختمته

كل ليلة سبعين مرة . القرآن هو كتاب دنيا ، أنزله الله للأحياء الذين يعيشون الحياة الدنيا ليصلح لهم شأنهم ويرفع من عزائمهم ويجدوا فيه الشفاء لضعفهم . إنك تتقدّس بالقرآن على قدر ما تقدّسه . لعل حاجة المسلمين إلى معاهد شعبية تسهم في نشر ثقافة قراءة القرآن لهي أكبر من حاجتهم إلى الكتاتيب ومعاهد الحفظ ، والتجويد ، والترتيل ، والقراءة . فالمسلم عندما يمد يده إلى القرآن عليه أن يدرك أن معانيه أثقل من الأرض ، بيد أن الله يسر حمله وهوّن على الإنسان هذا الحمل برحمته . لو أن بلداً قُرأ فيه القرآن قراءة واحدة في يوم ، لرأيتَ بركة أنارت كل سبيل من سبله ، وكل حي من أحيائه ، حتى الأشجار فيه ستهب ثماراً أينع والبلابل تشدو بنغم أروع .

هذا يأتي على دواخل الإنسان الذي هو بلد كبير في حجم صغير . فما يصيب البلدان من سقام يصيب الإنسان ، وما يصيبها من شروق يصيبه . هذا الكتاب المبارك هو سلام من الله للإنسان يؤسس منهج تربية الجنس البشري بنور الله ، يوجهه لإلقاء نظرات إلى مضمون ودواخل الحياة بدل النظر على الأشكال والاكتفاء بالجدران . تتحول اللغة فيه إلى نصوع وأنوار فتشرق لها الروح كشروق شمس في نهار غائم فيستأنس الجسد كله بدفء هذا الشروق الطافح بحياة جديدة . لقد منّ الله تبارك وتعالى على المسلمين بأن أنزل لهم قرآناً فيه كل مواطن القوة الفكرية والبدنية ، فما من قرية بعدتْ عن القرآن إلاّ أصابها الوهن . ونعجب لأمر قرية أصابها الوهن وهي تبحث عن علاج دون القرآن والقرآن في ظهرانيها ، وقد أحالته إلى كتاب تراكم عليه الغبار ، أو أنه كتاب للأموات ، فكم من بيت لا يُفتح فيه القرآن إلاّ إذا فاحتْ منه رائحة موت ، وكم من بيت تراكم فيه الغبار على القرآن كما لم يتراكم على شيء دونه فهذه البيوت أحالتْ القرآن إلى كتاب قديم من التراث لا يلزم إلاّ في العزاء وعلى المقابر وعند ذكر الأموات ، كم من شخص لا يقرأ حتى الفاتحة إلاّ إذا حضر عزاءً . وبعد كل هذا تأتي هذه القرية فتشكو معيشتها " الضنكا " . منذ نزوله لم يكن القرآن كتاباً للمناسبات المأتمية ، لم ينزل ليُقرأ على أموات، أو على مقابر ، أو في خيم عزاء ، أو في أيام حداد على ميِّت . إنه منهج متكامل للحياة فيه ماضي وحاضر ومستقبل البشرية ، وهو كتاب الله لكل إنسان يولد ، لأنه نزل ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، والقرآن هو كتاب حضارة ، كتاب حياة , تنبض فيه كل تفاصيل الحياة ، إنه حضارة الله وشرع الله المفتوح ، وهو مصدر قوة أي فرد أو أي جماعة في كل زمان ومكان أنزله الله " تبياناً لكل شيء " . حتى أطفالنا الصغار فإنهم يبدون أقوياء كلما تلوا القرآن ونطمئن عليهم على قدر ما حفظوا من آيات ٠

مراجع:

أ- سورة الأعراف ، الآية ١٧٢
ب- سورة البقرة ، الآية ٣٠
ت- سورة الرحمن ، من الآية ١ ــ ٧
ث- سورة الشورى ، الآية ٤٩ ــ ٥٠
ج- سورة النجم ، الآية ٤٣
ح- سورة الكهف ، الآية ٢٣ ــ ٢٤
خ- سورة آل عمران ، الآية ٢٦
د- سورة البقرة ، الآية ٢٣٥
ذ- سورة طه ، الآية ٧
ر- سورة المجادلة ، الآية ٨
ز- سورة الحجر ، الآية ١٩
س- سورة الإسراء ، الآية ١٢
ش- سورة الواقعة ، الآية من ٦٨ ــ ٧٠
ص- سورة فصلت ، الآية ١١
ض- سورة الذاريات ، الآية ٢١
ط- قال ابن تيمية بأن هذا الحديث موضوع ، وقال النووي قبله ليس بثابت . وألف الحافظ تأليفا سماه القول الأسبه في حديث : من عرف نفسه ، عرف ربه . وقال النجم وقع في أدب الدين والدنيا للماوردي عن عائشة سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أعرف الناس بربه ؟ قال : أعرفهم بنفسه .
ظ- سورة النور ، الآية ٦١
ع- رواه الشيخان عن أبي هريرة رفعه بدون زيادة فليظن بي خيراً . رواه البخاري ٤٨٢/١٣ في التوحيد ، باب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه ، ومسلم رقم ٢٦٧٥ ، في الذكر والدعاء جـ ٤٧٧/٤
غ- متفق عليه
ف- رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه
ق- رواه الحاكم
ك- رواه مسلم

ل- رواه البخاري ومسلم

م- أخرجه البخاري ومسلم والموطأ والترمذي ، رواه البخاري ٢٦٦/١١في الرقائق ، باب حفظ اللسان ، ومسلم رقم ٢٩٨٨ ،في الزهد باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار ، والموطأ ٩٨٥ في الكلام ، باب مايكره من الكلام ، والترمذي رقم ٣٣١٥٠ في الزهد باب فيمن تكلم الكلمة ليضحك بها الناس جـ ١١ /٧٣٠

ن- سورة ق ، الآية ١٨

هـ – سورة النساء ، الآية ١٤٨

٦- قراءة كتاب الطبيعة

إن القرآن وإذ كان يدعوك لقراءته ، فإنه لايمنعك من النظر في مخلوقات الله لتكتسب المعرفة ، بل يدعوك إلى النظر والتأمل في كل شيء تراه من نبات وحيوان وجماد ، ففي سورة الغاشية :" أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت ، وإلى السماء كيف رُفعت ، وإلى الجبال كيف نُصبتْ ، وإلى الأرض كيف سُطحت " فالقرآن هنا دعوة إلى التأمل بغية التعرف على عظمة الخالق ، وسنتعرف هنا كيف أن الله قد خلق كل شيء بقدر . وبالطبع فنحن لانستطيع أن نفسر الطبيعة تفسيرا كاملا دون استعانة بالقرآن ، أو لنقل أن الطبيعة هي كوكب مظلم ،ويكمن النور في ثنايا القرآن الذي جاء ليكون نورا لظلام الإنسان وظلام الطبيعة التي يعيش فيها وتعيش فيه . ولنتأمل هذا النور الذي يبدد الظلمتين في بعض آيات :

"إنا كل شيء خلقناه بقدر "(أ).

" والسماء بنيناها بأيد وإنَّا لموسعون "(ب).

" إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استولى على العرش يُغشي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثاً"(ت).

"سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد "(ث) . "لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون "(ج) .

هنا سأتناول وبصورة شبه مركزة العلاقة ما بين الإنسان والطبيعة التي يعيش فيها . الطبيعة التي هي أيضاً تستمد حيويتها من بقاء وتكاثر الإنسان فيها وهي كذلك تتحسس من تدخل الإنسان في شؤون فطريتها وتبلغ مرحلة النقم منه وردعه إزاء تماديه في هذا التدخل .

لاشك أن الإنسان قد استطاع أن يمتطي عجلة التقدم العلمي والتكنولوجي بشكل واقعي فعال اعتبارا من مائة وخمسين سنة ماضية وهذا بذاته كان حلم الإنسان منذ ملايين السنين . إذن عمر الحضارة البشرية بالمفهوم العلمي والتكنولوجي لا يتجاوز مائة وخمسين سنة استطاعت أن تقلّب الموازين والمفاهيم وتحيل ما كان خيالاً إلى واقع ملموس . وما يعنينا في هذا المقام هو عكس هذا المنجز البشري الهائل على الهواء الذي نتنفسه . بطبيعة الحال فإنه لا يوجد في الطبيعة البشرية منجزاً إلاّ ويأتي على حساب حالة مستقرة ونحن نعترف بأن البيئة قبل مائتي سنة مثلاً كانت أنقى من واقعنا الحالي ،

ولكن الإنسان سعيد أكثر منه في السابق لأنه يتمتع بهذه الاكتشافات المذهلة حتى لو جاءت على حساب الأوكسجين وبديهي أن الإنسان القديم كان يتمتع بهواء أنظف عندما كان يغتسل على ضفاف الأنهار ، ولكنه الآن يعاني قلة الأوكسجين داخل حمّام مغلق مليء بالبخار وهذا المثال يأتي على مختلف أشكال وألوان التفجّر العلمي والتكنولوجي . وإذا كانت حياة الإنسان القديم لا تدعوه لأي التفات إلى العناية ببيئته ، فإن نمط حياتنا الآن لا يدعونا فحسب ، بل يفرض علينا اهتماما خاصاً بالبيئةالتي نعيش فيها لأن كل إنسان بات مصدراً لتلويث البيئة وهو ذاته يستطيع أن يخفف من هذا أويزيد فيه حتى من خلال سيجارة يدخنها ، أو من خلال سيارة يقودها ، أو من خلال موقع عمله سواء كان صناعياً أو تجارياً أو حرفياً . فعلى سبيل المثال إذا خفّف كل مدخن في منطقتنا سيجارتين لأنقذ البيئة من دخان ملايين السجائر كل ساعة ، ولو استخدم كل صاحب سيارة قدميه في المشاوير القريبة لأراح البيئة من دخان ملايين السيارات كل ساعة . وهانحن نرى صيحات علماء البيئة المرعبة التي تدعو الإنسان للكف من انتهاك حرماتها ، وإنها تعرف كيف سترد على هذا الإنسان وتجعله يلتزم حدوده . والإنسان بنظر علماء البيئة مهدد بانتقام البيئة منه وما ارتفاع الحرارة في الصيف بدرجة غير مسبوقة إلاّ إشارات لهذا الانتقام . أظن بأننا في هذه البقعة الصغيرة من الأرض نحتاج إلى ثقافة بيئية تمكّننا من التعامل السليم مع البيئة التي نعيش فيها . حتى الآن يجهل الكثيرون مفهوم البيئة ، بل لا يؤمنون بها ، وبناء على ذلك فإن البيئة – غير الموجودة بمفهومهم – لا تعنيهم بشيء وحتى لو فكروا بشيء كهذا فإنهم يعدونه نوعاًمن الخرافة .. بطبيعة الحال فإننا أدرى بهذه الوقائع من غيرنا كوننا أبناء هذا الواقع . من جهة أخرى يرى البعض بأن أمر البيئة شأن عام في العالم برمته ولا تخصه كونه لا يستطيع أن يقدّم أو يؤخر في أمر مفلوت عام . والحقيقة فإنها مفاهيم تنم عن عدم إدراك الخطورة التي تعكسها وهذا لا يعفي الجهات التوجيهية والتربوية والبيئية من جسامة مسؤولياتها تجاه هذه المفاهيم لدى شريحة كبيرة من السكان . لكن ما هي البيئة ؟

البيئة هي الحياة برمتها .. هي الهواء الذي نتنفسه.. هي لون بشرتنا .. هي تفكيرنا .. هي منتوجاتنا وبالتالي هي خصوصيتنا . كل فرد لديه بيئة تخصه فمفهوم البيئة هو مفهوم عام كما هو مفهوم خاص .

إن كل إنسان توجد في داخله بيئة أحياناً تنقى فتهبه نعمة صفاء الفكر ، وأحياناً تتلوث فتجعله مرتبكاً مشوشاً لايقدر على التركيز . فالإنسان يبدأ أولاً بتنقية بيئته النفسية ، ثم يبدأ بتنقية بيئة المنزل الذي يعيش فيه ، ومن ثم الشارع الذي يسير فيه ، ومن ثم الحي الذي يقيم فيه ، ومن ثم المدينة التي

يسكنها ، ومن ثم البلاد التي ينتمي إليها . إن تدخين سيجارة واحدة تسهم في تلويث أجواء بيت كامل مؤلف من ست غرف ، وإن دخان سيارة غير منضبطة وقودياً وميكانيكياً تسهم في تلويث أجواء حي كامل ، وإن أي شكل من فضلات طعام تراكم في زاوية منزل أو على رصيف فإن الروائح تنتشر منه وتلوث أي نسمة نقية تهب على المكان . هذه هي مسؤوليات الناس على كافة مستوياتهم ويمكن لكل فرد أن يركّز على الترويج لهذه الحقائق .
إننا نعرف أن الإسلام قد عفى آكل الثوم من دخول المسجد حتى لا يلوث أجواء المسجد برائحة تنتشر في كل ركن منه ،فالإسلام لو لم يقل هذا لرأينا الناس دخلوا المساجد ولوثوا أجواءها سواء بقصد أو بغير قصد ، ولكن الإسلام يربي الإنسان على النظافة والحفاظ على طبيعة الأماكن ونظافتها ومن هنا فإن الداخل عليه أن يغتسل ويرتدي ثياباً نظيفة حتى تُقبل عبادته فلا يجوز بأي حال من الأحوال أن تدخن سيجارة في مسجد. وواجب الإنسان هو أن يحافظ على نظافة أي مكان يتردد إليه فقد بيَّن الإسلام بأنه حتى إزاحة الأذى عن الطريق حسنة ، فما بالنا بمن يضع الأذى على الطرقات ,وليست الطرقات هي التي نمضي فيها فحسب , بل هي تلك التي نستنشقها أيضا , فالذي يلوث نسيما , كمن يلوث دربا ٠ الإنسان هو ابن البيئة التي يعيش فيها ، ولا يمكن لبيئة ملوثة أن تقدّم إنساناً سليماً في فكره وبدنه . ليس بالضرورة أن تكتظ أسواقنا بالمحال التجارية والأبنية الشاهقة ، ولكن من الضرورة للحفاظ على فطرية البيئة وجود حدائق مختلفة الأحجام ودوائر خضراء في كل ساحة من ساحات مدننا ، ولنستغل أي مساحة صغيرة نغرس فيها شجرة كما نستغل أي مساحة شاغرة في نفوسنا نغرس فيها وردة .
يدعونا الله تبارك وتعالى إلى قراءة كتاب الطبيعة والتأمل في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب المنظور لأن هذا التأمل يجعلنا أكثر قرباً من الله ، وأكثر تقديراً للنعمة التي أنعمها الله علينا :" فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنباً وقصبا ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا، متاعاً لكم ولأنعامكم "(ح). ثم يصف :" وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج "(خ) . ويقول :" أ فرأيتم الماء الذي تشربون ، أ أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون "(د).
ويدعوك لأن ترفع نظرك إلى السماء وأنت تتلو ذكره :" وزينا السماء الدنيا بمصابيح "(ذ) . وحتى تبقى محافظاً على ذكر الله فإنه يقول لك :" هو

أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها "(ر) . وهكذا توصل النبي في تأمله إلى قرآن الطبيعة إلى أن قال :" جعلت لي الأرض كلها مسجداً طهورا"(ز) .
ودعا الناس إلى احترام نعمة الطبيعة حتى آخر لحظة :" إن قامت على أحدكم القيامة وبيده فسيلة فليغرسها "(س) . " وأشرقت الأرض بنور ربها "(ش) . هذا الانفتاح الذهني والإشراق الروحي يزوّد مدركات المؤمن بقوة اللمح فيجعله يرى الله ببصيرته رؤية تغنيه عن البصر ٠

مراجع:

أ- سورة القمر ، الآية ٤٩
ب- سورة الذاريات ، الآية ٤٧
ت- سورة الأعراف ، الآية ٥٤
ث- سورة فصلت ، الآية ٥٣
ج- سورة غافر ، الآية ٥٧
ح- سورة عبس ، الآيات ٢٤ ــ٣٢
خ- سورة الحج ، الآية ٥
د- سورة الواقعة ، الآيات ٦٨ ــ ٧٠
ذ- سورة فصلت ، الآية ١٢
ر- سورة هود ، الآية ٦١
ز- رواه البخاري ومسلم والترمذي
س- عن الإمام أحمد
ش- سورة الزمر , الآية ٦٩

٧- فطرية الإنسان .. فطرية الطبيعة

الإنسان هو ابن الطبيعة و الطبيعة هي ابنة الإنسان ، إنها ثنائية أزلية ، فإذا اختل توازن الطبيعة ، اختل توازن الإنسان ، وإذا اختل توازن الإنسان ، اختل توازن الطبيعة . ومن هنا فإن صيحات الحفاظ على فطريتَي الإنسان والطبيعة تتعالى إذ ليس للإنسان في النهاية إلاّ حضن الطبيعة ، وليس للطبيعة إلاّ حضن الإنسان . يقول فاطر الإنسان والأرض :" فِطرَتَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون "(أ).

التفجر السكاني يزداد كل يوم ، والناس يتكاثرون ، يتزاحمون ، لم نعد نرى مساحات خالية من الأبنية في المدن والعواصم ، والإنسان بدأ يستثمر حتى الصحراء ويحيلها إلى مصنع أو إلى بستان مروي طيب ، الأرض تتسع للجميع ولايوجد إنسان لا يجد مسكناً ، ولكن أحياناً يظن البعض بأن المدنية لاتكون إلاّ في المدينة فتكتظ المدن بزحمة الناس ويقبلون العيش حتى في علب سردين تاركين بيوتهم الواسعة التي لا تحدها حدود في قراهم الطيبة وبالتالي يعطون صورة معكوسة عن أزمة السكن في العالم برمته ، وأيضاً أزمة المعيشة إذ يتم تخويف الناس بأن الأرض لن تعود قادرة على إطعامهم إذا لبثوا في هذا التكاثر . والواقع فهي مفاهيم بعيدة عن الصواب ، فالإنسان ذاته – رغم تكاثره – معرّض للانقراض على سطح هذه الأرض الشاسعة التي بطبيعة الحال فيها من الحيوان ما يضاعف مرات عديدة عدد سكان البشر ، وهذا ذاته بالنسبة للنبات والزرع . فالإنسان يمكن له أن يدّمر نفسه بنفسه بسبب المنجزات العلمية على كافة الأصعدة التي توصل إليها ويعرض نفسه للانقراض ، أي أن العلم الذي توصل إليه لبلوغ الرفاهية هو الذي يدّمره ونلمح أشكالاً من هذا التدمير الجزئي للإنسان في مشاهد إلقاء القنابل على أماكن آهلة بالسكان في حروب كبيرة وصغيرة . ولا أجد أي مبرر لهذه الجرائم إلاّ الأنانية وحب امتلاك الكرة الأرضية وامتلاك ثرواتها بالنسبة لفئة حاقدة أو حتى لقوم حاقد على الإنسان لا يؤمن بالأخوة الإنسانية . لكن رغم كل هذا فيبقى الإنسان بخير مهما تكاثر ، وكلما تكاثر الطيبون ازدادت الأرض عطاءً . كل إنسان يأتي إلى الحياة يستطيع أن يعيل نفسه وهو بذات الوقت يجد طعاماً وشرابا وسكنا، ولكن قد يأتي مَنْ يسلب هذا الإنسان طعامه وشرابه ومسكنه ، بل يسلبه حتى حياته . وهذه مشكلة الإنسان

بالدرجة الأولى وليست مشكلة الطبيعة . إذن ليست الأرض هي التي تضيق على الإنسان ، بل الإنسان يضيّق على نفسه بنفسه وهو ذاته يلوّث حتى الهواء الذي يتنفسه وأحياناً حتى البحر الذي يشربه . ليس مطلوباً من الجميع أن يكونوا مدنيين ، وإذا كان يُقال في علم الطبيعة والحيوان عن :" التوازن البيولوجي " فيمكن أن يُقال هنا عن ضرورة التوازن السكني بين البشر ، وفي رأينا أن حالة " اللا توازن السكني " هذه هي التي دفعت بهذا الخلل في أزمة السكان مما يعطي للناظر من بعيد صورة جلية عن التفجر السكاني وتهديد الإنسان بالجوع والبطالة والبرد ، وهذا ما يدفع الإنسان نفسه إلى تحديد ا لنسل فقط ليتمكن من البقاء في المدينة . وأعرف أشخاصاً لديهم عشرات الآلاف من الأمتار في قراهم ويقيمون في مساحة لاتتجاوز مائة متر مربع في بناء مؤلف من طوابق .. أي أنهم لم يجدوا حتى المائة متر هذه على الأرض ليسكنوها والعائلة ذاتها قد تتألف من ستة أشخاص فلا يجد كل فرد أكثر من مساحة علبة سردين له . نعود إلى أن المشكلة هي في الإنسان نفسه وليست في مساحة الكرة الأرضية ، أو في ا لطبيعةا لنسلية . إن الطبيعة الجغرافية وكذلك الطبيعة البشرية تتمتعا ن فطرياً بكل الخواص التي تحقق لهما التوازن والانسجام مع بعضهما البعض بدون أي تدخل من الإنسان مهما بلغ هذا الإنسان من الحكمة والعلم . وإذا سعى هذا الإنسان إلى ذلك فهو اعتراف منه بأنه كائن غير فطري وغير متوازن يعيش في طبيعة غير فطرية وغير متوازنة ، ومادام الأمر كذلك فهذا الإنسان الغير متوازن فطرياً وغيرا لكامل يعجز أن يقوم بمثل هذه المهمة الكبرى التي تفوق طاقاته وإمكاناته العقلية ، وليس عبثاً أو من باب المصادفة غضب الطبيعة وغضب الروح الإنسانية على منتهكي حرمتهما من خلال حالة اللا توازن الطبيعي و كذلك اللا توازن النفسي ، فالطبيعة أيضاً بطبعها أن تنتقم ممن يمرد على فطريتها وطبيعتها ، كما هو الحال أمام النفس البشرية . الإنسان وحده هو الذي يتدخل في شؤون فطريته وفطرية الأرض التي يعيش عليها دون كل الكائنات الأخرى التي تحيا معه على هذه الأرض التي تزداد مساحة سطحها عن /

٥١٠ / ملايين كيلو متر مربع ، ومتوسط قطرها عن /١٢٧٤٠ / كيلو متراً ، ومتوسط محيطها عن / ٤٠٠٤٢ / كيلو متراً . أما حجمها فهو يزيد عن مليون كيلو متر ، وتم تقدير كتلة الأرض التي نعيش عليها بما يعادل /٥٩٧٦ / مليون مليون مليون طناً . وحتى الآن تم التعرف على مليوني شكل من أشكال الحياة على سطحها ، وفي هوائها ، وفي جوف مياهها من أشكال الحياة البشرية والجنية والحيوانية والنباتية ، ويُعتقد أن هناك بلايين الأشكال الأخرى التي لم يتم اكتشافها . هذا كله يقودنا إلى ثراء الطبيعة

وتنوعها واكتمال كل نوع من أنواع الحياة بـالآخر ، فليس فـي الطبيعـة مـا لا يلزمها ، وفـي رأينـا أن كل نـوع مـن هذه الأنـواع الحياتيـة هو قـوي بوجـود الآخر وهو كذلك دافئ بوجود الآخر :" فخلق كل شيء وقدره تقديراً"(ب) .
إن التوازن الطبيعي يستمد ديمومته من التوازن البشري ، والتـوازن البشـري كذلك يستمد ديمومته من التوازن الطبيعي ، وأي خلل في إحداهما يؤدي إلـى خلل في الآخر .
عندما تكون في المدينـة فيجب دائمـاً أن تكـون لـك قريـة مأهولـة تعـود إليهـا ، وعندما تكون فـي القريـة دائمـاً فيجب دائمـاً أن يكـون لـك بيت مـأهول تـذهب إليه في علاقة متبادلة ما بين القرية والمدينـة ، فـلا أنت تستغني عن قريتك في المدينة ، ولا هو يستغني عن مدينتك فـي القريـة . فالقريـة لا تكـون قريـة إلاّ بوجود مدينة ، والمدينة لا تكون مدينة إلاّ بوجود قرية .
في بعض الولايات الأمريكية والأقاليم الأوربية نظـر النـاس إلـى هذه المسـألة بجدّية أعلى فولدت فكرة إنشاء " قرى سياحية " وهذه القرى إضافة إلـى أنهـا تجعل القرويين يتمسكون بقرويتهم ، دفعت رجال الاقتصاد لاسـتثمار أمـوالهم في هذه المشاريع الاستثمارية الجديدة ٠ فالقرية التي

هجرها سكّانها تتحول إلى قرية آهلة بكل ألوان السياح والبـاحثين عـن أشـكال الفنـون والألعـاب والتحـف . يمكـن لنـا أن نـنعش قرانـا بإقامـة المهرجانـات والسباقات الفنية والاجتماعية فيها ، يمكن أن نحيل قريـة مهجـورة إلـى. قريـة ثقافيـة أو إعلاميـة أو فنيـة ، أو اقتصـادية وهـذا مـن شـأنه أن يوسـع الأرض على سكانها أينما أقاموا ٠

مراجع:

أ- سورة الروم ، الآية ٣٠
ب- سورة الفرقان ، الآية ٢

٨- التدرج في الانفتاح على العالم

كل ما في الطبيعة وما في الإنسان يدعوه إلى الصبر والتمهل والحكمة . فهو يتشكل في بطن أمه ببطء إلى أن يأخذ شكله البشري الكامل ، فيخرج إلى الضوء كائناً بشرياً يحتاج إلى من ينظّفه ويلبسه ، ثم بصبر بمزيد من الصبر ينفتح على الحياة . يبرز في فمه رأس سن ، ثم سن ، يتحرّك لسانه نحو الألفاظ حرفاً حرفاً . تدب الحركة في جسده حركة ، حركة . فيزحف ، ثم يجلس ، ثم يقف على قدميه ، ثم ينطلق نحو المشي خطوة خطوة وبعد ذلك يبدأ بالاعتماد على نفسه في مسألة الطعام ، وتبدأ أسنانه التي تكاد تملأ فمه تعينه على الاستغناء عن ثدي الأم الذي هو المصدر الوحيد لغذائه ، فتهرس له طعاماً ليناً . ثم يأخذ جسده الذي ينمو صبراً فصبراً بالاعتماد على ذاته في مسألة الغسيل واللبس . فتأتي مرحلة التعليم .. يتعلم بادئ الأمر كيفية الإمساك بالقلم . يفشل مرات ومرات حتى ينجح في أن يمسك بالقلم بالوضعية التي تمكّنه من الكتابة ، وكما تعلّم الألفاظ حرفاً حرفاً فإنه يتعلم الكتابة والقراءة حرفاً حرفاً .

في الواقع فإن كل هذه المراحل تمهّد لاكتمال إنسان صبور متمهل في قراراته ، فهو لم يُخلق في أحسن تقويم شكلي فحسب ، بل في أحسن تقويم نفسي ومعنوي أيضاً . ولكن الإنسان ذاته وبعد كل تلك الحكمة في تكوينه وتقديمه إلى الحياة يبدأ فيمرد على فطرته التي فُطر عليها . وهو كذلك يبدأ في تدريب نفسه على القبح والشر ، فيبدأ بالشذوذ في خياله ، ثم يلجأ إلى اغتصاب حيوان صغير ، إلى أن ينتهي باغتصاب إنسان مثله . وكذلك يبدأ بسرقة نقود من محفظة أمه أو أبيه ، ثم يتطور ذلك فيسرق من محفظة زميله في المدرسة ، ثم يتطور ذلك ليسرق أموال المؤسسة التي يعمل بها إلى أن ينتهي إلى أشكال أوسع في عالم السرقة ويغدو لصاً محترفاً . والمثالان المذكوران من شأنهما أن يتطورا في مراحل متقدمة فتقوداه إلى عالم الجريمة ، لأن غالبية الجرائم البشرية تكون بدافع المال ، أو بدافع الشبق الجنسي . إذ لايوجد كائن في العالم يولد لصاً ، أو يولد معتديا . فالإنسان ذاته يميل بنفسه إلى هذه النزعات العدوانية وينّميها في أعماقه شيئاً فشيئاً . ولأنه يمرد على فطرته الطبيعية فإن هذه الفطرة ذاتها لم تعد تمنحه حياة هادئة طبيعية ، فهو إذن يعيش بالمسكّنات ويعاني أزمات نفسية حادة ،

وتبدر منه مواقف غريبة من شأنها أن تشير إلى عدم سويته واتزانه في المجتمع الذي يعيش فيه مما يؤدي إلى شخصية قلقة غير مستقرة ، فهي تغيّر مسكنها ، ومهنتها ، وعقائدها لأتفه الأسباب كما أنها كثيرة الطلاق وكثيرة الزواج . إنها شخصية تدمّر ذاتها بذاتها لأنها على الأغلب تنتهي في السجون ، أو الانتحار ، أو المنفى ، أو الوهن العقلي. وإذا كانت الطبيعة مسؤولة عن تقديم الإنسان إلى أن تُبلغه سن الرشد ، فإن الإنسان ذاته هو مسؤول عن نفسه وعن مواقفه فيما بعد ، ولذلك فإن كل الشرائع الإلهية والبشرية لا تدين الإنسان قبل بلوغه سن الرشد ، ولكنها تتفق على إدانته فيما بعد لأنه هو الذي يصنع قراراته ومواقفه وهو بكامل الأهلية المعتَبرة في الشرع الإلهي والقانون البشري .

إن الإنسان كائن محظوظ ، لأنه ينفطر على الخير وليس على الشر ، ينفطر على الاتزان ، وليس على الاضطراب . وهذا يساعده على التحمل والصبر . ناهيك أن الطبيعة تبقى تتدخل في حياته على مختلف مراحل العمر . ففي عالم الإسلام يأتي شهر على المسلم يكون في ذروة الاشتهاء الجسدي ، وتكون زوجته بالقرب منه ، لكنه يضبط شهوته ويعلّمه الصوم كيف يصبر ويتأنّى . ويكون في ذروة الجوع والظمأ ويجتمع على مائدته ما طاب من طعام ، وما لذ من شراب ، لكن الصوم يعلّمه كيف يصبر على جوع وظمأ ولا يمدّ يديه رغم أن أحداً لا يراه . وبالطبع فإن الله ليس جائعاً ، وهو غني عن الناس ، ولكنه يبقى يقدّم مزيداً من التدخل ليَصلح حال الإنسان ، لأن هذا الإنسان مهما كبر وغنى ونضج فإنه لا يستغني عن العناية الإلهية به . فالإنسان يعيش حياة طبيعية على قدر ما يسير وفق نظام الطبيعة . بمقدور الإنسان أن يستعين بمخزون التوازن في فطرته, ومهما طال به العمر ،فإن هذا المخزون لا ينفذ ولكن الإنسان هو الذي لايستعين به . ويمكن أن نتأمل الحكمة الإلهية مرة أخرى في مسألة الميسر بعد أن تأملنا جانباً منها في الصوم . فالإنسان الذي تشكّل وهناً على وهن ، ومرّ بكل مراحل الصبر والتأني والبطء ، فهل سيكون طبيعياً إذا انتقل في غمضة عين من فقير إلى ثري ، أو من غني إلى فقير ، فمعلوم أن الميسر هو ربح شخص وخسارة آخر وإن لم تتحقق هذه المعادلة فإنه لا يكون ميسراً حتى لو كان اللعب على مائدة ميسر وبأوراق الميسر . إذن فمن الطبيعي أن يحدث خلل للرجلين معاً ، لأن الأول قد أضاع شقاء عمره في غمضة عين ، والثاني قد كسب رزق عمر بأكمله دون أي جهد . إنها حالة شاذة غير طبيعية ، وليس من وجه الغرابة بشيء عندما نسمع عن شخص معدوم قد قضى نحبه لدى معرفة أنه ربح الملايين بورقة يانصيب ، لأن هذه الثروة أتت بصورة غير طبيعية فلم تعد طبيعته قادرة على مواجهة هذا الحدث غير الطبيعي ، رغم أن ملايين

البشر يمتلكون أضعاف تلك الثروة وقد أتتهم بتدرّج . إذن الحكمة الإلهية تتدخل هاهنا في حياة الإنسان رغم تجاوزه البلوغ كي تمنعه من التمرد على فطرته ، وتدعوه لأن يلتقط رزقه بتدرّج ليحافظ على طبيعيته . ومن هنا وعبر التاريخ البشري فإن الأديان أتت لتقف إلى جانب الإنسان ، ولم تأتِ لتقف عليه فكان من الطبيعي أن تنتصر الأديان الإلهية ، وتنهزم الأديان البشرية :" وأما الزبد فيذهب جفاءً و أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض "(أ) . كذلك يتدرّج الإنسان في الانفتاح على العالم بممارسته السلوك الأخلاقي .

الأخلاق هي إحدى الثمرات السامية من ثمار الإيمان ، يزداد الإنسان رسوخاً في إيمانه فتينع شجرة الإيمان المباركة في تربة روحه نضيج ثمرة الأخلاق .

الإنسان هو خُلقه ، ولذلك عندما شاء رب العزة أن يثني على نبيه قال له :" وإنك لعلى خلق عظيم " فكان دائم السؤال لربه :" اللهم أحسن خُلقي كما أحسنت خَلقي ". الأخلاق ليست نفوذاً ، ولا جمالاً ، ولا مادة . إنها سلوك ذاتي مع الذات بالدرجة الأولى ، فتشع مواقف أخلاقية – من تلك العلاقة الذاتية - مع الآخرين ،من عجز أن يكون خلوقا مع ذاته,يعجز أن يكون خلوقا مع الآخرين, و حتى لو أظهر الأخلاق فإنها لاتنبع إلاّ من ذات متأصلة في الخُلق ، إذا عاد إلى ذاته مكث في فراش من فساد . قد يبدر موقف أخلاقي من عائل مسكين ما بدر من ثري ذو جاه .

يصعب على المرء أسر هذه الكلمة في دائرة تعريف ، كل نظريات تعريف الأخلاق على مدى العصور السابقة لا تزيد هذه الكلمة إلاّ اتساعا في المعنى . فالأخلاق تتغذى بالعفة ، تتغذى بالصبر ، تتغذى بالحياء ، تتغذى بالمعرفة ، تتغذى بالتقوى ، بالكرم ، بالسلم ، بالعفو ، بالشجاعة . الأخلاق هي فردوس الإنسان . مَنْ لم يكن بتلك المزايا لبث مطروداً من فردوسه يمضي أيامه في تيه من شقاء . " ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها " . تسمو الأخلاق بإنسان مراتب عليا يستحي من أخلاقه إن راودته نزوة ، وإن تغاضى الطرف استحى من أهليه ، وإن تناسى استحى من الله . تسعى شجرة الأخلاق الراسخة في عمق صاحبها أن تجنبه المهالك . يمكن للأبوين أن ينميا بذور الأخلاق لدى الطفل فيتمتعان بنعمة تقديم كائن أخلاقي للعصر . إننا أحوج إلى دراسة مزايا الأخلاق في مختلف مراحل التربية ، فالإنسان يمتاز بأنه كائن يتلقى دروس التربية حتى لحظاته الأخيرة . نحتاج إلى قوة ملاحظة تمكننا من النظر في كلمات ومعاني الأخلاق . كل إنسان يحتاج لأن يكون فقيها في مدرسة الأخلاق . قال خير الأنام :" إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق ". يجد المؤمن مكارم

الأخلاق في كتاب الله ولدى سنة متممها ." لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً " ٠ قالت عائشة :" كان خلقه القرآن " . الأخلاق ذاتها عبادة يقدّمها الإنسان لربه ، عبادة وصفها النبي بقوله :" ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن " . وكون النبي على خلق عظيم وهو الأقرب إلى ربه ، فإن الإنسان ومن مختلف الأزمان والأماكن يكون جليس رسول الله يوم القيامة بخلقه الحسن الذي كان عليه في الدنيا . قال موجهاً كلامه للناس أجمعين على مر الزمن :" إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً ". شاء خالق الكون أن يعز الإنسان ويكرمه بنعمة الأخلاق فألهم نفسه فجورها ، وألهمها تقواها ومنح لهذا الكائن الذي أراد له الحرية أن يسلك أيهما . وهذه هي أرقى أشكال الحرية وأرقى أشكال التكريم الإلهي للبشر . قد ينتهي عمر الكون كله ولا ينتهي قول شيء جديد عن التدرّج في الانفتاح على العالم ،لأن الإنسان سيكون حتى تلك اللحظات الكونية الأخيرة متدرجاً في شيء جديد لم يكن يخبره . هنا أريد أن ألخص إلى أمر غاية في الحساسية وهو مقدار التعقيد الذي يحمّله بعض الناس على ذاته ، وهذا البعض يمثل نسبة عالية من مختلف شرائح المجتمعات البشرية بصورة عامة . فالإنسان هو كائن أبسط من حجم ذاك التعقيد المرعب الذي يضع ذاته في دائرته ، وأي كائن بشري في العالم جاء إلى هذه الحياة زائراً وهو يحمل براءة ذمة تجاه الآخرين وتجاه الله حتى لوجاء بطريق غير شرعي ، ما يهم أنه لا يوجد كائن بشري يولد مُداناً وهذا يجعله دائم الانحياز إلى صفحة البراءة التي ولد بها وفتح عينيه على العالم بها واستقبله العالم بها .

مراجع:

أ- سورة الرعد ، الآية ١٧

٩- الأبوة والبنوة .. والإبداع الإلهي

الأبـوة السـليمة هـي عاطفـة سـامية وقـوة انـدفاع مـن الأب نحـو صـغيره ، والصغير هو الذي يفجر تلك الطاقة الكبرى من العاطفة ومن الاندفاع نحوه ، وقبل ولادة هذا الصغير كان ذاك الاندفاع بـارداً نائمـاً فـي الضـمير . ولكن كيف تستيقظ عاطفة الأبوة ؟

إنهـا تسـتيقظ بـبطء شـديد تسـتغرق شـهوراً والطفـل هـو الـذي يحرّكهـا نحـو الاستيقاظ بمحاولـة تحقيق حضوره في ضمير الأب . قد يحمل هذا التعبير شيئاً من غرابة ، ولكنها غرابة الواقع . إن الطفل يبدأ بالبسمة الصغيرة ، ثم ينتقل إلى المزاح مع ما يقع في يديه ، ثم يُصدر أصـواتاً تخلو من المعـاني ، ثم ينادي أبويه . وفي هذه المرحلـة فـإن الأبوة بكل شـفافيتها ورقتهـا تسـتيقظ فيشعر الأب هذه المرة باعتراف من الطفل ذاته بأبوته : بابا . هذه الكلمة هي غاية في المسؤولية الأبوية ولايجد الأب أي مهرب من حقيقـة أنـه أصـبح أبـاً فعلياً لطفل ، وعند هذا الحد فإنه يعيش معنى قولـه لهذا المولـود الصـغير : يـا بنـي ، بعد أن كـان يلفظهـا بشـكل تلقـائي بينـه وبين نفسـه فـي الأيـام الأوليـة لولادة هذا المولود . إنه الآن يقولهـا مخاطبـاً إيـاه ، ومدركـاً أنـه يسـمعها وشـيئاً فشيئاً يستوعب معناها ويبدأ في تحمّل مسؤوليتها فهو ذاته قد بدأ هذه العلاقـة الجديدة وبالتالي دعا الأب إليها ، فليس من أب يقول لمولود في يومه الأول : يـا بنـي . ولكنـه ينتظـر وأيضـاً علـى نحـو عفـوي أن يخـرج هـذا المولـود مـن القمّاط ويبادر بشـيء كهذا ودومـاً فـإن الطفل هـو الـذي يبدأ لأن أي طفل فـي العالم وعند اللحظـات الأولـى للتعرف علـى الحيـاة فإنـه يبحث أول مـا يبحـث عن أبويـه ، ولـذلك فـإن الحـروف الأوليـة التـي يلفظهـا يحـاول مـن خلالهـا أن يناديهمـا ، وإن كانـت معرفتـه الأولـى تبـدأ بـالأم بسـبب الرضـاعة وعـدم مفارقتها له طوال الوقت ، فيدرك بأنها أمه ، ولكن هذا لا يكفيه فهو يبقى ينـادي الأب الـذي لا يـراه بقدر مـا يـرى الأم ، وبنـاءً علـى هذا الشـعور فإنـه يكرر : بابا .. أكثر ممـا يكـرر مامـا . ويبدأ بــ : بابـا .. فهـي الكلمـة الوحيدة التي تجلب له الأب ليقول له هو الآخر : لبيك بنـي . وفـي لحظـات الملل من حضن الأم فإنه يندفع نحو حضن الأب ويبدأ معه بالمزاح في محاولـة للتـآلف بينهما ولمزيد من التعارف في هذه العلاقة الإنسانية الجديدة .

إن الأب هـو السـبيل إلـى معرفـة العـالم ومعرفـة الله ، وهـذا الأب ذاتـه يبـدأ بتعريفه على العالم وعلى الله . وهذه حكمـة إلهيـة فلـو بـدأ الطفل بــ : ربـي ، بدلاً عن أبي فربما تركه الأب ليكتشـف ربـه بنفسـه لأنـه ينـاديـه ، ولكـن الابـن الـذي لا أب لـه ، لا رب لـه ، والـذي لا يـؤمن بأبيـه فيصـعب عليـه أن يـؤمن

بربه . من هنا كانت مكانة الأب رفيعة في الدين لأنه السبيل إلى الرب ، فمن يمرد على أبيه ، يمرد على أحكام ربه ، وبالطبع فنحن نأتي بما هو عام وشامل في هذه العلاقة الثلاثية ، وهذا لا يعني عدم وجود استثناءات شاذة أو مريضة في آباء . وهنا يمنح الدين للولد العصيان إذ :" لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " . كما يمكن للطفل الذي ولد يتيماً أن يجد مَنْ يكفله ويقوم نحوه مقام الأب لأن الأبوة هي عاطفة مكتسَبة ، يكتسبها الاثنان بالتآلف والتوادد والتعامل. وقد علا النبي من مكانة كافل اليتيم ربما أعلى من مكانة الأب عندما قال وهو يشير بالمسافة التي بين إصبعيه :" أنا وكافل اليتيم كهاتين ".

الآن وبعد بعض التفصيل في نشأة العلاقة ما بين الأبوة والبنوة نميل بعض الميل نحو العلاقة ما بين المبدِع والمبدَع . لقد كرم الله الإنسان بأن خلقه ، وقد خلقه ليس لمجرد الخلق ، بل ليعرفه ، وفي حديث ضعيف لم يصح عن نبينا أن الله قال :" كنت كنزاً خفياً فخلقتُ الخلق ليعرفوني ". ولكننا نجد في كتاب الله ما يشابه هذا في قوله:" وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون "(أ). ولا تتحقق عبادة الخالق إلاّ عن طريق معرفته سواء من خلال كتابه الذي هو خطاب إلهي لغوي مفصّل للإنسان ، أو من خلال كتاب الطبيعة الذي يحتوي على ما خلق الله من تنوّع في الخلق . والله يدعو الإنسان إلى معرفته قبل طاعته ، فمعرفة الله بذاتها عبادة . والمعرفة هي أساس الإيمان ، فكلما إزداد الإنسان معرفة بالله ، إزداد إيمانه به ، وهذا الإيمان يدفعه إلى العبادات بكافة أشكالها وألوانها . إن الإنسان الذي لا يعرف الله ، يعجز أن يؤمن به ، والمعرفة الناقصة لا تؤدي إلاّ إلى إيمان ناقص .

ما هو الإنسان ؟.

الإنسان هو خلقٌ أبدعه الله ، والإبداع أعلى من الإنجاب ، وعاطفة الأبوة مهما عَلَتْ فإنها لن تبلغ مبلغ الإبداع . ولذلك فإن الإنسان هو أقرب إلى الله من أبيه وأمه ، ومَنْ يحبه ، وكذلك فإن الإبداع هو أسمى من الإنجاب وأقوى من أي علاقة ما بين البشر و البشر وهكذا فلا يكون من حق الإنسان أن يفتخر بأنه إبن فلان أو فلان ، بقدر ما يكون من حقه أن يفتخر ويسمو لأنه إبداع الله ، وكل إنسان هو إبداع الله . وعلى هذا الشكل العادل فإن الناس جميعاً يشتركون في هذه الميزة الإلهية .

" يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من عَلَقَة ثم من مُضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة لنبيّن لكم ونُقرُّ في الأرحام ما شاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً لتبلغوا أشدكم ومنكم مَنْ يتوفى ومنكم مَنْ يُرد إلى أرذل العمر ".(ب)

والإنسان بعد ذلك يكون حراً في أن يسمو بنفسه فيكون مقرّباً من مبدِعه ، فقد ورد أن عرش الرحمن إهتز لموت سعد بن معاذ ، وكذلك هو حر في أن يذل نفسه فيبتعد عن مبدِعه إلى أن يجرّد نفسه من كل خُلقٍ طيب فقد جاء في القرآن أن أبا لهب سيصلى ناراً ذات لهب . وإذا كان الأب الذي بيَّنا بأنه

المنجِب يفرح عندما يرى أعمال ولده الصالحة ، فكيف بالله المدِع وهو يرى أعمال مبدَعه الصالحة . والله يبين للإنسان سبل الخير ليعمل صالحاً ويرشده إلى سواء السبيل :" يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا و اشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين "٠(ت)
" ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا ، إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويَقدِرُ إنه كان كان بعباده خبيراً بصيرا ، ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياكم إن قتلهم كان خِطئاً كبيرا ، ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ومَنْ قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يُسرف في القتل إنه كان منصورا ، ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأفوا بالعهد إن العهدكان مسؤولا ، وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خيراً وأحسن تأويلا ، ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ، ولا تمش في الأرض مرحاً إن لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً "٠(ث)
وكذلك يبيِّن لك :" وابتغ فيما آتاك الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا "٠(ج)
والله هو الذي خلق الناس جميعاً ، وهم الذين يقتربون من الله أو يبتعدون عنه . يقول النبي :" يا أيها الناس ألا أن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . ألا لافضل لعربي على أعجمي ، و لا لأعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى "٠(ح)
لقد شاء الله أن يخلق هذا الكائن البديع ويملّكه الأرض وما عليها ، والخلق أعلى درجات المسؤولية ، وأعلى درجات الرحمة من أي علاقة أخرى ، وأمام هذه العلاقة السامية الكبرى مع الله يمكن للإنسان أن يراجع وقائع أعماله في مناسبات شتى ويرتقي بها ليقدّم لله أنه على قدر مسؤولية الحياة الكبرى التي شاء الله أن ينعم بها عليه ، ومسؤولية الأخوة الإنسانية التي أنعم بها عليه ليكون أخاً للأنبياء والرسل والصالحين ، وليكون عنصراً في سلسلة الأخوة الإنسانية ، ويشكل تاريخاً كاملاً وسجلاً إنسانياً خاصاً به . ولننظر بعض الشيء في لب علاقة الله بالإنسان ، وكيف أنه تبارك وتعالى يكون قريباً من هذا المجتمع البشري الذي أبدعه وأبدع لخدمته كل دواعي الحياة ،

فقد جاء ذات يوم ضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلّم ، فقال لأصحابه مَنْ يستضيف ضيفي ؟ .
قال أحد الصحابة : أنا يا رسول الله .
فأخذ ضيف رسول الله إلى بيته ، وذهب إلى زوجته سائلاً العشاء لهذا الضيف . فقالت : أنه لايوجد في البيت غير بعض طعام لعشاء الأولاد . وفي هذا الحرج اتفقا أن يخفتا من الضوء حتى ينام الأطفال ، وحدث ذلك فقدّم الرجل هذه الوجبة من الطعام لضيفه ونام مع زوجته وأولاده بلا عشاء .
وقد شاء رب العزّة أن يُظهر لنبيه هذه الوقائع التي جرت مع صاحبه وضيفه ، فلمّا رآه في الغد ، قال له : إن الله ضحك ليلة البارحة من صنيعكما مع ضيفي . فقد ضحك الله بصنيع هذا الرجل وزوجته من أجل تكريم ضيف حلّ عليهما فنزل قوله :" والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون مَنْ هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومَنْ يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون "٠(خ)
ويمكن أن نرى أباً لا يصفح لإبنه عن ذنب قبيح إرتكبه ، ولكن رب العزة تبارك وتعالى الذي هو أقرب لهذا المذنب من أبيه يغفر له ، ويستره في ذنبه ويوسّع عليه في معيشته ويجعله قريباً إليه . إن كل صلات القربى جامعة تعلن وهنها أمام لب الصلة بين الإنسان وربه هذا الرب الذي يعلم كل خفايا وأسرار عبده أكثر من أقرب قريب له ، ويعلم تفاصيل مستقبل هذا المخلوق البديع الذي خلوف فمه عند الله هو أطيب من ريح المسك . ولذلك فإن أبواب العالم كلها لو سُدّت في وجه أي إنسان ومهما تعاظمت ذنوبه فإن أبواب الله لا تنغلق وتلبث مفتوحة أمام هذا الكائن الإنساني البديع ، ويكون بإمكانه أن يمدّ يديه إلى كتاب الله الذي يكون مفتوحاً له , ويناجي ربه في ركن من أركان أي بيت من بيوت الله .

مراجع:

أ- سورة الذاريات ، الآية ٥٦
ب- سورة الحج ، الآية ٥
ت- سورة الأعراف ، الآية ٣١
ث- سورة الإسراء ، الآية ٢٩ وما يليها
ج- سورة القصص ، الآية ٧٧

ح- أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥ : ٤١١ ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت

خ- سورة الحشر ، الآية ٩

١٠- حكمة التدرج

لا يولد الإنسان ناضجاً ، وكان بمقدور الله أن يولّده كذلك دفعة واحدة ، ثم يُلزمه للامتثال بالأوامر كالملائكة ، أو يجعله كمخلوق غير ناطق وغير عاقل كنوع من أنواع مخلوقاته الكثيرة . ولكن الله أراد أن يُبدع كائناً مختلفاً عن سائر مخلوقاته ويوليه عنايته الخاصة إلى درجة بالغة يكاد فيها أن يكون خلاصه الإبداع الإلهي . لقد أتى الله بالإنسان وسخّر له ما في السماوات والأرض حتى أن الملائكة الأكثر قرباً من وعبادة تحسسوا ، أو لنقل غاروا من هذا الكائن الجميل البديع الذي بات يحظى بالاهتمام البالغ من ربهم ، وقد عبروا عن هذه الحساسية تجاه المخلوق الجديد وحدث ما حدث كما يورده القرآن الذي هو المصدر الأكثر ثقة حول بدء النشوء البشري . وتحققت المشيئة الإلهية في خلق هذا المخلوق الشفاف في أحسن تقويم وباركته الملائكة بأن سجدت له ، وها هنا ولد الانشقاق الأكبر بين مباركٍ له وبين متآمرٍ عليه . ولكن أثبت الإنسان بأنه يستطيع أن يكون المخلوق الأقرب والأحب إلى الله رغم كل مظاهر التآمر التي تكاد بالفعل تفسد عليه حياته وتفسد هذه العلاقة الطيبة بينه وبين ربه . ولكن هذه الموازنة لم تكن تحدث لولا وقوف الله إلى صف الإنسان ، لأن قوة الشر الكامنة في العالم هي أقوى من قوة التصدي لها لدى الإنسان ولذلك فهو يتعوذ بالله وحده من : شر ما خلق ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد . وكذلك هو يستعين بقدرة الله فيتعوذ من : شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدره , وربما ما زاد الإنسان قلقاً هو أن هذه القوة الشريرة نجحت في أن تكسب أناساً إلى جانبها وتجنّدهم في الاستبداد بأخوتهم وإفساد الحياة عليهم . وكما يُقال في العامية :" أصبح عدو البيت من أهل البيت " إلى درجة بات الإنسان يخاف فيها من أخيه الإنسان أكثر من خوفه من أي قوة شريرة أخرى . وهنا غدا عليه أن يستعين مرة أخرى بقوة الله ليتعوذ كذلك من شر إخوانه :" من الجنة ، والناس ". ومرة أخرى تحل الرحمة على الإنسان لتبيّن له سبل المواجهة ، وتبلغ هذه الرحمة إلى أن يتدخل الله عن قرب فيجعل رسلاً يتحدّثون للناس بكلام الله المباشر لهم . أجل إنه خطاب لغوي مباشر لاتعديل فيه ولا رمز ولا تصوير . إنها لغة حية عبر رسائل مباشرة يخاطب بها الله الإنسان ، وهي في غالبيتها ترفع من معنوياته وتجعله يثق بنفسه أكثر ، وتبشره بالرحمة الإلهية التي لا حدود لها والتي وسعت كل

شـيء . وكـذلك تعـرّف الإنسـان بحقـائق مجهولـة عليـه ، وتعرّفـه بتاريخـه وأسماء أجداده ، تعرّفه بمواطن القوة ومواطن الضعف فيه , حتى بلغت هذه الرسالات ذروتها وكمالها في القرآن . والواقع إن ما في القرآن من شرح ومعرفة ليس في أي رسالة قبله , والقرآن هو أثمن هبة وهبها الله للإنسان ، فالقرآن هو شرح الإنسان وهو تاريخه وهو السبيل الأكثر قربا نحو معرفة الله . ومَنْ لا يقرأ القرآن يصعب عليه معرفة نفسه ومعرفة تاريخه ومعرفة الله . ذلك أن القرآن هو الرسالة اللفظية الأخيرة من الله للإنسان ، إذن قال كل ما يمكن قوله وليس من قول أو شرح آخر يمكن أن يُضاف . وفي تقديرنا أن الناس الذين ولدوا بعد القرآن هم أكثر حظاً لأنهم حظوا بقراءة القرآن وحظوا بهذه المعرفة الهائلة التي حققها القرآن لهم . وهذا بذاته ما فتح الأبواب أمام المنجزات البشرية الهائلة في كافة العلوم الإنسانية ، وفي رأينا فإن غالبية هذه المنجزات لم تكن لتتحقق ، أو لم يكن الإنسان ليحلم بها لولا أن جاء القرآن وشرع أمامه الأبواب لخطوات جبّارة كهذه ، ولا نقول أهم ، بل معظم المنجزات البشرية من علم وطب وفلك وآداب وفنون وفكر وفلسفة تحققت بعد نزول القرآن وانتشاره في أرجاء الأرض وربما من باب الاعتراف بالجميل فإننا نقرأ هذا الإعجاب البالغ والاعتراف بفضل المسلمين على العلوم والآداب الإنسانية من قبل أعمدة وركائز الفكر والعلم الغربي . وهذا يتمثل أيضاً عندما ينوضع مجسم لابن النفيس الطبيب المسلم المتديِّن ، أو لشيخ أطباء المسلمين أبو بكر الرازي ، أو لأكثر أطباء المسلمين شهرة ابن سينا في كبرى معاهد وجامعات الطب في العالم . وكذلك الأمر بالنسبة لألوان المعرفة الأخرى وأجناسها . إذن كان بودي أن أقول بأن الحكمة الإلهية تقتضي في أن يتدرّج الإنسان في اكتساب المعرفة حتى تغدو محفورة على سنوات عمره سنة سنة ، ولننظر إلى التدرج حتى بلوغ إنساننا المعاصر فيما هو عليه . انظر إلى بدايات التيار الكهربائي ، انظر إلى بدايات الهاتف ، انظر إلى بدايات التصوير ، انظر إلى بدايات وسائل الركوب . سترى كل شيء يمر بمرحلة طفولة شبيهة بالطفولة البشرية . ثمة مقولة لعائشة تقول فيها :" إنّما نزل أوّل ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ،نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لاتشربوا الخمر ، لقالوا : لاندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنى أبداً ".(أ) وإذ كان النبي ذاته يبدأ ينفتح ويتدرج في معرفة الله آية آية ، فإنه بذات الوقت يعرّف الناس آية آية على الله . يروي مسام عن ابن عباس :" أن ضماداً قدم مكة وكان من أزد شنوءة وكان يرقي من هذه الريح فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمداً مجنون ، فقال : لو أني رأيتُ هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي ، قال فلقيه

فقال : يا محمد إني أرقى من هذه الريح . وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك ؟. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" أن الحمد لله نحمده ونستعينه ، مَنْ يهده الله فلا مضل له ومَنْ يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد " قال فقال : أعد كلماتك هؤلاء . فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، قال فقال : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعتُ مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناعوس البحر – في سائر الروايات قاموس البحر – قال فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام ، قال : فبايعه ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" وعلى قومك " قال : وعلى قومي "٠ (ب) وعلى هذا التدرج بدأ في نشر الرسالة خارج أراضيه من خلال رجال يحملون هذه الرسالة إلى الناس٠ يقول إبن عباس :" لمَّا بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن ، قال له : إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى ، فإذا عرفوا ذلك ، فاخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا صلوا ، فاخبرهم أن الله إفترض علهيم زكاة في أموالهم ، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم ، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم ، وتوق كرائم أموال الناس "٠(ت) وعلى هذا النحو بدأ يشرح للناس بالتدرج والقول الطيب رسالة الله : " إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخوانا "٠(ث)
إن الله يوجه نبيه نحو هذا التدرج :" وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مُكثٍ ونَزّلناه تنزيلا "(ج) .
ويبيِّن له الحكمة من هذا التدرّج ، وهذا كما نعلم لم يحدث في الكتب الأخرى كالتوراة والإنجيل والزبور التي نزلت جملة واحدة ولم تأخذ التدرّج في النزول ، فالقرآن له هذه الخصوصية كما أن لمحمد وحده خصوصية الأمية من بين الأنبياء والرسل . يقول له الله :" وقال الذين كفروا : لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنُثبِتَ به فؤادك ورتلناه ترتيلا "٠ والترتيل هو التمهل والتؤدة بغية التدرّج في الفهم والحفظ معاً ، وكذلك التدرّج في تغيير الناس وعاداتهم وتقاليدهم نحو رسالة الله الأخيرة التي شاء أن تنزل بتدرج وعلى مراحل .لقد استغرق نزول القرآن ثلاثاً وعشرين سنة ، وكان الله قد هيأ رسوله الأخير أربعين سنة حتى يكون بإمكانه استقبال أول كلمة إلهية عبر جبريل ، هذه الكلمة التي سوف تهزه من الأعماق إلى درجة أنه يلوذ بأقرب وأحب الناس إليه طالباً منها أن تزمّله وهو يرتعد من وقع الكلمة الأولى على نفسه ، فكيف لو نزل القرآن كله دفعة واحدة . وكذلك نرى هذا التدرّج في التنزيل الحكيم أدى إلى نسخ آيات لآيات فمثلاً أن آية :"

ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما "٠(ح) قد نَسّختْ ما نزل قبلها من :" ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكراً و رزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون "٠(خ) وقضى التدرج إلى هذا الناسخ والمنسوخ في القرآن وهذا من رحمة الله بالناس كما أن من رحمته انه لا يؤاخَذ المضطَر لمعصية ، وكذلك في تأجيل صوم المسافر أو المضطر ، وفي تسهيله لجمع الصلاة وما إلى ذلك من عبادات . فأنت عندما يكون لك دَين على أخيك ويحين موعد السداد ، قد تزعجه بمطالبتك وتلح عليه ، بل وتفرض عليه السداد بأي حال ، ولكن الله الذي له المَثل الأعلى يمهل الإنسان على دَينه وإن رآه ضعيفاً يعفو عن الدَين كله بما فيه, فهو يأمر الناس أن يعبدوه قائلاً :" ما إستعطتم ". وهنا فإن العبادة تقترن بالاستطاعة حتى لاتكون للإنسان حجة على الله فيقول له : ربي إنك أمرتني بما لم أستطع . وحتى من الجهة الأخرى , بما لم أتدرّج فيه . وأيضاً فإن الأحكام تختلف من شخص إلى شخص آخر رغم أن الخطيئة واحدة . فرجل غير محصن أقدم على الزنا يؤدَب فقط دون المساس بحياته أو ترهيبه ، وكذلك المرأة قبل ذلك لاتُضرَب أبداً بأمر الله " واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا "(د) .
فالمرأة التي أتت الزنا تُمسك في البيت حتى لاتنتشر الفاحشة في الناس وهو بقاء طبيعي كسائر أفراد البيت ، أو كما يُقال في وقتنا : الإقامة الجبرية . وفيما بعد جعل الله لهن سبيلا بأن :" الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة "(د) . هذا لغير المحصنين .
فانظر كم صبر الله على الإنسان عبر التاريخ البشري الأكثر من طويل ، انظر إلى أعداد الأنبياء والرسل والأحداث . إن الله يصبر على الإنسان ويعلّمه ، كلما يولد إنسان جديد ، فإنه ينفتح على عالم جديد ويتدرّج رويداً رويداً با لتعرف على العالم وعلى الله وهكذا تبقى الحياة غنية بكل جديد في الإنسان وفي الطبيعة . هذا بذاته يعلّمنا كيف نصبر في مختلف أشكال التعامل مع أنفسنا ومع الآخرين و الظروف التي نواجهها . إن الحياة مرحلة من مراحل مسيرة الإنسان نحو الله ، وغداً ننتقل إلى مرحلة " البرزخ " وقد نمكث ملايين السنين حتى يُنفخ في الصور .

لم يكن الهدف من الإسلام معاقبة الناس ، بل كان الهدف منه هو هداية الناس حتى وهم يصرّون على كفرهم ، وثمة حادثة تبيِّن كيف أن النبي لم يفقد الأمل حتى في أشد الأوقات . تروي عائشة –رضي الله عنها -: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم :هل أتى يوم عليك أشدّ من يوم أحد ؟ قال :"لقد لقيت

من قومك ، وكان أشدّ ما لقيت يوم العقبة ، إذ عرضتُ نفسي على إبن يا ليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعتُ رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرتُ فإذا فيهما جبريل ، فناداني فقال :إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمر بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال ، فسلم علي ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك ،فما شئت ، إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً " ٠ قال الله : " ومن يُؤْتى الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً " ويمكن لنا التعرف على أشكال التدرج في مواجهة أهل الشر لدى النبي وأقرب الناس إليه . وأقد أثبتت حادثة الإفك حكمة التدرّج في مواجهة أخطر تهمة لقيها النبي في زوجته ، وها هي تروي تفاصيل ما وقع معها ومع صفوان بدون إنفعال,وتواجه التهمة بصبر وحكمة وقد أبرأها الله في نص قرآني . تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :" كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بعدما أنزل الحجاب ، ففرغ منها ورجع ودنا من المدينة ،وآذن بالرحيل ليلة فمشيت وقضيت شأني وأ قبلت إلى الرحل فإذا عقدي انقطع فرجعت ألتمسه ، وحملوا هودجي على بعيري يحسبونني فيه ،وكانت النساء خفافاً إنما يأكل العلقة ، ووجدت عقدي وجئتُ بعدما ساروا فجلست في المنزل الذي كنت فيه ، وظننتُ أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي فغلبتني عيناي فنمت وكان صفوان قد عرس من وراء الجيش فأدلج فسار منه فأصبح في منزله فرأى سواء إنسان نائم فعرفني حين رآني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني - أي قوله إنا لله وإنا إليه راجعون - فخمرتُ وجهي بجلبابي والله ما كلمني بكلمة ولاسمعتُ منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ووطئ على يدها ، فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة -أي من أوغر واقفين في مكان وغر من شدة الحر - فهلك من هلك وكان الذي تولى كبره منهم : عبد الله بن أبي سلول " .(ز)وصدق الله تبارك وتعالى إذ قال : "إن الذين جاؤوا بالإفك عصبةٌ منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم "٠(س) يتدرّج الإنسان المؤمن في أشكال المعرفة إلى أن يبلغ مرحلة يغدو فيها هاجسه أن يمحو كل وجهاً من وجوه الأمية الدينية في درجات إيمانه.

مراجع:

أ-البخاري،صحيح البخاري،كتاب فضائل القرآن ،باب :تأليف القرآن ، (ك٦٩ ،ح٤٧٠٧)٤/١٩١٠.

ب- مسلم ، صحيح مسلم ،كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة ،(ك ٧ ح ٨٦٨) ٢/ ٥٩٣ .

ت-البخاري ، صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي أمته الى توحيد الله تبارك وتعالى (ك ١٠٠ ح ٦٩٣٧) ٦ /٢٦٨٥

ث-البخاري ،صحيح البخاري ،كتاب الأدب ،باب النهي عن التحاسد والتدابر ، (ك٨١ ح ٥٧١٧) ٥ / ٤٢٥٣ .

ج-سورة الإسراء ، الآية ١٠٦ .

ح- سورة البقرة ، الآية ٢١٩ .

خ-سورة النحل ، الآية ٦٧ .

د- سورة النساء ، الآية ١٥ .

ذ- سورة النور ،الآية ٢ .

ر- رواه البخاري ٦/ ٢٢٤ و٢٢٥ في بد الخلق ، باب ذكر الملائكة ، وفي التوحيد ، باب " وكان الله سميعاً بصيرا " ، مسلم رقم ١٧٩٥ في الجهاد ، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين .

ز- رواه عنهما الشيخان ،نقلاً عن تفسير الجلالين ص ٣٥١ ط٦ ، دار إبن كثير ، دمشق –بيروت ١٩٩١

س- سورة النور ، الآية ١١ .

١١- على دروب المعرفة

إن الله هو أكبر من أن لا يغفر ذنب مذنب لجأ إليه متوسلاً المغفرة . أولئك الذين يصورون الله على أنه يأخذ الناس بذنوبهم ما عرفوا الله ، أو أنهم عرفوه ويسعون للانتقاص من سعة عفوه ، ولا ينقصون مثقال ذرة من سعة عفوه .
عندما خلق الله الإنسان عرف بأنه سيذنب ، وعرف بأنه سيعفو عنه .
من الذنوب ذنوب لا يغفرها حتى الإنسان لنفسه ، ولكن الله يغفرها له .

. . .

• تعلّم كيف تعفو .. تعلّم كيف تصفح . وكما أنك تطلب العفو من الله ، عليك أن تكون عفواً بالناس . وكما أنك تطلب أن يحسن الله إليك ، عليك أن تكون محسناً للناس .
إنك ترتقي في درجات إنسانيتك كلّما تنمّي طاقة التسامح لديك .

. . .

• دوماً تجنب الانفعال المباشر مع الأحداث المباشرة ، الحياة ليست حدثاً واحداً، إنها سلسلة أحداث ، ما أبكاك اليوم قد يضحكك غداً ، وما أضحكك البارحة قد يبكيك اليوم .
لا تتخذ القرارات إلا بعد أن تنطفئ النيران وتصفو السماء وتتضح الرؤية .

. . .

• كن دائم السعي لتطوير طاقة الشجاعة لديك لتعفو عن نفسك وتحسن إليك . ليست الشجاعة أن توجه العقاب لنفسك ، ولكن الشجاعة هي مدى مقدرتك على الصفح عن نفسك والاجتناب من السقوط في حفرة مرتين .
لم يكن شجاعاً ذاك الذي وجه عقاباً لنفسه وآثر الانسحاب في مواجهة الحياة ، الشجاعة .. كل الشجاعة تكمن في مدى قوة الصمود والمقاومة حتى آخر نبض .

. . .

وأنت تغرس الورد في تربة الأرض ، تعلّم كيف تغرسها في تربة النفوس كذلك .
كما أن تربة الأرض تحتاج إلى فلاحة وبذور وسقاية وهواء نقي حتى تهب الزهور والثمار الطيبة ، كذلك هي تربة نفوس أولئك الذين تراهم كل يوم . دوماً عليك أن تحمل معولاً ، وبذوراً ، ومطراً ، وهواء نقياً .

. . .

• جئتَ إلى الحياة لتعيشها ، لا لأن تمر بها مروراً عابراً . تعلّم دوماً كيف تعطي .. تعلّم كيف تدرّب نفسك على تذوّق متعة العطاء .
عندما تقدّم زهوراً للآخر ، فإنه أيضاً قد يقدمها للآخر ، وكلما أعطيته زهوراً فإنك تدربه على أن يقدّمها حتى يأتي يوم فيقدمها . وعندما لا تقدّم إليه زهوراً فإنه لا يقدّمها لأحد ،ولا يتدرب كيف سيقدمها في يومٍ ما .
إن مقدرتك على غرس وردة واحدة في نفس إنسان ، قد تدفعه إلى غرس وردة في نفس إنسان آخر ، وكان قبل ذلك يغرس الأشواك . خُلِقَ الإنسان وهو يتأثر بفعل إنسان آخر . يقال :" الصاحب ساحب " لأنه يسحب إلى حدائق الورود ، أو إلى أودية الأشواك .

. . .

• الإنسان يتعلم من الله .. الله دوماً هو مرجع الإنسان إلى المعرفة . إن الله هو مصدر كل معرفة عرفها الإنسان وإن كان الله لا يحدّث الإنسان بلغة اللسان والسمع ، لكنه يحدّثه بلغات شتى قد تكون أبلغ من لغة الكلمات في بعض منها ، فعندما قتل الإنسان أخاه لأول مرة وعجز كيف يواريه ، أرسل الله طيرين ليعلماه كيف يواريه الثرى فتلقى الإنسان حديث الله وتوجيهه بلغة أبلغ من أي كلمات .
وعندما أراد الله أن ينعم على الإنسان بوسيلة ركوب مريحة لم يكن الإنسان يتخيلها ، أرشده إلى الفراشة لتكون فكرة البدء نحو صنع فراشة آلية كبيرة وشيئاً فشيئاً استطاع الإنسان أن يستخلص من هذه الفراشة الصغيرة فراشة آلية كبيرة ، وبقيت هذه الفراشة الآلية الكبيرة تدين للفراشة الصغيرة حتى

بصوتها وطريقة إقلاعها ، وهبوطها ، بل وأمست ابنة شرعية لتلك الفراشة الصغيرة ، فكان حديث الله للإنسان مرة أخرى أبلغ من لغة الكلمات .

• إن معرفة الله دوماً تحمل المنفعة للإنسان . إن الإنسان بدون معرفة الله هو كطير أعمى يحلّق في تيه فضاء •

• • •

• يبقى الله يعفو عن المذنبين ويقف إلى جانب الإنسان ، ففي الآخرة يُنادي على الناس بأسماء أمهاتهم ، فلا يوجد إنسان ليس من أمه ، ولكن هناك مَنْ هو ليس من أبيه . إن الله لو شاء فضح هؤلاء ولكنه يريد أن يستر ذنوب الإنسان ويعفو عنها عفو الستر .

• • •

• مشكلة الإنسان أنه يفسر كلمة الرحمة تفسيراً بشرياً محضاً ناسياً بأن أي تفسير بشري مهما بلغ من كمال ، فإنه لن يرتقي إلى عمق المعنى الإلهي . وهذا يمكن أن يشمل تفسير القرآن كله وبكافة التفاسير لأنها تفاسير بشرية لا ترتقي إلى كمال مطلق لا يحتمل النقص ، إذ لا يمكن لأي مفسر مهما بلغ من علم وقوة في الحجة أن يدّعي بأنه أغلق باب التفسير .
وعلى ذلك فإن الإنسان لم يتعرف على الله المعرفة الكاملة التي عرّف ذاته بها في القرآن ، وهذا بذاته يؤدي إلى انشقاقات حادة إلى حدود العنف بين المسلمين والمسلمين أنفسهم رغم إيمانهم بإله واحد ونبي واحد وقبلة واحدة .

• • •

• عندما تريد أن تعبّر عن شكرك لله على نعمة أنعمها عليك ، ليس أمامك إلاّ أن تحسن إلى الناس . والإحسان أبواب ، فيمكن أن تحسن بمالك ، وإن لم تستطيع فبالكلم الطيب ، وإن لم تستطع فبكف الأذى عن طريقهم ، وإن لم تستطع فبعدم الإساءة إليهم .

• • •

• المعرفة تنير درب الإنسان نحو الإنسان ، وتنير دربه نحو الطبيعة . وما إن تعرّف الإنسان على الإنسان وعلى الطبيعة ، سلك نهج الله فيصل هذا

الإنسان إلى درجات متطورة من الإيمان تجعله يلتمس الله في كل نظرة ينظرها وفي كل خطوة يخطوها .

. . .

• إن أي شخص في العالم عندما يدخل الإسلام لأول مرة فهو يندفع نحو روح الإسلام وليس نحو المسلمين أو بلادهم ، فالإسلام ذاته هو الذي يستقطب الناس للدخول فيه . وهو لا يستمد قوته من أعداد المسلمين ، ولكنه يستمد قوته من ذاته .

جاء الإسلام قوياً بدون وجود مسلم واحد ، وعندما اكتشف الناس قوة هذا الدين الجديد ، اندفعوا إليه وأصبحوا مسلمين لا ليقوى الإسلام بهم ، بل ليقووا هم بالإسلام . ولو كان الإسلام ضعيفاً في ذاته لفشل في أن يجعل من المسلمين الضعاف قوة هائلة لأن مَنْ كان الضعف في بنيته لايستطيع أن يمنح قوة – لايملكها – لغيره .

والقوة هي خلاف العنف ، فأنت تقول عن سفّاح وعن طاغية وعن شرير بأنه عنيف ولاتقول بأنه قوي ، ولكنك تقول عن جميل وكريم وصبور وعفوٍ بأنه قوي الشخصية . من هنا فإن قوة الإسلام هي قوة الجمال ، وقوة الحق ، وقوة المعرفة ، وقوة العفو . ومن هنا أيضاً فإن ما يتلقاه الإسلام من بعض أهل بيته من إساءة يفوق ما يتلقاه من إساءة ممن هم خارج البيت الإسلامي .



الجزء الثاني

شمـــس الإيمان

الباب الأول

ثنائيـــة الشـــيخ والمريـــد

١- استهلال

تشتت المذاهب والطرق بالناس حتى كادوا يتيهوا في ظلماتها عن ثوابت دينهم ، وبلغ الشيخ مرحلة متطورة يعطي فيها تصورا لمريديه بأنه بات يحمل توكيلا خاصا من الواحد القهار يُدخل بموجبه مَنْ يشاء الجنة ، ويقذف من يشاء جوف النار ، وهو في ذروة ممارسة (بطولته) يستمد قواه من اشتعال أزمة حرية الرأي الحادة التي يكتوي بنارها مواطن العالم الإسلامي بصورة شبه عامة ، فينمّي فيه روح بطولة زائفة تتفاوت من شريعة شيخ إلى آخر بحسب المناخ السياسي الذي ينمو فيه الشيخ ٠ يمكن أن نقع على شيخ شاءت الظروف أن يعيش في مناخ قمعي يضطر فيه إلى أن يقدم أوراق عمالته ونفاقه للنظام حتى يسمح له بتكوين خلية مريدية موالية للنظام كولائها للشيخ ، فيتحول المريدون إلى سياسيين صغار يصفقون للنظام بكف و بالأخرى لشيخهم الذي يحقق من خلالهم حضورا دينيا طاغيا ، وكذلك حضورا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ٠

وفي مناخ يميل إلى الانفتاح - وهذا متوفر بحمد الله في بعض الأنظمة الإسلامية- يشكل الشيخ تنظيما معارضا ، وهذا الشيخ يكون أكثر ثقافة من سالفه ، فقد يصدر جريدة ، أو حتى يدخل البرلمان ويركز في توسيع نشاطه على وسائل الإعلام والثقافة لاستقطاب أكبر عدد من أتباع ومريدين وناشطين من مختلف دوائر الدولة التي يقضي قانونها بتشكيل أحزاب معارضة وإصدار وسائل أعلام خاصة بها دون تدخل أجهزة أمن الدولة ٠

ثم ينفرز شيخ ثالث من / ثنائية الشيخ والمريد/ , وهو شيخ قد نُفي من أهليه ودياره ، فيلجأ إلى منزل يوفر له إمكانية النشاط في دائرة هي أوسع من دائرتَي الشيخين السالفين ، فهو بحكم واقع النفي الذي وجد نفسه فيه

يطرح قضايا عالمية كبرى ، وحتى يحقق حضورا لنشاطه يقدم على أعمال مؤلمة كبرى تهز العالم برمته وهذا العمل يأتي كرد فعل على النفي وفي محاولة منه لخلق حساسية بين البلد الذي ينتمي إليه والذي نفاه ، وبين ذاك البلد الذي سبب فيه الآلام لأناس هم خارج الموضوع كله ، أو ربما كانوا ضيوفا أو معارضين للنظام الذي يعيشون فيه ٠ ومن جهة أخرى فان هذا الشيخ الذي يبدأ مجدا عالميا بذات الوقت يبدأ في مناداة وحدة إسلامية كبرى تحت إمرة أمير يبايعه بموجب الوكالة الخاصة التي أنزلها الله عليه صبيحة يوم عيد ٠

٢- صفحات من كتاب الإيمان

يعتمد الشيخ منذ خطواته الأولى ومن مراحله الثلاث على استقطاب مريدين تتفشى فيهم أمية ثقافة الإيمان بامتياز ، فالمريد الجيد هو ذاك الذي ينفذ المهام الموكلة إليه بطاعة عمياء ، ولا يجادل أسياده في أمر يروه ٠٠ يمضي في مهمته وهو على يقين تام بأنه ينفذ أمرا أنزله الله ، وقد ارتأينا أن ننظر في بعض جوانب ثقافة الإيمان الذي إن ألمّ المرء بشيء من نوره نجا من أن يكون صيدا شهيا لأي شبك من شباك الشيوخ الثلاثة , ونحسب أن هذا النور سيكون بمثابة تهيئة لاستقبال ثنائية الشيخ والمريد بوجهها الصحيح.

الإيمان ليس حالة ثابتة ، كما أن الإلحاد ليس حالة ثابتة ، ينقص الإيمان ويزيد ، كما أن الإلحاد يزيد وينقص , فكلاهما يستقران في القلب الذي رأى فيه النبي أنه سمي قلبا لأنه كثير التقلب ، فيمكن أن يتحول الإيمان إلى إلحاد ، ويمكن أن يمسي الإلحاد إيمانا ً ، والإيمان حالة مرتبطة بجميع الحواس والمدركات البشرية ، يمكن لك أن تنظر إلى كل شيء حولك بإيمان ، أن تشم رائحة بإيمان ، أن تسمع الأصوات بإيمان ، أن تلفظ الكلمات بإيمان ، أن تقرا كتابا أو صحيفة بإيمان ، أن تنام وتستيقظ بإيمان ، أن تمارس عملك وإنتاجك بإيمان ٠

ويجوز أن تتمتع إحدى حواسك بنفحة راقية من إيمان ، وتكون أخرى في حالة متدينة منه . ليس بالضرورة أن يحل الإيمان كاملا مكتملا في الفؤاد ، وليس بها أن يكون المرء ملحدا كاملا ، فالنقص في الإيمان لا يخرجه من الملة , ولكن من شأنه أن يخفف من المناخ الإيماني العام في رحاب عقيدته ، فتبدر منه مواقف تنم عن إيمان ناقص ، ويمكن أن تنخفض نسبة الإيمان في قلب المؤمن إلى أن تبلغ به مثقال ذرة من حبة خردل ، فيبقى مؤمنا ولا يُطرد من كتاب المؤمنين بما لديه من هذا المثقال . ذلك أن الله أعلم به من هذا الإيمان ، فهو الذي جعله كائنا بشريا يمشي في أرضه وتحت سمائه ، وهو بالتالي الأقرب إلى نزعاته من حبل الوريد ، وفي هذا يصف الخبير بنية الإنسان في بيانه : / ولقد خلقتا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد / ١ ٠

ورأفة منه جل وعلا فقد دعا الإنسان إلى نور الإيمان ليخرجه من الضلالة إلى الهدى ، ومن ظلمات نفسه إلى نور ربه ، فبدون أن يمسه شيء من هذا النور الإلهي المبارك ، وتتعمد روحه بمياه الإيمان النقية ، يلبث هذا

الكائن في معزل عن ربه ، عرضة لنوازع الشر في كوامنه وفي كائنات أخرى مرئية وغير مرئية يعيش في محيطها وتعيش في محيطه فيوجه عز من قائل :/ يا أيها الذين آمنوا ، آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل / ٢٠ ولا يلبث توجيه العزيز في محض الأمر ، لكنه وبواسع رحمته يُظهر لهم أنوار الإيمان التي سوف تسطع على ظلماتهم واضطراب نفوسهم فتحقق في دواخلهم الأمن والسكينة والنزوع إلى رحاب الفضيلة ، وتشفيهم من أمراض روحية وبدنية وتمحو كل أثر من آثار ما اقترفوا من سيئات أعمال وإصلاح ذات البين . قال البارئ المصور : / يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم / ٣ ، / واللذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم / ٤ ,/ والذين آمنوا ولم يلبسوا أيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون /٥، / وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين /٦ ٠ هذا كله إلى جانب وعد من الله وهو في غنى من أن يعد : / وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما / ٧٠ ثم ينتقل بمخيلة الإنسان ليصور نعيمه وقد تزين بنور الإيمان ، وهذه بشارة من رب العزة وهو في غنى من أن يبشر :/ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم / ٨ ٠

تنمو بذرة الإيمان وتترعرع في تربة روح الإنسان بمياه الذكر ، وبالإكثار من ممارسة سلوك إيماني ، وما أن سبّح الإنسان في محراب الذكر ، وذكر الله في كل عمل يعمله ، وكل لفظ يلفظه حتى يجد الله / يهد قلبه / ٠

ولا يغرن أحد أن الإيمان هو ألفاظ تجري على اللسان ، فأي لفظ لم يقترن بممارسة إيمانية عميقة ، مثله كمثل أي لفظ فارغ في الهواء ، فليس كل لافظ لشهادة الإيمان وجد حلاوته ، وتعمد بمياهه النقية ، وقد استفاض خاتم النبيين – الذي أولاه ربه مهمة نشر وشرح كتاب الإيمان – في وضع نقاط كلمة الإيمان على حروفها في قلب المؤمن ، وهو في هذا بلغ مرتبة سيد الشراح ، والمشكاة التي يهتدي بها الشراح من بعده ، ومن شروحاته لكلمات ربه للناس وهو يبين تهيئة أسباب حلول نور الإيمان على قلب المؤمن :/ ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار / ١٠ . والحكمة في هذا الموضع من محبة الله أنها تملأ قلب ومشاعر الإنسان بمحبة رسوله الذي يبادل الإنسان محبة أعلى مرتبة منه ، ومن محبة الرسول تتوالد سلوكيات محبة الناس لا لغايات أو لمصالح دنيوية زائلة ، بل تتوالد كما هي

محبة خالصة في الله . فأي محبة حقيقة صادقة لا تحقق كينونتها إلا إذا سبقتها هذه المحبة الربانية الزكية ، أما إذا كان فاقدا لهذه المحبة الإلهية الطاهرة ، فان بذرة المحبة تلبث ميتة لا يحركها ساكن من دون الله في عمق فؤاده ٠

هذا الكائن الذي يحيا في الناس ببذرة محبة ميتة هو في واقع الأمر لا انتماء له لسلالة البشر إلا مظهره ، أما الإنساني فيكون ممسوخا في باطنه ، إذ لا يرى أي قيمة أو متعة في الحياة برمتها خارجا عن لحظات اكتسابه للمال الذهبية التي يمتلئ فيها شعورا بالرضى عن نفسه وعن جدارة العيش ، ويبلغ مرحلة نرجسية غاية في الاشمئزاز لا ينظر فيها نظرة إلا إذا جرت عليه نفعا ، ولا يخطو خطوة إذا ما لمس خلفها مصلحة ، لا يمد كف سلام إلا لطمع في نفسه ، لا يلفظ كلمة حق إلا إذا رأى كسبا ، بل لا تتناهى له فكرة إلا وقد قلبها حتى أتت على وجهها المالي ٠

كل حركة تبدر منه تكون مرهونة مسبقا بالربح والخسارة في هيئة مادية خالصة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، فلا تلمس في مذهبه خصلة حميدة ، موقف تضحية ، ذرة رحمة ، كلمة تسامح ، إنه كائن بشع فاسد أينما وطأت قدماه ، فإن ابتاع سلعة نظر إلى قيمتها قبل أن ينظر إلى جودتها ، وإن أنتج سلعة نظر إلى بدلها النقدي قبل أن ينظر إلى مضمونها ، فيرتمي آخر الليل في أحضان كيسه سعيدا وهو كله انتظار لصباح جديد تحسبا لزيادة أخرى بينما عباد الله بوغتوا بهشاشة بضاعته وفسادها وهم يكيلون اللعنة تلو الأخرى لمنتجها ومروجها وبائعها٠

إذا خلا قلب الإنسان من الإيمان ، خلا من كل خصلة طيبة ، وانطفأ فيه نور النزوع إلى كل أمر معروف ، فكان الحب هو الواجهة الإنسانية الكبرى ، والعنوان الأول للإنسان ، لا يدخل الإيمان قلبا لا يسكنه حب الله ، وحب رسول الله ، وحب الناس أجمعين في مشاعر إنسانية أخوية عامة تقرّب الإنسان من بعضه ضمن حميمية عائلية البشرية المشتركة التي تنظر إلى رب رحيم واحد رغم اختلاف الأنبياء ٠ يبقى المؤمن الحق يضيء حبا وتسامحا وتضحية حتى ليغدو شجرة حب تمشي على الأرض ، فكان شرح النبي جليا وهو يبين للناس بشيء من الحسم في هذه القضية الكبرى : / لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ،و لا تؤمنوا حتى تحا بوا / ١١ ٠ ثم يصف حال المؤمن في عناية ذو الجلال والإكرام :/ عجبا لأمر المؤمن أن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين ، إن أصابته سرّاء شكر وكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له / ١٢ ٠هذا بذاته يحمي الإنسان ويجنبه مشاعر اللاانتماء في واقع سيئ يقوم على اضطهاده وتعطيل كفاءاته

مما قد يدفع به للاستسلام في نهاية اليأس إلى يدي شيخ يوظف معاناته ويجعله مريدا ناشطا , إذ أنه مادة خام على شاكلة قنبلة موقوتة أينما أولى الشيخ وجهه تولى بعنفوان الشباب وثورة اليأس المستبدة به ، وهذه النماذج تكون على الأغلب متوفرة في الأوساط الشبابية والطلابية و الجامعية
أولئك الذين يطلقون لحاهم هما وكربا أكثر مما يطلقونها تدينا ، فيكون الشيخ بمثابة الخلاص من بؤس الحياة والانطلاقة نحو حياة جديدة ينشدها في الموت ,أو ما يسميها الشيوخ والمريدون معا : / الجهاد / . فان تمتع هذا الشاب بثقافة الإيمان ، استمد تحمله وقوته من صميم علاقته الضمنية الكبرى مع ربه الذي يؤمن بأنه : الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ،
القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ،السميع ،
البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ،الغفور ، الشكور , العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المغيث ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ،الودود ،المجيد، الباعث ، الشهيد ،الحق ،الوكيل ،القوي ،المتين ،الولي ،الحميد، المحصي ،المبدئ ،المعيد ،المحيي ،المميت ،الحي، القيوم ،الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ،المؤخر ،الأول ،الآخر ، الظاهر ،الباطن ، الوالي، المتعال ، البر ، التواب ، المنتقم ،العفو ، الرؤوف ،مالك الملك،
ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ،الغني ،المغني ، المانع ، الضار، النافع ،النور ،الهادي ،البديع ،الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور ٠

يعيل المعيل عياله على مبادئ من إيمان ، ويشرع في دروبهم السبل التي تعزز مكانة الإيمان في جوانحهم، حتى يكونوا مؤمنين صدوقين وهم بكامل الإدراك والقناعة بعيدا عن أي شكل من أشكال الكراهية في الدين ٠
 فالذي يولي وجهه شطر الله ترهيبا ، لا يكون مؤمنا ، بل ساعيا للنجاة بنفسه ، ولذلك حماه الله و في ديار المؤمنين ، لأنه يمارس حريته الشخصية في مسالة الإيمان ، بل أن الله لا ينهى المؤمنين من أن يبروا الكافرين ويحسنوا إليهم إذا لم يقاتلوهم ويخرجوهم من ديارهم ، فمشيئة الله تكمن في حرية الإنسان في أن يؤمن أو لا يؤمن ، فهو إن آمن بعد قناعة راسخة ، آمن من خلال إحسان الله إليه ، ومن خلال سعة رحمته به ، ولذلك فان المؤمن يحسن إلى الكافر ، ولا يسيئ إليه حتى بإشارة جارحة .

وفي هذا أذكر حادثة وقعت مع أبي الأنبياء عليه وعليهم السلام وذلك عندما جاءه رجل جائع يسأله طعاما ، ولما علم إبراهيم أن هذا الرجل لا يؤمن بالله الواحد ، قال له : لن أطعمك إلا إذا آمنت بما أدعوك إليه من عبادة الواحد الأحد ٠ رفض الرجل وآثر جوعه على أن يؤمن بنفاق وقال بأنه مصر على عبادة النار وانصرف جائعا .
فأوحى الله إلى نبيه : لِمَ لمْ تطعمه واشترطت عليه تبديل دينه ونحن نطعمه أربعين سنة على كفره ٠ فانتبه إبراهيم أن ربه أعظم من أن يفرض الإيمان به على شخص يأبى هذا النور ، وأن ربه لا يهدد بالجوع والفقر والمرض حتى يؤمَن به عنوة، فتعلّم درسا جديدا في مدرسة ربه ، وما لبث أن ركض يلتحق بالرجل حتى يزيل عنه سوء الفهم الذي أعطاه عن الله ، وهذا بذاته نوع من الاعتذار لعبد الله هذا، فانظر كيف أن نبيا بحجم إبراهيم يعرض الاعتذار على مشرك ليس في قلبه إيمان بالله ، وبإيعاز من الله حتى لا يخرج هذا العبد من عند النبي غضبانا ، وهذا النبي يمثل كلمة الله ٠ عندما لحق به ، عرض عليه الطعام ساحبا عرضه السابق ، فوقف عابد النار ونظر لإبراهيم قائلا له : لن أقبل دعوتك حتى تخبرني ما الذي غيرك ؟ .
ولم يكن أمام النبي إلا أن يصارحه بما جرى بينه وبين ربه ، الذي نظر من عليائه في تحاورهما وتدخل دافعا نبيه هذا التوجه ، فوقف عابد النار دهشا : سبحان الله .. هكذا يعاملني ربك وأنا أعبد سواه ٠ فكانت خطواته الأولى نحو مملكة الإيمان بالله ٠ إن الإيمان هو شعلة نور إلهي تنير نفس الإنسان وروحه حتى لا يلجأ لغير الله ، حتى لا يسأل غير الله ، إن المريد في بعض المراحل يرى الخلاص في الشيخ أكثر مما يراه في الله ، فتكون علاقته بالشيخ أوثق من علاقته بالله ، بل لا يذكر الله إلا وقد سبقه بذكر الشيخ ، فهو يرى أن رضى الشيخ من رضى الله وسخطه من سخط الله ، وكذلك فإن الشيخ في هذا الموضع لا ينظر إلى هذا المريد أكثر من نظرته إلى دابة من دواب الأرض ٠
الأيمان بالله يرفع الإنسان ويسمو به من أن يستضعف أمام بشر ، آو حيوان ، أو جان ، أو جماد ،ثم إن الإيمان يجعلك في سعة من أمرك ، فلا ترغم على بشر أن يؤمن كما أنت مؤمن ، ولا ترغم على ابنتك رجلا لا تبغاه ،ولا ترغم على رجل أن يعطيك من ماله ، ولا ترغم على شخص أن يصفق لك خشية أذى ، ولا ترهب شخصا بحضورك ، وأن تكون أعمالك هي التي تقرب الناس إليك وتحببك بهم ،وتحبيبهم بك،
وعندها فانك تدرك بأن إيمانك لا يكون إيمانا صحيحا حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، من فعل الخير١٣ ، حتى إذا فارقت الأحبة وارتقيت إلى الرفيق الأعلى رأيت / قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ،

والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون / ١٤ .
فترى :/ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم /١٥ .
ولا ترب طرفة عين أن التوسع في العلم والمعرفة والعبادة والمحبة يزيد في درجات لإيمان ٠ كان الفيلسوف الإنكليزي فرانس بيكون يقول :/ إذا كان القليل من الفلسفة يقرب الإنسان إلى الإلحاد فإن التعمق فيها يرده إلى الإيمان /٠ وقال باستور في ذلك :/ كلما ازدادت علما ، ازددت إيمانا / .
يمنحك الإيمان فرصة ثمينة لتتجلى وتتألق فتعيش حالة راقية من الالتذاذ بكمال الإنسان الروحي .
يشرق نور الإيمان في عمقك لينمّي فيك الإنساني ، ويخلصك من تاريخك الغرائزي ، إنه ينبهك ويبقظك على حالة الإنسانية العامة لديك في جو من الصحوة والصفاء الذهني والروحي .
واعلم أن الإيمان لا يعني الاعتكاف في موقع محكم للصلاة ، أو أداء الفرائض كما أنك تسدد دينا لله عليك ، فالعبادة هي وسيلة من وسائل الاقتراب إلى الله والظفر برحمته وعفوه ، ولا تتحقق العبادة إذا لبثتَ في قطيعة عن واجباتك الاجتماعية واعتزلت الناس ، لأن العبادة آنذاك تكون نقمة عليك وعلى مَنْ حولك ، لا يتحقق الإيمان إلا بالنشاط الإنساني والحيوية الاجتماعية , وانظر هنا إلى إرشاد رسول الله وتوجيه لأقرب الناس إليه في علاقة الإنسان المؤمن بوقائع المحيط الذي يعيش فيه .
فقد سأل ذات يوم أصحابه : مَنْ أصبح منكم اليوم صائما ؟
قال أبو بكر الصديق : أنا يا رسول الله
ثم سأل : فمن أطعم منكم اليوم مسكينا ؟
قال الصديق : أنا يا رسول الله
ثم سأل : فمن عاد منكم اليوم مريضا ؟
قال الصديق : أنا يا رسول الله
ثم سأل : فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟
قال الصديق : أنا يا رسول الله
فقال الرسول : ما اجتمعن في امرئ إلا ودخل الجنة .
وقد وصف عمر بن الخطاب إيمان أبي بكر الصديق بقوله :
/ لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض جميعا لرجح بهم / ٠
لم يكن هذا الإيمان نتيجة لاعتكافه في محراب حجرة محكمة،
ولا بتتبعه لشيخ ، ولكن نما هذا الإيمان حتى بلغ به درجة عالية نتيجة وجوده في الناس وتقديم عمل البر فيهم .

فاعلموا أنكم لن تبلغوا درجات الإيمان ما لم تحابوا ، وأن الحب الأخوي الإنساني العظيم في الناس ينبثق من إيمان عظيم في صدورهم ،كل خطوة تخطونها في نفع الناس ، هي خطوة قرب لكم في نهج الله ، وفي هذا فإن الله ذاته يؤمن بالإنسان الذي يؤمن به ، فليس الإنسان / المؤمن / وحده في الأرض يؤمن بالله ، ولكن الله / المؤمن/ كذلك من عليائه يؤمن بالإنسان .
وإذا كان الإنسان ينسى الله في غفلة ، أو في طرفة عين ، فإن الله لا ينسى الإنسان ولا يغفل عنه طرفة ، ذلك أن غفلة الإنسان عن ربه لا تؤذيه بشيء ، ولكن غفلة الله عن عباده تؤذيهم بكل شيء ، فعندما يكون الإنسان مستغرقا في نومه ، يلبث الله ساهرا على عباده النائمين / لا تأخذه سنة ولا نوم / ذلك أنه مؤمن بهم ورؤوف ورحيم على راحتهم ، فيمكن للكون كله أن يختلف في غفلة لله ،
وثمة مخلوقات شريرة يمكن لها أن تؤذي كل عمارة الإنسان جملة واحدة لولا يقظة الحي القيوم الذي لا ينام .
فترى حوارات الناس وأسماءهم ومواقفهم تتكرر في كتاب الله الذي يضرب بها الأمثال لتعرف بأنه يعلم / السر وما أخفى , ويعلم خائنة الأعين / وهو الأقرب إليك من ذاتك , ثم تعود فتقرأ نداءه إليك : / وفي أنفسكم أفلا تعلمون / ٠ كل هذه المدركات في واقع الأمر تجعل حواسك تتفتح على الإيمان بالله الذي يكون معك كل لحظة وكل هنيهة فتتعلم كيف تكون مؤمنا , وتتذوق حواسك لذة الإيمان ٠ وفي هذا أذكر حديثا عن أنس يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأُبي : أمرني الله أن أقرأ عليك القرآن ٠
قال أُبي : الله سماني لك ؟
قال : الله سماك لي ٠
فجعل يبكي ١٦٠
هذه الأضواء تجعلك على علاقة مباشرة مع ربك الذي هو أقرب إليك من الشيخ فتستيقظ نفسك على أنوار ثنائيتك مع الله مهما كانت درجة معرفتك ومهما كان موقعك أو لونك أو عمرك , فأنت الإنسان الذي أحبه الله وشاء أن يخلقه ويمتعه بكل نعم الحياة والمدركات البشرية , ويسهر على نومه , ويسخر له ملائكته , ويجعله في عنايته الإلهية , ويؤتيه من العلم ما لايعلم ٠
هنا تدرك أنه ليس بوسع أي شيخ أن يحمل سلّما على ظهره ليصعد عليه المريدون إلى ربهم , لأنهم بكل بساطة لايحتاجون إلى صعود بواسطة ذاك السلم على قدر مايحتاجون إلى البحث عن الله في أعماقهم في أشد ساعات الليل حلكة وسكونا ٠ والواقع فإن هؤلاء المشايخ يتكئون على حالة الجهالة الكبرى التي تحيط بالبقاع والنفوس الإسلامية وهم أنفسهم يدفعون إلى الأمية الثقافية والأمية الأبجدية معا في كثير من خطبهم , ولنقف أمام مثال على

ذلك فرغم كل هذه السعة في وسائل المعرفة ومحو الأمية فإن نسبة المسلمين المتعلمين في بدء الدعوة الإسلامية هي أعلى من نسبتهم في ساعتنا هذه , الأمة التي ولدت بنداء : / اقرأ / هي أكثر أمم الأرض أمية أبجدية ومعرفية , وجهالة بأمور دينها ٠ وحاليا يعيش الأمية مايزيد عن ستين مليونا من المسلمين في الدول الإسلامية وهي أعلى نسبة أمية بامتياز بين سائر أمم وأديان ومذاهب الأرض أجمعين رغم أننا نجد في كل شارع شيخا ومسجدا ٠ الناس قد يندفعون بفطرتهم خلف هؤلاء لينتهوا إلى أن يكونوا لعبا نارية في أرض ملغومة , وهذا من شأنه أن يجلب الويلات حتى للرضع لأن هؤلاء الذين يلعبون بالنيران فإنهم في نهاية الأمر يأتون فيختبئون في أهليهم وفي أوساط آهلة بالسكان حتى يكون الضرر عاما وشاملا بالناس والزرع والشاة , فهم يخشون أن يواجهوا مايسمونهم ب / الأعداء / على أرض بائرة , مثلهم مثل كائن واهن يأتي فيطعن كائنا جبارا عن غفلة من الخلف ويجري يختبئ بين أسرته فيأتي هذا الكائن الجبار ويحرق الموضع برمته ثم يتبين أن هذا الشخص كان هاربا من ذاك الموضع بعد حلوله فيه , وهو يظن بأنه تحايل على هذا الكائن الجبار لأنه أعطى صورة عن ممارسته للعنف على السكان الأبرياء , فمرة طعنه من الخلف ومرة دفعه لارتكاب حماقات بحق أناس لاعلاقة لهم بالأمر فيظن بأنه انتصر عليه مرتين ٠ تبقى الشمس تعلن شروقها وتبين للناس بأن قوة العدالة الإلهية تكون دوما إلى جانب أهل العدل في الأرض , وأن مفاتيح أبواب العالم تلبث بأياديهم الكريمة البيضاء فيرفعوا كلمة المحبة والسلام والمساواة كشعار يقودون به العالم برمته , وماتزال ثنائية الشيخ والمريد مشتعلة في المسلمين تأكل فيهم الأخضر واليابس معا ٠ هذه الثنائية التي تزرع في المريدين بأن الشرق إسلام والغرب كفر ولن يلتقيا ولايجوز لهما أن يبقيا في زمن واحد فأما الشرق وأما الغرب ٠ ما يفيد في هذا المقام هو العودة إلى الشرارة الأولى للإسلام , والنظر إلى تلك الصفحات التأسيسية في العلاقة المتبادلة بين الإسلام والعالم بمختلف اتجاهاته , وهنا سأقدم مثلا في علاقة النبي بأهل الشرك في صلح الحديبية وهو يبين لهم : / لكم دينكم ولي ديني / حتى أن بعض أصحابه بات ينظر بريب إلى مقدار ليونة نبي الإسلام مع الكفار فوثب عمر بن الخطاب إلى أبي بكر قائلا بدهشة : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟

قال : بلى

قال : أولسنا بالمسلمين ؟

قال : بلـــى

قال : فعلام نُعطى الدنية في ديننا ؟

قال أبو بكر : ياعمر الزم غرزه , فإني أشهد أنه رسول الله ٠

قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله • ثم أتى الرسول
فقال : يارسول الله , ألست برسول الله ؟
قال : بلى
قال : أولسنا بالمسلمين ؟
قال : بلــى
قال : أوليسوا بالمشركين
قال : بلى
قال : فعلام نُعطى الدنية في ديننا ؟ •
قال : أنا عبد الله ورسوله , لن أخالف أمره , ولن يضيعني •
فلما رأى عمر النبي مصراً على قراره بالصلح , تراجع عن موقفه , وفي ذلك يقول : مازلت أتصدق وأصوم وأصلي
وأ ُعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيرا ١٧ • لم يكن موقف النبي من ضعف أو وهن , فمجرد الجلوس على مائدة حوار والتحاور بين طرفين ذلك يعني النفوذ الذي يتمتعان به ومنعا لتدخل أي طرف في شؤون الطرف الآخر • كان النبي ممثلا للمسلمين , وكان سهيل بن عمرو ممثلا للمشركين وقد حضرا بنفسيهما لتوقيع هذا النص الذي سيتفقان عليه • قال النبي لعلي بن أبي طالب : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم •
فاعترض سهيل على البسملة في بدء محاولة الصلح قائلا : لاأعرف هذا , ولكن اكتب : باسمك اللهم • لم يعترض النبي فطلب من علي أن يكتب ما يقوله الشريك في الصلح , ثم قال : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر • فاعترض سهيل مرة أخرى على عبارة / رسول الله / قائلا : لوشهدت أنك رسول الله لم أقاتلك , ولكن اكتب اسمك واسم أبيك •
لقد كان الرجل معبرا عن حقيقة مشاعره فلم يفرض عليه النبي أمرا لايؤمن به لأن الله هو الذي يقذف الإيمان في قلب من يشاء , فاستجاب له رسول الله قائلا للكاتب : اكتب : هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمر , واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس , ويكف بعضهم عن بعض , على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم , ومن جاء قريشا ممن مع محمد لن يردوه عليه , وإن بيننا عَيْبة مكفوفة وأنه لاإسلال ولا إغلال , وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه , ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه •
في تلك اللحظات الأولى على الصلح الذي شهد عليه كل من : أبو بكر الصديق , وعمر بن الخطاب , وعبد الرحمن بن عوف , وعبد الله بن سهيل بن عمر , وسعد بن أبي وقاص , ومحمود بن أبي مسلمة , ومكرز بن

حفص , وعلي بن أبي طالب , جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى النبي , فقام إليه سهيل وضرب وجهه قائلا للنبي : يامحمد قد لُجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتي هذا ٠ قال النبي : صدقت ٠ فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش وهو يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين , أأُرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ٠ لقد زاد هذا المنظر الصحابة ألما على نص هذا الصلح , ولكنهم لبثوا في أمر النبي الذي يتحدث عن الله وقد رد على صراخ أبي جندل : / يا أبا جندل , اصبر واحتسب , فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا , إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك , وأعطونا عهد الله وإنا لانغدر بهم / ٠ ورغم جواب النبي لم يملك عمر بن الخطاب نفسه وهو يشهد الواقعة , يقول فيما بعد : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ١٨ ٠

استطاع النبي بمواقفه أن يقنع المسلمين بأن الله قد كفاهم القتال , ولذلك كان أول ما يخرج من بيته يردد: اللهم أعوذ بك أن أضِل أو أُ ضل أو أزل أوأُزَل , أو أظلم أو أُظلَم , أو أجهل أو يُجهل علي ١٩ ٠ و يستعين أحيانا بروح المداعبة ويعينه الله على هذه المداعبة , فقد كان رُكانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشد قريش , فخلا يوما برسول الله في بعض شعاب مكة فقال له الرسول : يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟

قال ركانة : إني لو أعلم أن الذي تقوله حق لاتبعتك

فقال الرسول : أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حــق ؟

قال ركانة : نعــم

قال الرسول : فقم حتى أصارعك

فقام إليه ركانة يصارعه , فأضجعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لايملك من نفسه شيئا ٠

ثم قال ركانة : عد يا محمد , فعاد فصرعه ٠

فقال : يامحمد , والله إن هذا للعجب , أتصرعني ؟!

فقال رسول الله : وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه , إن اتقيت الله واتبعت أمري

قال : ما هو

قال : أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني ٠

قال : ادعُها

فدعاها النبي , فأقبلت حتى وقفت بين يديه , ثم قال لها : ارجعي إلى مكانك ٠ فرجعت إلى مكانها , فذهب ركانة إلى قومه فقال : يا بني عبد مناف ,

ساحروا بصاحبكم أهل الأرض , فوالله ما رأيت أسحر منه قط ٠ ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع ٢٠ ٠

ولايكتفي أن يقول لهؤلاء : لكم دينكم ولي ديني ٠ بل ينظر في أمرهم فإن احتاجوا شيئا أعطاهم وبر بهم وهو يقول للمسلمين عن الله : / لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين / ويحذرهم : / لاإكراه في الدين ٠٠ قد تبين الرشد من الغي / ٠ ولم يكن هذا من ضعف لأن الله الذي أمره بذلك ليس ضعيفا , ولكنه يريد أن يحبب الدين بالناس قبل أن يدخلوه , فدخول رجل واحد الإسلام عن محبة وإيمان وطيب لهو خير من دخول العالم كله الملة بقوة السيف وينقادوا كما تُقاد الدواب , حتى ذاك الذي بينه وبين المسلم عداوة ينظر إليه المسلم كأنه ولي حميم ٠ ولاشك أن هذه العلاقة لسوف تولّد علاقة تبادلية حتى يستطيع الناس بجميع معتقداتهم التي شاءها الله لحكمة منه أن يعيشوا تحت سماء واحدة , بل في بلدواحد , بل في شارع واحد , بل في خيمة واحدة ٠ وأذكر هنا حديثا لجعفر بن أبي طالب بين يدي ملك الحبشة النجاشي وهو يلجأ إليه مع المسلمين الأوائل قائلا ببساطة : / أيها الملك , لقد كنا قوما أهل الجاهلية , نعبد الأصنام , ونأكل الميتة , ونأتي الفواحش , ونقطع الأرحام , ونسيء الجوار , ويأكل القوي منا الضعيف , فبعث الله إلينا رسولا منا , نعرف نسبه وصدقه , وأمانته وعفافه , فدعانا إلى الله لنتعبده ونوحده

, ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان , وأمرنا بصدق الحديث , وأداء الأمانة , وحسن الجوار , والكف عن المحارم والدماء والأوثان , وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام , فعدا علينا قومنا , فعذبونا وفتنونا في ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث , فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا , خرجنا إلى بلادك , ورغبنا في جوارك , ورجونا ألاّ نُظلم عندك أيها الملك / ٠ وكان من الطبيعي أن يقول رجل سوي كالنجاشي : / اذهبوا فأنتم في بلادي آمنون / ٠ هذا الحديث الذي قاله جعفر للملك مازال يتكرر حتى يومنا هذا وما زال النجاشي يتكرر في ملوك ليقولوا للمسلمين ذات الكلام ٠ وما يحدث في أيامنا أن البعض يسعى لإفساد روح هذه العلاقة , فما الذي كان سيبدر من النجاشي فيما لو قام جعفر وصحبه بالاعتداء على أرواح مواطني النجاشي بعد أن أعطاهم عهد الأمن ووفر لهم السكن والطعام والحماية والضمان الصحي ٠

*   *   *

في بعض مراحل الدعوة كان يصل الأمر بقريش أن تستهزئ بالنبي فتعتبر ليونته وهنا وضعفا , وكان إذا قعد في المسجد وجلس إليه المستضعفون من أصحابه أمثال : خبات , وعمار , وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث , وصهيب ٠٠ هزئت بهم قريش وقال بعضهم لبعض : هؤلاءأصحابه كما ترون , أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بيالهدى والحق , لو كان ما جاء به محمد خيرا ماسبقنا هؤلاء إليه , وماخصهم الله به دوننا ٠فوجّه الله نبيه : / ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه , ماعليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين , وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا ٠ أليس الله بأعلم بالشاكرين , وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم / ٢١ ٠صدق الله العظيم ٠

هذا كلام مفتوح لجميع الناس على مختلف أزمنتهم وأمكنتهم , فمازال النبي موجودا بيننا وما تزال آيات القرآن تنزل عليه لكل مولود يفتح عينيه : / وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما /٢٢ ٠

سأل النبي بعض أصحابه : ما أنتم ؟

قالوا : مؤمنون

فقال وما علامة إيمانكم ؟

قالوا : نصبر عند البلاء , ونشكر عند الرخاء , ونرضى بمواقع القضاء

فقال : مؤمنون ورب الكعبة ٠

وورد في الأثر أن كليم الله موسى عليه السلام سأل ربه فقال : يارب خصني بشيء

قال : ياموسى قل لاإله إلا الله ٠

قال : يارب خصني بشيء لم تعطه أحدا قبلي

قا : يا موسى قل لاإله إلا الله

قال : يارب أعطيتها آدم ونوح والنبيين من قبلي

قال : ياموسى وعزتي وجلالي لو أن السماوات السبع وما فيهن والأرضين السبع وما فيهن في كفة , ولا إله إلا الله في كفة , لرجحت كفة لا إله إلا الله ٠

ويخاطب الله آخر الأنبياء والرسل : / وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لاإله إلا الله فاعبدون / ٢٣ ٠

لذلك لبث النبي يشرح للناس بأن أعلى مرتبة يمكن أن يبلغها المرء تكون على قدر ارتقائه في درجات الإيمان في نفسه ,ويستخلص رسالته في جملة واحدة : / أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله / ٠
قد نجد من يسعى نحو تثقيف ذاته في الاقتصاد , في علاقاته الاجتماعية , في إدارة عمله , في علاقته بعياله , في العناية بصحته ٠٠ وينسى أن كل هذه الثقافات لا تنمو إلا في تربة قلب مؤمن موحّد , ولذلك فإن كل هذه المحاولات لاتبلغ الكمال ويبقى أصحابها يبذلون كل طاقاتهم دون أن يحققوا نجاحات ٠ ثمة أناس بلغوا من العمر عتيا وما استقر الإيمان في جنباتهم لأنهم ما سعوا نحو التعرف على ربهم واليقين به , وحتى لو قالوا باليقين فإن هذا اليقين لايستقر في قلوب غير آمنة بنور ربها , المؤمن يقدم إيمانه عن طريق أفعاله أكثر مما يقدمه عن طريق أقوله , والإيمان يقدم أفعال المؤمن أكثر مما يقدم حديثه ٠ حتى العبادات الكبرى يمكن أن تبقى ضمن دائرة الأقوال ولا تقدم لصاحبها شيئا إن لم تكن أفعاله وعلاقاته تنم عن إيمان , كمثل رجل يؤدّي العبادات , لكنه يؤذي جواره بحديث بذيء , أو كامرأة تؤدي العبادات بيد أنها تظلم حيوانا بتصرف لايمت إلى الإيمان بصلة , فقد يبلغ المرء مرتبة قرب من ربه بموقف محبة لايبلغها في ستين سنة صلاة وصوم وزكاة ٠ الإيمان ينمو في تربة نفسك وأنت تذكر الله في كل أمر يقدرك الله عليه , حتى في حرف تقرأه أو تكتبه , حتى بنبرة صوت رحمك الله بها , أو بنظرة تنظرها إلى شيء جميل , أو بصوت حسن تستمع إليه ٠
عندما تقف على قدميك لاتنس أن الله هو الذي بث فيك قوة الوقوف , عندما تكسب رزقا لاتنس أن الله هو الذي وسع عليك بهذه النعمة , اذكر ربك قياما وقعودا , اذكره مستلقيا إلى أن يطمئن قلبك بدفء الإيمان , ويغدو في حالة عتاب في ساعة لايكون فيها مسكونا بالله ٠ كان أهل الإيمان من سلفنا الصالح يسعون جهد أيمانهم التعرف على الله سواء من خلال قراءة القرآن بتدبر , أو من خلال التعرف على مخلوقات الله المختلفة , أو من أحاديث النبي , فكان الإمام البخاري – رحمه الله – يحفظ ستمائة ألف حديث صحيح ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم , حتى قيل فيه بأنه / حافظ الدنيا في عصره / ٠ فكم من مواقف نعيشها , وكم من أنباء نعلمها تزيدنا قربا من نور الله إذا نظرنا إليها نظرات إيمانية ٠ من هذا الإيمان الذي ينعش النفس ويدخلها حالة من السكينة والاستقرار يستمد المؤمن حالة الصفاء العامة التي يرفرف في نعيمها وتبدو جلية على مظهره أمام مرأى من شخص يسعى ما بوسعه لاليكون سعيدا , بل ليزيح عن نفسه حالة البؤس المستبدة به فتفشل محاولاته اليائسة لأنها غير مبنية بلبنات نور الإيمان على أساس إيماني قويم يمتن العلاقة مابين الأرض والسماء , لأن الآرض لن تكون أرضا بدون

السماء , ولا السماء تكون سماء دون أرض , على هذا تتولد نزعة اللاتزان في داخل شخص يعيش على الأرض ولا ييقن بوجود السماء , إذ لاغنى لابن الأرض عن الكواكب الأخرى أينما كان موقعها كما أن لاغنى للكواكب الأخرى أينما كان موقعها عن كوكب الأرض , فهذه الحالة المشتتة بين كائن لايؤمن غير بكوكبه تعكس حالة تشتت في الأرض ذاتها بين روح هذا الكائن وبين جسده فيعيش الإغتراب الذاتي الذي ينتهي به إلى مرحلة اللاانتماء الجسدي والروحي الذي توسع فيه كولن ولسن . وهنا يمكن لنا أن نتأمل الأشخاص الذين لايقعدون على إيمان ويشكون ويلات مشاعر اللاانتماء المستبدة بحواسهم وتحرق كل لحظة سكينة تود أن تهب عليهم لأن هذه النفوس غير المستكينة تأبى استقبال أي لحظة من لحظات عمق الفرح . فمهما بلغ الشخص من ثراء لتحقيق أمن وسعادة , ستتوق نفسه لثراء أكبر , ومهما اقترن بنساء جميلات , ستتوق نفسه لنساء أكثر , ومهما أقام في منزل شرح , ستتوق نفسه لمنزل أشرح . ذلك أنها متاع محكومة باللاكمال بطبيعتها , وقد بُنيت على أساس من نقص مهما تسلسل المرء في درجاتها لن تبلغ به الكمال ولن تمنحه البتة حالة الاكتفاء الذاتي . أما بالنسبة للإيمان , فإنك إن آمنت بالله الكامل إيمانا كاملا وأسلمت نفسك لعدله , سوف تنال الاستقرار لأنه لن يكون بوسعك أن تبحث عن إله آخر أكثر ألوهية , فإلهك هو واحد أحد لاشريك له وأنت تستقر في ملكوته نائما بأمن وسائرا بنور إيمانك , وهذا ما يحقق لك السعادة الممزوجة بحلاوة الإيمان حتى لو كنت في مأوى من قش تقتات خشاش أرض مهجورة .

مراجع:

١ - سـورة ق , الآية : ١٦
٢- سـورة النساء , الآية : ١٣٦
٣- سـورة النساء , الآية : ١٧٠
٤- سورة محمد , الآية : ٢
٥- سورة الأنعام , الأية : ٨٢
٦- سورة الإسراء , الآيـة : ٨٢
٧- سورة الفتح , الآية : ٢٩

٨- سورة الحديد , الآية : ١٢
٩- سورة التغابن , الآية : ١١
١٠- متفق عليـــه
١١-رواه أحمد ومسلم والترمذي
١٢-رواه أحمد ومسلم
١٣-الحديث : / لايؤمن أحدكم حتى يحبب لأخيه مايحب لنفسه / رواه البخاري ومسلم
١٤-سورة المؤمنون , الآيات : ١- ٥
١٥-سورة الزلزلة , الآية : ٦
١٦- رواه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن باب / سورة لم يكن / ٥٩٧/٨,ح٤٩٦٠, ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين باب : استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحذاق فيه وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه / ٨٥/٦,ح٧٩٩
١٧-أخرجه البخاري في كتاب / الجزية والموادعة / باب حدثنا عبدان , / ٦/ح ٣١٨٢/ فتح / ومسلم في كتاب / الجهاد والسير / باب صلح الحديبية في الحديبية /٣/ص١٤١١, ١٤١٢/ح ٩٤ من حديث سهيل بن حنيف ٠
١٨- عن سيرة ابن هشام , ج٢ ص١٩١ ـ١٩٣ ,ط٢, دار الحديث , القاهرة , ١٩٩٨
١٩- أورده الإمام النووي في كتابه / الأذكار المنتجة في كلام سيد الأبرار / وقال : حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة
٢٠- أخرجه البيهقي في / الدلائل / ٢٥٠/٦ مرسلا وله شواهد منها ما أخرجه أبو داود في / المراسيل / ٣٠٨من طريق عمر بن دينار عن سعيد بن جبير وهو مرسل صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح ٠ والبيهقي في / السنن / من طريق أبو داود ١٨/١٠وإسناده جيد بلفظ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بالبطحاء فأتى عليه يزيد بن ركانة ومعه أغزله فقال له : يامحمد هل لك أن تصارعني ؟
فقال : ما تسبقني
قال : شاة من غنمي
فصارعه النبي , فأخذ شاة فقام ركانة فقال : هل لك في العودة ٠
قال : ما تسبقني

قال : أخرى ٠ فصارعه النبي فصرعه فقال له مثلها فقال : ماتسبقني ٠ قال : أخرى ٠ فصارعه النبي ٠ ذكر ذلك مرارا فقال : يامحمد والله ما وضع جنبي أحد إلى الأرض وما أنت الذي صرعني ٠ فأسلم ٠

٢١ - سورة الأنعام , الآيات : ٥٢- ٥٤
٢٢ - سورة الفرقان , الآية : ٦٣
٢٣ - سورة الأنبياء , الآية : ٢٥ ٠

٣- عصا الفتنـــة

لما كانت غريزة الاختلاف التي شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعلها آية في الناس زاجية إياهم نحو سعة تعدد مواقف ومفاهيم وتفاسير لتفرعات ثوابت التوحيد , ولدت في فضاء هذا الدين الجديد مذاهب فقهية تسعى إلى لملمة ماحدث من تشتت جراء هذه الولادة الشرعية , والتقرب بين المسلمين ما أمكن بما هم عليه من علامات اختلاف ووجهات نظر متفاوتة بغية البقاء جميعا حول راية الإيمان الكبرى .

ففي عقيدة هذه المذاهب لكل طائفة مذهبها , ولكن كل هذه المذاهب على سعتها وتفرعاتها ومستجداتها عبر الزمن تلتقي تحت خيمة الإسلام الواحدة التي لاثاني ولاشبيه لها فتتوجه عامة تحت هذه الخيمة نحو الكعبة المشرفة .وقد ظهر أئمة المذاهب يحملون معهم وجهة نظر فقهية ضمن محراب آية الاختلاف لسد الذرائع أمام بعض محاولات لمست في هذا الاختلاف بين المسلمين ثغرة وهن يمكن أن تُستثمر فتودي بهم إلى نهج تيه في مساحات هذا الدين الجديد بعد وفاة نبيه صلى الله عليه وسلم .

فثمة طائفة من الناس بحسب تركيبتها النفسية وموروثها الاجتماعي ومعطيات البيئة التي تعيش فيها , تميل بنوازع فطريتها إلى أصول الدين , هاهنا لن تلبث تائهة في شتات الاختلاف حتى تتخذ من الفرقة وسيلة للقطيعة عن الجماعة التي بدورها تؤدي إلى قطيعة وإخراج عن الدين الذي يرفض هذا الموروث وهذه التركيبات ضمن نسيجه ونسيج داخليه , بل ستجد هذه الطائفة إماما يروّض فيها هذه الخصوصية الاجتماعية والبيئية والجغرافية ضمن هيكلية المسلمين عامة فيجعل هذه الخصوصية إحدى خصوصيات سعة وشمولية وانفتاح الإسلام , فيروي ظمأ نزوعها الأصولي لتلبث تحت خيمة الإيمان إلى جانب إخوانها المسلمين . ويسعى هذا المجاهد ما بوسعه بحثا وتنقيبا في كتاب الله وسنة نبيه ليأتي بقوة حجة تثبت هذه الطائفة في عمق إيمانها وتبقيها في خيمة الإسلام حتى تفضي كل مساعيه في نهاية المطاف إلى ولادة مذهب له خصوصيته الاجتماعية والإنتمائية والطائفية والبيئية تسمت هذه الطائفة وحفدتها بنوره إلى البارئ المصور .

وتقضي آية الاختلاف التي شاء الله أن يجعلها في نسيج الناس إلى تفرع طائفة تميل بدواعي فطريتها وتركيبتها الاجتماعية وموقعها السكني إلى التيسير في أمور دينها والانفتاح على شرائح وعلوم وثقافات الآخرين , و التلاقح والاختلاط بفئات وأمم وملل شتى , وتعلم اختلاف الألسنة ,

والتصاهر مع أديان أخرى ٠ وعلى الأغلب فإن أبناء هذه الطائفة يقيمون على أنهار كبرى , أو على شواطئ بحار , أو على منعرجات خليج , أو يقيمون في بلاد أهل الكتاب ٠ بطبيعة الحال فإن هذه الطائفة سوف تجد إحراجا في انتمائها إلى مذهب الطائفة الأولى الأصولية المتشددة , وفي ذروة التيه بحثا عما يثبتها في أركان إيمانها ستجد إماما ييسر لها أمر الدين مستندا على نصوص من التنزيل الحكيم , وعلى سنة نبي الدين , هذا الإمام بجهوده الفردية ينجح في أن يُبقي هذه الطائفة جنبا إلى جنب منتمي المذهب الأول تحت ظلال خيمة الإيمان الكبرى التي يطلع عليها نهار الله ويحل عليها ليله ٠

وتمضي آية الاختلاف التي جعلها العزيز في الناس حكمة إلى تفرع طائفة ثالثة تميل بحكم عدم ثباتها في موضع سكني , وعدم المكوث في تركيبة اجتماعية , إلى الوسطية , فتجد حرجا باتباع مذهب من مذهبَي التشدد والانفتاح لعدم ثباتها في أرض وناس متنقلة من ديار لديار مؤدية وظيفتها , فتجد إماما وسطيا ينير أمامها دجى غربتها , فتميل ميلا مذهبيا إلى رحاب هذا الإمام تجعله حجة تبقيها في خيمة الإيمان تقيم شعائر دينها جنب إلى جنب الطائفتين السالفتين , وهي تميل بذات الوقت إلى شيء من السلف , وإلى شيء من الخلف , فلا تكون سلفية خالصة ولا خلفية خالصة ٠ وهذا بتقديرنا أكثر المذاهب رواجا وشعبية ذلك أن الله قد يسر أمر الوسطية في كل علاقة للإنسان بربه من جهة , وبذاته والآخرين من جهة , وخاطب أمة الإسلام بأنه جعلهم في ظلال الإيمان أمة وسطا ٠ لذلك فإن إمام هذا المذهب الوسطي غني الحجة بنصوص الفرقان , وسنة النبي الأمي , وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ٠

من صلب المذاهب الثلاثة التي نظرنا فيها ينبثق مذ هب رابع يتطلع إلى لملمة الداخلين لدين الله أفواجا , فهؤلاء دخلوا الإسلام للتو وليس بوسعهم قبول مذهب السلف جملة وتفصيلا والانسجام الفوري به وقد جاءوا منذ ساعة من تركيبات غير إسلامية شتى , وليس من اليسير عليهم قبول فكرة الانفتاح الذي خرجوا منه حالا , كما أنهم سيجدون شيئا من الاضطراب أول الأمر في مذهب الوسطية , فيجدوا في عالم المذاهب إماما يأخذ بأياديهم إلى قبة خيمة الإيمان فيجعل لهم صفا جديدا إلى جانب الصفوف الثلاثة فيأخذوا من التشدد إذا رأوا ذلك , ويأخذوا من التيسير إذا رأوا , ومن الوسطية كذلك وهم في صفهم الرابع جنبا إلى جنب الصفوف الثلاثة ٠

في واقع الأمر فإن هذا بذاته قد فجر ثورة فقه المذاهب في عالم الإسلام الشاسع والذي سوف تتفرع منها طرق ومنعرجات شتى ٠ وليس على الدين وعلى طوائف وملل الناس من حرج في كل هذه المذاهب والفروع والطرق

والمنعرجات مادامت تؤدي إلى ثبات الدين في صدور الناس , وإلى ثبات الناس في إيمانهم فيتقبلون قبلة واحدة , وينتمون لنبي واحد , ويصومون في شهر واحد , ويرفعون أكف الابتهال لرب عرش واحد ٠ وهذا بذات اللحظة يمنح صورة مشرقة عن سعة وترحاب فضاء هذا الدين الذي باركه العلي لعباده ورضاه لهم ورضاهم له ٠ فإذا كانت مشيئة العزيز اختلاف طبائع وأمزجة الناس , فهاهنا تشع المذاهب من أرحامهم فيجدوا فيها ما يوافق ميولاتهم على مختلف تفرعاتها وتناقضاتها تحت قبة الله الكبرى ٠ فإذن كانت محاولات واجتهادات من أئمة المذاهب الكبار جدا : أحمد بن حنبل , وأبو حنيفة , ومالك , والشافعي ٠ للملمة الشتات بهدي كتاب الله وسنة رسوله , فأمام نور الله وسنة رسوله يأخذ المذهب الفقهي شرعيته وبراءة فقهه في العالمين ٠

الحساســية المذهبيــة

ولكن ماهو غير محمود أن أبناء وحفدة هذه المذاهب يسعون إلى جعل حساسيات فيهم بإيعاز من أناس نصبوا أنفسهم شيوخ طرق ومنعرجات ويعطون صورة لمريديهم بأن ما يقولوه هو من كتاب الله , فتبلغ الحساسية المذهبية مرحلة يصعب فيها التعايش بين مذهبين في حي واحد , أو حتى الصلاة في جامع واحد ٠ وتمضي القطيعة المذهبية إلى أن يمتنع أبناء مذهب من مصاهرة أبناء مذهب آخر , ثم ينتهي التعصب المذهبي الأعمى بفئة من الناس إلى تكفير فئة تنتمي لمذهب آخر وإخراجها من ملة الإسلام بما يشعل فتيل فتنة كبرى في المسلمين كافة ٠ والحقيقة أن أئمة المذاهب أنفسهم يستشهدون باجتهادات بعضهم البعض , وكل إمام جاء ليكمل الآخر تحت غاية واحدة ٠ فهذا هو جوهر كتاب الله الذي يحركهم ويحرك الناس أجمعين ٠ والرسول ذاته كان يبكي حينا , ويضحك حينا , كان يجد حينا , وكان يمازح حينا , إذ لم يكن عليه الصلاة والسلام لابثا في رضى فئة دون غيرها , وما كان ذلك إلا ليرضي اختلاف الناس في طبائعهم حتى يقيهم الفرقة في دينهم فكان تحذيره عليه الصلاة والسلام جليا في قوله : / ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة , الناجية منها واحدة / ٠
وليست الفرقة في حديث النبي في المذاهب والخلافات التي جعلها الله في الناس حكمة , بل هي فرقة الناس عن بعضهم البعض , وفي أصول وثوابت الإيمان ٠ ثمة نص جلي في الصحيحين وكذلك في السنن الأربعة يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم : / افترقت اليهود على إحدى وسبعين

فرقة , وتفرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة , وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة / ٠ والواقع أن الفرقة هي آفة كل دين وكل عقيدة وكل حزب من الأحزاب , الفرقة للفرقة فحسب , الأمر الذي يزجي البعض إلى البدع فيفتي بماليس من الدين في شيء وهو أبعد ما يكون عن الفتيا , وإنما ذلك حتى يجد له موطئ قدم يخالف به رأيا سائدا بغية مزيد من شقاق , وقد نظر النبي في أمر هذه الطائفة المضلة من الناس فوجه صلوات الله وسلامه عليه تحذيره الشديد : / كل محدثة بدعة , وكل بدعة ضلالة , وكل ضلالة في النار / (*)

ثنائيـــة البدع

سننظر إلى تفاصيل البدع التي يبتدعها شيوخ في مريديهم وفي السذّج من الناس , وسنستفيض في شرحنا لهذه الظاهرة التي نحسبها تأكل الدين والناس معا ٠

بداية , إننا لا ندعو إلى إلغاء ثنائية الشيخ والمريد , أو حتى المريد والشيخ في مجتمعاتنا برمتها , أو إلى اقتلاع هذه الثنائية من جذورها ٠ فإذا كانت ثمة نخبة منفتحة وواعية لاتحتاج في أمر دينها إلى رشيد يقودها في طرقات الدجى إلى نور كتاب الله وسنة رسوله , وهي تكتفي بتلقي الدين مصدرَيه : القرآن والسنة ٠ معتمدة في ذلك على جهودها الفردية وتلبث مكتفية بفقه الإمام الأكبر الذي تمذهبت به إن رأت في نفسها ميلا إلى شيء من فقه ٠ لكنها نخبة لا تشكل إلا جزءا يسيرا من سواد مجتمعاتنا التي تطغى عليها حالة الأمية اللغوية والأمية الثقافية , وكذلك تفشي الفقر والجهالة والأمراض الروحية المستعصية في هذه المجتمعات ٠ إذا نحن إزاء فئات لايُستهان بها من السواد تجد صعوبة بالغة لتلقي الدين من مصدرَيه الأساسيين , فلا تجد مناصا من التعلق بجلباب شيخ يقودها بنور فقهه إلى فسحة الإيمان المنورة ٠

---

* نص الحديث ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته : / خير الحديث كتاب الله , وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم , وشر الأمور محدثاتها , وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة / ٠ وأخرج الحافظ البيهقي بلفظ : / أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم / ٠٠ وزاد : / وكل ضلالة في النار / ٠

هذه حقيقة ثابتة في واقعنا وليس من لبيب ينكرها , بيد أن الارتكاز في الحديث يمضي بنا نحو ضرورة التمييز بين شيخين , شيخ يبتغي من مشيخته وجه البارئ , وشيخ يبتغي من مشيخته علوا في الدنيا وإعاثة فساد في البلاد والعباد , إذ تبلغ حدة المشيخة ببعض / شيوخ / في عمق تيه هذه الثنائية المربكة وفي غفلة من المريدين إلى مايشبه ميليشيات عسكرية , وتجنيد بعض الدراويش والسذّج وكذلك بعض النفعيين من عامة المريدين وتسليطهم على القرى والأقاليم النائية الفقيرة , فيغدو الشيخ قائدا لكتيبة أكثر منه شيخا ۰ وهؤلاء الجنود في عرف أدوارهم لايترددون من إطلاق لحاهم , وحمل مسابيح بتسع وتسعين حبة , ومنهم من يرتدي نصف جبة ويضع على رأسه نصف عمامة , ويبخون على ثيابهم بعض العطور الزهيدة الثمن النافذة الصلاحية , وعادة يحملونا في جيوبهم بزجاجات صغيرة بحجم حبة تمر , وكلما يصافحون شخصا يبخون شيئا على كفه في إيحاء منهم بأنه عطر مبارك يحمل رائحة الشيخ ۰ ويحدث أن يكون شيخ آخر قد سلط على ذات القرية جنوده , فيصطدمون مع بعضهم البعض وسط حشد سكان هذه القرية الذين ينقسمون إلى قسمين , وتلبث هذه الفرقة فيهم حتى بعد فض الخلاف وعودة هؤلاء الجنود إلى بيوتهم وأولادهم ۰ إضافة إلى فرقة هؤلاء فيكونوا قد خلّفوا فرقة أشد بين سكان هذه القرية ذاتها حتى لو كانوا من صلب عائلة واحدة , فيمتنع مريدو شيخ من الصلاة في مسجد يتردد إليه مريدو الشيخ الآخر , فيؤثرون الصلاة في بيوتهم على الصلاة في ذات المسجد حتى لا يروا بعضهم البعض , وتأتي المرحلة المتقدمة في الخلاف إلى بناء مسجد مجاور لذات المسجد فقط لمريد شيخ بعينه , ولذلك ترى طلبات بناء مساجد جديدة تنهال على مديريات الأوقاف في قرى لايبلغ عدد سكانها عشرة بيوت وفيها مسجد ۰ فيخرج الأمر هنا من نشر الدعوة إلى الله , وينحصر في نشر الدعوة إلى شعبية ومجد الشيخ على غرار الصراعات العشائرية والقبلية في الجاهلية الأولى على أن يحظى كل شيخ بجماهيرية مريدية أو سع من غريمه مستغلا كل ما يقع عليه من وسائل حتى يبلغ مرحلة يذهب فيها شيخ إلى تكفير شيخ غريم وإخراجه تماما من الملة بغية اكتساب مريديه , وهذا بدوره ينعكس على شرائح المريدين الذين سيتباغضون فيما بينهم وتشتعل فيهم العداوة والبغضاء , فيكفّر كل مريد بدوره مريد الشيخ المضاد , وتلبث الأدوار فيهم إلى التفرغ التام لخدمة الشيوخ تاركين أولادهم عراة حفاة , وتاركين مسؤولياتهم الزوجية وواجباتهم الاجتماعية ناسين نصيبهم من الدنيا وكذلك لايبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة ۰فالشيخ , ثم الشيخ , ثم الشيخ , وويل لمن يمس الشيخ بطرف كلمة ۰ وتتوزع الأدوار فيما بينهم أيهما الأَوْلى بحجم الدور , ويتم

توزيع صور المشايخ عليهم لبيعها في علاّقات وبراويظ كما هو الحال في صور الفنا نين ومعجبيهم ؛ فترى مريدا يحمل على أبواب جامع سلسلة تحمل صور شيخ يبيعها للخارجين من خطبة الجمعة على أن هذه الصور ستحميهم من شر الوسواس الخناس , وتقيهم شر النفاثات في العقد , وشر حاسد إذا حسد , وتقي منازلهم من دخول الجن والأرواح الشريرة التي تتلبس النساء في النفاس ٠ وعلى الأغلب فإن الوجوه التي تبرز من هذه البراويظ تكون محتقنة فاقدة لكل ذرة من نور الإيمان , صارخة بكل عقدة من عقد إنسان الجاهلية الأولى ٠ وهكذا فقد يقع دراويش وسذّج في المصيدة وهم يخرجون من أبواب المساجد فيبتاعون هذه الصور أول الأمر حتى يستدرجهم المريدون الأوائل ويستجيبون لحلبة الصراع فيُعرف كل بيت من بيوتهم بتعليق صورة شيخ في صدر غرفة الضيوف , وهذا هو عنوان تميز رب البيت وولائه لصاحب الصورة ٠ وإذا حدث والتقى مريدان مضادان في أحد البيوت , فإن جل الحديث يمضي على نحو استفزا زي لتفضيل شيخ على آخر , وإظهار مناقب شيخ على الآخر , ولايُذكر اسم الله واسم رسوله مرة من عشر مرات تتردد فيها أسماء وألقاب الشيخين وفتوحاتهما ٠ إن هؤلاء / الملالي / يكونون أكثر إخلاصا لشيوخهم فيؤدون الأدوار المرسومة لهم على أكمل وجه , فصبيحة العيد يُخرجون هؤلاء البسطاء من أهل الفطرة من أهليهم وأولادهم وضيوفهم والذهاب بهم لمعايدة الشيخ الذي قد يبعد عن بعض القرى مسافة ثلاثمائة كم ,ويكون الملا لي قد استأجروا باصات كبيرة منذ المساء للذهاب والإياب ودفعوا أجورها مسبقا على نفقة هؤلاء الذين لايجدون حرجا في وبال أمرهم من الاستدانة حتى لايخلفوا عن الركب وتُسجَل عليهم معصية قد تجعلهم في عزلة عن عامة المريدين أو يُنظر إليهم على أنهم ارتدوا عن طريقة الشيخ , فتراهم ينقادون كقطيع شطر بيت الشيخ ساعة الشفق الأولى بعصا الفتنة العمياء التي يحملها الملالي ٠ وكي لايلتبس الأمر في دواخل هؤلاء الناس فإن الملالي يعتمدون عليهم في الرواتب الشهرية , فكل مريد من سكان أي قرية عليه أن يتحمل جزءا من هذا الراتب سواء بشكل شهري إن كان عاملا مياوما , أو بشكل سنوي إن كان فلاحا يعتمد في دخله على الموسم الزراعي ٠ يحدث هذا بتوجيه مباشر من المشايخ ليجنبوا أنفسهم نفقات هؤلاء الملالي الذين يتكاثرون يوما بعد يوم , فيمكن أن يكون للشيخ الواحد ما يزيد عن ألف مُلا ينتشرون في القرى والمزارع والنواحي والمناطق وكل واحد يكون قد استلم جامعا في مسكنه ٠ فترى الملالي يقنعون المريدين بأن ما يدفعوه من قوت عيالهم إنما هو بمثابة قرض لهم على الله لأن هذا الملا في حقيقة الأمر هو رسول مجهول من رسل الله جاء ليخرجهم من الضلالة إلى الهدى , وأنهم

غدا سوف يجدون هذه التبرعات بين يدي الله ساعة الحشر , فهم يجاهدون بأموالهم في سبيل نصرة كلمة الشيخ الذي شاء الله له أن يرث النبي , فتسري الحيلة عليهم وبناء على هذا التصديق يجعلون أنفسهم عرضة للضيق حتى يقرضوا ربهم هذا القرض الحسن , أو تتراكم على مريد مسكين ديون الملا من شهر إلى شهر , ومن سنة إلى سنة حتى يسددها دفعة واحدة من مهر ابنته أو من فرصة عمل أو من حاجة من حوائج الدنيا ٠ وهؤلاء الملالي على قدر نجاحهم في زرع هذه الحيل والأوهام في دواخل سكان القرى والأقاليم النائية , على قدر مايغدق عليهم الشيوخ من هبات وعطايا وقربات , فيمكن أن يصطحب الملا النشط شيخه إلى الحج وإلى ولائم عديدة أو السفر إلى الخارج للترفيه , ويمكن أن يرفع الشيخ مرتبة الملا من عامل في قرية إلى عامل في حي شعبي في مدينة , أو يغدو رجلا مرافقا يرافق الشيخ في حله وترحاله , أو سائقا خاصا للشيخ , أو حارسا على بيته أو مزرعته , أو إحدى مصالحه , أو يمنحه وعائلته ضمانا صحيا أبديا وراتبا تقاعديا على غرار الأعضاء العاملين في الخلايا الحزبية الذين يروجون لزعيم حزبهم ٠ فتراهم يجتهدون في أدوارهم ويرسلون تقارير شهرية مفصلة عن نشاطهم وأعداد المريدين والطوارئ التي طرأت عليهم , فلهؤلاء الملالي آذان وعيون في كل المساجد / المعادية / , كون المريد المعروف سيثير شبهة بدخوله إلى مسجد شيخ مضاد , فيسعى الملا لاكتساب مخبر من مريدي الشيخ المضاد أو يدس مريدا جديدا من مريديه يغدو مخبرا ينقل له كل ما يدور في ذاك المسجد , وهؤلاء يتصيدون ما يُقال في الجمع وفي دروس بعد الصلاة في مساجد الشيخ الخصم , وقد ينجحوا إضافة لمهمتهم في استجرار مريد من مريديه فيكسبوه إلى صفهم ٠ ثم تنفرز خلايا متفرعة من هؤلاء / العملاء / تقلّد الملالي في اصطياد المساكين وهذه الخلايا تطلق على نفسها لقب / سيّد / ينمو هذا الرجل ويترعرع في أكثر الأحياء الشعبية فاقة وتخلفا , ويكمن دوره في إحياء / الموالد / والتواجد في خيم عزاء وتخويف الناس من الحسد والسحر والأرواح الشريرة , ونفاذ البركة من الأموال , وموت الأجنة في بطون النساء , والعقم ٠ وبعد هذا السرد يعقبه بسرد عن فتوحاته الشخصية ومنجزاته في التصدي لهذه المعوقات في محاولة ذكية لترويج هذه المفاهيم وترسيخها في نفوس المستمعين مستندا على نصوص دينية يقوم بتفسيرها وفق خطته من جهة , ومن جهة أخرى عارضا مساعدته وكأن الله خصه وأرسله لهذه المعالجات , فينجح في استقطاب أوسع شريحة من أوساط الناس في مناسبات كهذه ٠

وقد يحدث أن يصطدم سيّد طريقة شيخ بسيّد طريقة شيخ آخر في ذات المناسبة فيكيل الواحد عبارات التقزيم والإدانة والمؤاخذة للآخر اقتداء بفئة

من التجار الذين يُنقصون من شأن بضاعات بعضهم البعض والذين قال فيهم النبي عليه الصلاة والسلام : / يُحشر التجار مع الفجار / ٠ أما تجارنا هؤلاء فهم تجار الرقى الذين يسلبون البسطاء من ذوي الفطرة أموالهم وأعمارهم , ويتاجرون بكلمات الله ببيعها لعباده بثمن بخس , زيادة على أنهم يجعلون العباد في دوامة من أمرهم , فمن هؤلاء مَنْ اختص بربط شخص , ومنهم من اختص بفك عقدة هذا الشخص ٠ فلايجد هذا الكائن نفسه إلا دائرا في دوامتَي الرابط والفاك , فيكون لقمة سائغة في فكَي الاثنين , كل واحد ينهشه من موضع , ويمكن أن ينتهي هذا الرجل إلى نوع من الهلوسة أو الهستيريا , أو حتى الجريمة في بعض المراحل الحادة في تعامله مع هؤلاء فينتهي حتى عن إقامة شعائر دينه ٠

*   *   *

في أثناء بحثنا عن تفرعات وتفاصيل هذه الفتنة المؤججة في شرائح الناس الذين يقيمون في الأحياء والقرى والمناطق والنواحي النائية , نقع على تاجر رقية اكتسب شهرة واسعة في إبطال مفعول رقية تاجر آخر , وبذات الوقت يعطي رقية غير قابلة لإبطال مفعولها ٠ وعلى هذا النحو من الترويج والدعاية في ولائم ومناسبات العامة نجد فئة تنتقل من سيّد إلى غيره , من رقية إلى رقية ٠ ولعل النسوة يشكلن غالبية هذه الفئة , ولا يخلو الأمر من نتائج سلبية في الأعراض التي يمكن لها أن تُستباح من قبل هؤلاء الذين يأكلون في عمود الدين كما تنهش الدودة في شجرتها ٠ فهؤلاء يستقبلون النسوة في خلوة ضمن حجرة محكمة , ويعطون انطباعا للناس بأن الخلوة التي حظر منها نبي الأمة صلى الله عليه وسلم بين الرجل والمرأة الأجنبية والتي يكون فيها الشيطان ثالث اثنين لا تعنيهم بشيء لأنهم يقضون حاجة دينية في طقس خاشع من عبادة محكمة , وهم حالات استثنائية مباركة من بني البشر يقومون بأعمال إعجازية عظيمة يجوز لهم فيها ما لا يجوز لغيرهم , فترى نسوة يصدقن ذلك ويبحن لأنفسهن الخلوة بهذا الرجل وكأنه ولي حميم هبط للتو من سابع سماء ويعود إلى سمائه بعد سبعة أيام فحسب من هبوطه ٠

وهنا لابأس أن أذكر حادثة رواها أحد المقرّبين من هؤلاء الأسياد - والعهدة على الراوي – أن أحد الأسياد في ناحيته وكان قد عُرف بالنظر في أمر المرأة العاقر وقد اكتسب شهرة ومالا جراء عمله الطويل , توصل إلى حيلة بالغة الذكاء في اصطياد ضحاياه من النسوة اللاتي يُعجب بجمالهن , فقد علّق هذا الرجل سروالا نسائيا على علاّ قة بالقرب من مجلس المرأة العاقر

التي تلج عليه وتبرك في الركن المخصص لها خلال جلسة العلاج التي قد تستغرق ساعتين متواصلتين , وتكون قد تركت أختها أو قريبتها أو حتى زوجها في غرفة منفصلة من البيت ذاته ٠ فإذا أعجب حسنها السيد ونوى عليها , يحكم الباب جيدا , و يمهد بحديث ممزوج بأدعية وصلوات وبخور وتسخين ماء , ثم مايلبث أن يقول لها : أنزلي السروال يا امرأة ٠ فإن أنزلت سروالها كان ذلك له في ذاك الطقس المكتظ بالبخور والروائح التي توحي لفئة من النسوة بأن ذلك من مستلزمات العلاج ولابأس به , فولي الله الحميم هذا هو أعلم منها بحدود الله , وقد يحمل ترخيصا إلهيا بذلك على أن تُبقي ذلك طي الكتمان ٠ أما إذا نطت على قدميها معبرة عن غيظها من تماديه ووجهت إليه تهديدا مباشرا بأنها سوف تعرف كيف تنتقم من سوء أخلاقه معها , فإنه يتظاهر بكل ما يمتلك من حكمة ويلبث يهدئها متمسكا بما لديه من ضبط نفس ومحتملا شتائمها وربما بصاقها إلى أن يستغفر الله من الشيطان الرجيم الذي يبدو أنه : / سكن أعماقك أيتها المرأة السيئة الظن , فقطع عنك حتى الضنى / ثم يردد المعوذتين وسورة الإخلاص , ويقيم بحركات توحي للمرأة بأنه يستعين بالجن لإخراج ظن الشيطان من أعماقها .
فتبهت المرأة محدقة فيه في تلك الأجواء التي توحي لها بأن الملائكة ترفرف فيه بأجنحة من نور ٠ وبعد هنيهات يوجه إلى المرأة شيئا من التوبيخ الذي يبدأ لينا , ثم يتصاعد في حدته لسوء ظنها بهذا الكائن النوراني الذي يقدم لها خدمة جليلة , وفي ذروة بهتان المرأة يدعوها إلى العودة للجلوس في موضعها , ثم يصرخ بها أن تلتفت إلى السروال النسائي المعلق جوارها وتمد يدها فتنزله من تعلقه بالعلاقة إلى الأرض , كون ذلك جزء من العلاج الذي من شأنه أن يُذهب العقر المعلّق بها , وهذا السروال إنما هو لامرأة كانت عاقرا فشُفيت من عقرها على يديه , وهو سروال مبارك لابد أن تمسه كل امرأة تود أن يذهب منها العقر ٠ فلا تجد المرأة بدا من الاعتذار الشديد إليه على سوء ظنها الذي لاشك أن الشيطان الرجيم قد بثه في نفسها لترتاب بالسيد الحجة , وكذلك بسبب كثرة أولاد الحرام واختلاط الحابل بالنابل , ثم لاتترك ظن السوء يتسرب إليها بأي حركة أخرى يقوم بها السيد بعد ذلك وتترك جسدها كدمية بين يديه ٠
وإن كنا قد تعرضنا إلى هذا الفرع المتفرع من فتنة الشيخ والمريد والذي يسود في الناس أولئك , فإننا سننهيه إنشاء الله ببعض توجيهات رب العزة التي تبيّن للناس حقائق وخفايا الأمور , وكذلك سننظر حولا في أحاديث المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه الواردة عنه للتصدي لمثل هكذا نماذج تتفشى في مجتمعات منذ صدر الإسلام ٠

فقد نظر البارئ المصور في أمر السحرة وخصهم بآيات مباركات من كتابه العزيز لما لخطورتهم في أهل الفطرة فقال جل شأنه في الساحر مبينا بطلان ما هو فيه , وعدم فلاحه في تقديم نفع أومضرة للناس : / ولايفلح الساحر حيث أتى / ١ ٠ وفي هذا بيان إلهي بأن الفلاح لايقع في يدَ ي ساحر ٠ ثم بيّن جل وعلى أن أي مخلوق كائنا من كان لايستطيع أن يؤذي أو ينفع إلا بما شاء وكتب الله وذلك في قوله الجلي بإذنه : / وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب من يشاء من عباده / ٢ ٠ وأصبح التصدي لهؤلاء جزءا من شغل النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم الذي رأى أنهم يفسدون على الناس عباداتهم , فحذر المؤمنين من اللجوء إلى أوكار السحرة , فقد روى جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن/ النشرة/ فقال : / هي من عمل الشيطان / والنشرة معناها فك السحر من المسحور , والله أعلم ٠ وهذا الحديث بذاته يتضمن النهي النبوي من اللجوء إلى أهل السحر تحت أي ذريعة كانت , ومهما أوتي هذا الساحر من سمعة ومن ملكات فلاشيء يبرر لجوء إنسان مؤمن بكتاب الله إليه ٠
روى مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : / مَنْ آتى عرافا فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين يوما / وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : / من آتى كاهنا فصدقه بما يقول , فقد كفر بما أ ُ نزل على محمد / ٣ ٠ وعن عمران بن حصين قال , قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : / ليس من من تطيَّر أو تُطيِّر , أو تَكهَّن أو تُكهِّن له , أو سَحر أو سُحر له , ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد / ٤ ٠ لم تكن هذه التوجيهات إلا لاجتناب الناس من حالات الابتزاز التي يتعرضون لها على أيدي السحرة , وهذا البيان الإلهي يعبر عن حرص الله جل شأنه على عباده من بعضهم البعض , وهو في واقع الأمر في غنى من أن يوجههم وليس لهم عليه أمر التوجيه أو حق العناية , فيكفي الإنسان رحمة أن الله قد رزقه نعمتَي الحياة والعقل , وأنه قد حُظي بخلق الله له ليكون كائنا بشريا موجودا من عدم , بيد أن الله تبارك وتعالى شاء أن يكون أكثر قربا من الأرض وشاء أن يسكن عباده في أرضهم هذه ليكون الأقرب إليهم من حبل الوريد , وليكون الأقرب إليهم من ذواتهم : / وفي أنفسكم أفلا تعلمون / ٠ فيقول الله لعباده وهو فيهم : / وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون مايضرهم ولاينفعهم / ٠ ونحن نمضي في صفحات كتاب النبي نرى التوجيه إلى الله في أمور الناس الشتى , فمَن ينهى عن أمر ويقول ببطلانه , يقدم في الوقت آنه العلاج الحق كمنقذ من الضلال إلى الهدى , فوجّه النبي أمته قائلا : مَنْ قرأ آية الكرسي في ليلة لم يزل عليه

من الله حافظ ولايقربه شيطان حتى يصبح / ٠ وصح عنه عليه الصلاة والسلام قوله : / من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه / ٠ وقال صلى الله عليه وسلم : / من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ٠ لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك / ٠ وفي كل هذا يأتي خطاب الله جليا إلى الناس بأنه هو الذي يصغي إليهم وهو الذي يزيح عنهم الكرب وهو الذي يحلل عقد ألسنتهم ويجعل لهم من لدنه وليا نصيرا : / وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم / ٠٥ هذه قناديل إلهية مباركة تنير أمام الإنسان التائه السبيل إلى نور وسكينة وشفاء ربه , وكذلك تجنبه السحرة الذين في واقع الأمر يعتمدون في سحرهم على الشيطان والجن والشرك ٠ وقد رأينا في بعض دروس الحافظ بن حجر – رحمه الله – أربعة أصناف من السحر هـــي :

١ – الاستمالة والخداع , وهو النوع الوارد في قوله تعالى على لسان الكافرين : / بل نحن قوم مسحورون / ٦ ٠ وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم : / إن من البيان لسحرا / ٠

٢ – الشعوذة , وتدخل فيها التخييلات وخفة يد المشعوذ , وهو النوع المشار إليه في قصة موسى عليه السلام مع سحرة فرعون : / يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ٧ ٠

٣ – استخدام الشياطين في الإ تيان بالخوارق : / وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر / ٠٨

٤ – استخدام الطلاسم والأدعية الشركية ومخاطبة الكواكب ٠

*　　　*　　　*

نظرنا كيف أن الشيخ يفرز / المُلا / والملا يفرز / السيّد / ولكن يبقى الشيخ هو الواجهة الأولى الكبرى , والسند الأوحد الذي تنتسب إليه هذه الأعمال ٠
هنا لسوف نستأنف بحثنا في هذه الثنائية بجولات ميدانية أخرى تجعلنا أكثر قربا من هذه الطقوس والأجواء نحو سيرنا لاستكمال معظم الحلقات المتشابكة ببعضها , من الحلقة الأقوى إلى الحلقة الأضعف ٠
فعندما ينتاب الشيخ بعض جمود في الحراك وتسليط الأضواء عليه , ويلمس برودا من مريديه بسبب سوء المعيشة , وضيق اليد , فإنه يتدخل بغاية من العجالة وعدم التردد ويدعو جميع ملاليه لاجتماع طارئ موبخا إياهم ومعاقبا البعض على هذا الركود في أوساط المريدين , فيدافع الملالي عن أنفسهم بأن

الناس يبحثون عن لقمة العيش , الأمر الذي جعل حالة الركود المريدي عامة في الناس أجمعين سواء كانوا مريدين أوغير مريدين ٠
يقف الشيخ برهة , ثم يخبرهم بأن الله تبارك وتعالى من عليائه قد ألهمه هذه الهنيهة دواعي إعادة الحيوية في أوساط مريديه دون غيرهم , ويلبث يشرح لهم فكرة بناء مساجد في قرى وأحياء شعبية نائية ٠ وبطبيعة الحال فإن مثل هذا المشروع لايمكّنه من إيقاع عصفورين فقط بحجرة , بل بإيقاع إبلين بها , فمن جهة أنه سوف يوظف مجموعة هائلة من المريدين وأولادهم وأولاد أولادهم الذين سوف يباشرون في هذا المشروع فيحملون بطاقات بأياديهم ويجوبون بها على البيوت والأسواق والمحال كافة , وهي بطاقات توحي لبعض دافعي مثل هذه الضرائب بأنها إشعارات لسوف تؤهلهم لدخول جنة رضوان , يُكتب على الواحدة اسم الدافع ثلاثيا واسم والدته , ويدوَّن عليها عنوانه المفصل وقيمة الدفع وتاريخه مفصلا والرقم التسلسلي للبطاقة حتى يقف في دوره على باب الجنة وهو يحمل بيمناه بطاقته الخضراء تلك ٠ وترى البعض يحتفظ بهذه البطاقات في أماكن طاهرة أمينة وكأنها صفحة من مصحف , ومنهم مَنْ يوصي أن تُدفن هذه البطاقات معه عندما يبلغ مثواه الأخير ٠
وحسب توجيهات الشيخ فإن هؤلاء لايطرقون أبواب العباد إلا أوقات القيلولة حتى يضمنوا وجود أكبر شريحة من الناس في بيوتهم , فيطرقون الأبواب جميعا دون استثناء , وإن صدف وكان البيت لأحد أبناء أهل الكتاب , فيقول له الطارق : / إني أبحث لبناء بيت لله الواحد , وإنه ربكم وربنا ولانعبد في بيته سواه / ٠ ويتسربون كالجراد في اقتحام بيوت العباد في هذا الوقت الأكثر إزعاجا بالنسبة للناس أجمعين صغارا وكبارا , ويبثون في الناس بأنهم جنود مجندة في سبيل الله بحثا عن صدقة جارية يبنون له بيتا بها , وإن لمسوا بعض امتعاض من شخص أفسدوا عليه قيلولته , أو أنه صفق الباب في وجوههم باستياء , فإنهم لايترددون من إلصاق تهمة إلحادية به مرددين وهم يطرقون الباب الذي يليه : / لوأنته بغي لملأ جيوبها مالا ٠٠ إنه قواد عرفناه من عينيه الزانيتين / ٠ وفي نهاية المدة المحددة لهذه الغاية يأتون بما جمعوا فيضعوه في يد الملا الذي هو الوكيل الشرعي الشفوي للشيخ الأكبر , فيعطيهم أتعابهم سواء بموجب نسبة مئوية مما جمعوا وفق أرقام تسلسل البطاقات , أو مبلغا قطعيا بحسب الاتفاق الشفوي المبرم بينهم ٠ فيعطيه الشيخ الضوء الأخضر للشروع بوضع حجر أساس للمشروع الجديد في موضع يراه مناسبا , وينفتح باب جديد للرزق يمتد سنوات طويلة , وهو بذاته يسهم في بقاء فترة أطول على رأس مشيخته , فترى جامعا يستغرق بناؤه عشر سنوات , في كل سنة يُبنى جزء منه فيستفيد منه البناءون

والنجارون والمزرقون والدهانون , ومختلف شرائح العمال من عتالين وكهربائيين ومممددي تمديدات صحية ٠ شريطة أن يكونوا حصرا من مريدي الشيخ مبتدع فكرة المشروع , كم يمكن بهذا العمل اكتساب أعداد هائلة من مريدين عاطلين عن العمل وسحبهم من تحت قبة شيخ خامل يعجز أن يوفر لمريديه فرص عمل ٠
ولايخلو الأمر أن نسمع في تطوافنا بهذه القرى بعض عبارات تشبه النكات تصدر من شخص شاء أن ينتقد هؤلاء فيقول : ليس كل بناء تقبب قبة هو بيت لله , ليس كل من أطلق لحية هو متصوف لله , ليس كل من حمل بيده مسبحة تكون لله , ليس كل من وضع عمامة في رأسه هي عمامة لله ؛ ويكمل هذا الشخص حديثه قائلا : فكم من منزل ليس به قبة لكنه منزل دافئ بنور الله , وكم من رجل ليس به لحية , لكنه جند من جنود الله , وكم من رجل لايحمل بيده مسبحة , لكنه يسبّح في سره وعلانيته لله , وكم من رجل لاعمامة في رأسه لكنه إمام من أئمة الله في أرضه ٠
ويقودنا هذا الشخص إلى هذا / الجامع / فنراه جامعا في هيأته , لكنه فارق في مضمونه , فهو لايستقبل غير مريدي شيخ بعينه, ولايُصلى فيه إلا على أموات مريديه , بل لايُغسل فيه ميت دون مريديه , و حتى في أحوال طارئة فإن الملا يماطل في فتح أبوابه المقفولة لأن هذا الميت لم يكن يسهم في دفع راتبه الشهري , فيزيد سكان القرية خصاما وفرقة وبغضاء , ثم تُحاك مؤامرات العداوة والبغضاء على مريدي الجامع المجاور الذي يقع على قرب خطوات معدودة ٠
إنهم يوحون بعملهم هذا أن مالك السموات والأرض وواهب الأملاك والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث , بات دون مأوى ويطرق أبواب الناس في تلك الأوقات المحرجة كي يتعطفوا عليه بدرهم حتى يبني له مسكنا ٠
ثنائية الشيخ والمريد هي غاية في الغنى بشتى الفروع والاتجاهات , وقد أمضينا وقتا غاية في الدهشة بهذا البحث فوقفنا على ألوان وأقوام من الناس وكأنهم يمضون في كوكب آخر لاعلاقة لهم من قريب أو بعيد بكوكب الأرض ٠
إذن سنلج الآن إلى خلية جديدة من خلايا هذه الثنائية الغنية , وهي خلية مؤلفة من مجموعة متصوفين مهمتها الترويج لمعجزات الشيخ الأكبر , والتركيز على المعجزات الأكثر إعجازا , فتعتمد في مهامها على تشكيل تنظيم ديني صغير يتألف من عتالين , ومستخدمي مستوصفات صحية ومدارس , وعمال تنظيفات , وماسحي أحذية , وبائعي مازوت على طنابر , وبعض الغجر ٠ وهؤلاء

جميعا يرتدون يومَي الأحد والخميس من كل أسبوع جلابيب بيضاء , ويحملون بأكفهم مسابيح طويلة بتسع وتسعين خرزة , ويتجهون مساء بدراجات نارية ذات ثلاث عجلات و عجلتين وطنابر وسيارات منسخة ماعادت تصلح للركوب ٠ فتجتمع كل هذه الآليات أمام بيت / الصوفي / الذي هو ممثل من الدرجة الثانية للشيخ الأكبر , فيتخذون من المعازف والدفوف وسيلة للتعبير عن ولائهم للشيخ ونشر معجزاته الخارقة , وفي أثناء ترديد المديح والأشعار ترى البعض ينجذب , وتغدو حاله كحال الثمل الذي فقد وعيه , وفي ذروة حالة الانجذاب التي ركبته , تراه يهرع إلى سيف , أو إلى خنجر معلق -أيهما أقرب من متناول يده – في لوحة السيوف والخناجر المعلقة بصدر غرفة الجذب المخصصة والمجهزة بعناية لهذه الغاية , ووسط أنظار هؤلاء الذين يرفعون أناشيد المديح , يروح المجذوب ويوحي للناظرين بأنه يطعن بطنه وهو ينادي : مدد ٠٠ مدد ٠٠ ياشيخي ٠ ولايخلو الأمر من تلصص بعض أطفال سواء من أهل البيت أو من بيوت الحارة وبعض الحارات المجاورة الذين حفظوا هذه المواعيد فيصابون بأمراض وعاهات نفسية تلازمهم لأمد طويل ٠ وأحيانا يحد ث تبارز حاد بين مجذوبَين في مشهد غاية في الإثارة والدموية والعنف في غرفة محكمة جدرانها مكسوة بصور أشخاص فُقد نور الإنسان من وجو ههم , بين كاشف لعورته وهو يوحي بطعن بطنه بخنجر , وشاهر سيف , ومنظر يوحي بذبح كائن بشري , ومنظر يوحي بغرز سيخ في وجه ٠ أما الشيخ فإنه يحضر فقط في المناسبات , كالعيدَين , ويوم عرفة , ويوم المولد النبوي , ويوم رأس السنة الهجرية , وليلة الإسراء والمعراج ٠ وهي مناسبات يمكن أن تُقام فيها مثل هذه الأماسي بصورة استثنائية , فيدور الشيخ على البيوت التي تُحيي هذه المعازف ويبارك لها عملها المجيد في بسيل الله ونشر رسالة الإسلام ٠

*　　　*　　　*

في خاتمة بحثنا رأينا أن ننظر في بعض ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في البدع والمحدثات , على أن ننظر بشيء من التفصيل الاسترسال في سيكولوجية الشيخ وجوهر العلاقة بينه وبين المريدين , فنلقي الضوء في على جوانب من حياته الشخصية ٠ فقد وجدنا في سيرة النبي أنه حذر أمته من المحدثات على شكل وصية للناس , فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب , وذرفت منها العيون , فقلنا : يارسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصنا ,

قال : أوصيكم بتقوى الله , والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد , وأنه من يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا , فعليكم بسنتي وستة الخلفاء الراشدين المهديين , عضّوا علها بالنواجذ , وإياكم ومحدثات الأمور , فإن كل بدعة ضلالة / ٩ ٠ فقد وجه النبي صلوات الله وسلامه عليه أمته إلى أمته إلى تجنب البدع التي يأتي بها الناس من بعده ٠ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم بقول : / ما نهيتكم عنه فاجتنبوه , وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم / ١٠ ٠ وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : / من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد / ١١ ٠

هاهنا قد يتبادر إلى الأذهان بأن الدين حكم بجمود التفكير على الناس وحرمهم من الاكتشاف والإبداع , وإذا أعدنا النظر في كتاب الله سنرى أنه يقدم الإيضاح لذلك فيقول بأن الإنسان كائن محكوم بالبحث والاكتشاف والإبداع مع كل ساعة في عمره , ويحض هذا الكتاب المبارك الإنسان على عدم الجمود , فلم يطل الله في عمر الإنسان ليقول ماقيل من قبل وليشاهد ما شوهد من قبل , بل ليكتشف ما لم يُكتشف , وليقول ما لم يُقل , وليأتي بما لم يؤت من قبل ٠ وأمام هذا الحض نحو العمل والتجديد والاكتشاف فقد أبدع الإنسان وارتقى وتقدم في مجالات العلوم كافة , فقد اكتشف الكواكب التي لم يكن يعرفها أجداده , واخترع وسائط النقل والتكنولوجيا , والسكن , والنظافة , والعلاج بكافة التفرعات المذهلة وهو داخل دينه , بل فإن تقديم هذه الأعمال النافعة للناس هي عبادة لله ٠ فالإبداع في الدين ليس أن تسحر عبدا , أوتنتجذب فتوحي للناس بأنك تطعن نفسك , وتجعل الفرقة والبغضاء في المساجد , وتغسل أدمغة الطلبة ليكونوا قنابل بشرية , وتدعي مخاطبة الموتى , وعودة الأرواح ٠ فقد أوضح الدين بطلان هذه التصرفات , وإلا فهل يملك هذا الشخص أن يجري له طبيب عملية جراحية دون تخدير , وهل يملك إذا اعتدى عليه شخص بالضرب ألاّ يتألم ويدخل المشفى ويستخدم أدوية مخففة للألم ,

وهل يملك ألاّ يُصاب في حادث سير ٠

يمكن الآن أن ننظر شيئا في سيكولوجية الشيخ الذي هو رأس هذه التفرعات وقد شئنا أن نعيش برفقة بعض شيوخ وفي قراهم أياما طويلة فكنا شهود عيان على ما يمكن أن تنفعنا روايته ٠ فرأينا كيف أن الشيخ يوظف مريديه من مختلف مواقعهم وتصنيفاتهم من فقهاء وملالي , وسيّاد , وصوافي ، وسواد للترويج لفتوحاته وفتوحات أجداده المباركة , فترى مريدا يقول في جمع من الناس : رأيت بأم عيني أن شخصا لاأريد ذكر اسمه قد سب الشيخ

, وبعد هنيهات معدودة اعوج فمه , فأسعفناه إلى الشيخ ليلتمس منه العفو والسماح , فعفا عنه شيخنا بقلبه الكبير وسعة إيمانه , ونفخ على فيه , ثم بصق في موضع الأعوجاج فعاد أنضر مما كان ٠
ويعقبه آخر : ليلة البارحة زاغني نزغ من الشيطان فلبثتُ أتقلب في فرشتي دون أن أتمكن من نوم , وخمنت ُ أنني ميت لامحالة , فاستغثت بشيخي الكبير عليه رضوان الله قائلا بسري : ياشيخي وقرة عيني , أنا مريدك فلان ابن فلانة , قد أمضيت عمري في خدمتك وفلاحة أرضك ورعي أغنامك وصب الماء على يديك , ووضع الحذاء أمام قدميك , فأعنّي على طرد الشيطان والوسواس الخناس من صدري , وأقر نفسي , وأن عيني , إنك مجيب دعوات مريريك ٠ أقسم لكم ياجماعة بقبر الشيخ الكبير الخالد وبرأس ولده شيخنا الحالي إمامنا وحبيبنا وأسوتنا ومخلصنا وبتربة المر قد المبارك , لاأدري كيف غرتُ في سبات عميق طال بي يوما ونصف اليوم ٠ فنهضت بعده وكأن قوة عشرين رجا بُثت في بدني ٠
ويردف من يبرك حده : كنت منذ سنوات في رعاء أغنام شيخي - مد الله في عمره – ولما حلت ساعة العصرية رأيتني أشتهي خبزا ساخنا مع عسل , فقلت في نفسي : ياصوفي , أتختبر معجزات شيخك بعد هذه الخدمة الطويلة في رعاء أغنامه وقد حنّ عليك وزوّجك وأسكنك وأطعمك وكساك , استح من شيبة ذقنك ياصوفي ٠
لكن النفس أمارة بالسوء ياجماعة , فتماديتُ في شهيتي ورجوت شيخي وقرة عيني أن يحقق معجزة في هذه اللحظات حتى أكون أكثر إيمانا به ويطمئن قلبي , وما أزال حتى الآن أسأل شيخي السماح , وقد أنبأته بما وقع فعفا عني , أجل لقد تماديت في شهيتي وسألت شيخي الذي كان مسافرا لنشر الدعوة خارج القرية ألا يخيب رجائي ٠ ولم تمض بريهات على ذلك حتى وجدتني أغفو قليلا , وأفتح عيني لأرى رغيفا ساخنا من خبز التنور إلى جانب صحن عسل على سفرة أمامي , فعرفت آنذاك أن شيخي قد سمع نداء مريده واستجاب له , فشرعت في الأكل شاكرا شيخي مع كل لقمة طيبة , ولا أظن أنه كان عسل الدنيا , ولا أظن الرغيف إلا وقد جاء من تنور في الجنه خبزته الملائكة , فما يزال الطعم تحت لساني ولم أذق طعم الأكل مدة سنة كاملة بعد ذلك , وكلما تقول لي أم العيال : ألست جائعا ياصوفي ؟ !
أقول : لقد أطعمني شيخي من خبز وعسل الجنة فلا يقربني جوع ٠ ثم يبتسم مردفا : ولا أخفيكم ياجماعة أن قوة غريبة دبت في بدني دفعتني لفراش أم العيال ثلاث مرات في الليلة الواحدة وأنا في الستين من عمري ولم يكن ذلك يرويني فتهرب أم العيال بعد منتصف الليل إلى غرفة العيال تاركة نفسي في اشتعال , وكان ذلك سبب زواجي الثاني بعد ثلاثة شهور ,

فقد أخبرت شيخي بأمري وأمر حرمتي معي فأمر بزواجي بإحدى مريداته الأرامل اللواتي يعشن في خدمة حرمه المصون ٠
ونعثر على فئة من الناس تميل إلى ذلك من تلقاء نفسها في مناسبات الناس بغية التقرب إلى شيخ والظفر برضاه , ومنهم من يتلقى حديثا من أحد المقربين إلى شيخ فيذهب ويروّج قائلا بأن الواقعة جرت معه كذلك في ذات اليوم ٠ فترى الناس يقبلون على الشيخ من كل حدب وصوب , وينهالون بالقبلات على يديه وقدميه , ويتبركوا بحذائه وجرابه والركن الذي يركنه والتراب الذي يمشي عليه , وهو سراج منير , ورسول من رسل الرحمة المهداة من الدرجة الاستثنائية لهدي البشرية في آخر الزمان ٠
أما عندما يمضي في طرقات منطقته , فيكون محفوفا بالمريدين وبرجاله الذين يزيحون الناس من الإقبال على يديه وكتفيه وقدميه والتبرك بنعمة لمسة تاريخية منه , وشم رائحة الجنة من بدنه الطاهر ٠ فتترك الأم وليدها , ويترك العامل عمله , ويهرب الولدان من مدارسهم , يلتمون حول الموضع الذي يُشتبه أن يحل فيه , ليظفروا ولو بنظرة تاريخية خاطفة إليه عسى تلك النظرة تقي عيونهم النار لأنها تبركت بهيئة الشيخ المباركة ذات لمحة , فيروون طوال العمر كيف أنهم رأ وه بأم أعينهم , وقد تسنى لي أن أرى كيف أن اللهفة دفعت بعض مريدين للجري خلف سيارة شيخه لمسافات طويلة والنباح خلفه ٠ وعندما تغيب سيارة الشيخ التي لاتقف عليه ويعود هذا المريد لاهثا , لايتردد من أن يتباهى قائلا : وأي محظوظ أنا حتى أكون كلب شيخي فأكون إلى جواره كلبا أسليه بنباحي ٠

هذا النموذج من الشيوخ ينمو ويترعرع وسط بيئات غارقة في التخلف والجهالة والفاقة , فيكون شخصا مميزا بوجاهته وماله ونفوذه ومريديه , وحتى بمسكنه الذي يكون قصرا كلاسيكيا على الأغلب , وهو يتجنب ما أمكن السكن في قلب المدينة التي يتبع لها , بيد أنه في ذات الوقت يملك قصورا في مدن ودول أخرى خارج موطنه ويقضي فيها شهور عسله مع حليلاته الفتيات الجديدات اللواتي يصبحن بدورهن أمهات صغيرات للمريدين كافة ٠ فالشيخ يتخذ لنفسه مسكنا أصليا على الأغلب في القرى أو المناطق الفقيرة , فهو يقطن بيوتا أنيقة باهظة التكاليف وسط قرية فقير يعلني أهلوها العري والجوع والسؤال , ويتجنب السكن بين أناس يقطنون مساكن أفضل من مسكنه , أو يمتلكون ثروات تفوق ثروته , أو يقودون سيارات أجود من سيارته , أو يتناولون طعاما أطيب من طعامه , أو يلبسون ثيابا أثمن من ثيابه , أو ينكحون نساء أجمل من نسائه , أو يتمتعون بوجاهة أكثر من وجاهته , فهاهو الشيخ يمشي في طرقات قريته محفوفا بمريدين

أتوا من كل حدب وصوب يتجاوز أعدادهم الآلاف من البشر ٠٠ هاه الشيخ يمضي في طرقات قريته ونوره بين يديه ينهض له كل جالس ويخرج كل داخل محل وكأن على رأسه طير ٠
وقد يبلغ التنافر بين شيوخ حدا يفتح فيه شيخ بالغ الثراء معهدا شرعيا لإضفاء غطاء إسلامي على واجهة نشاطه , الأمر الذي يجعله كذلك سيدا و/ أستاذا / على هؤلاء الطلبة الذيم سيدينون له , ولايخلو الأمر من أن يجد فرصة ثمينة لانتقاء فتاة جميلة بين طلبة معهده الشرعي فينكحها على سنة الله ورسوله ٠
هؤلاء عادة لايجدون موضعا لسكناهم أنسب من أوساط المريدين أنفسهم في المناطق النائية البعيدة عن إشعاع الوعي , ويسعون ما أمكنهم إلى وضع حظر ديني على وسائل الوعي , كأجهزة الرائي , والصحف , والكتب الأدبية ٠
ولا ينتهي الأمر بموت الشيخ , بل أن موته يضفي إليه قداسة إضافية بعد أن يتولى مكانته ولي عهده الأمين , وهنا يمكن أن تحدث شروخ في المشيخة عندما يرى ولد من أولاده أحقية الخلافة له وإن كان أصغر سنا من أخيه , فينشق هذا الأخ ويكفّر طريقة أخيه في المشيخه محافظا على نهج أبيه في ذات الوقت ٠ وبوفاة الأب ينضم رفاته إلى / المرقد المقدس / إلى جانب أجداده الشيوخ , وهو مرقد لايقربه إلا المطهرون , ويمكن أن نسمع أساطير عديدة عن هذا المرقد , وقد تسنى لي أن أستمع لنسوة بزرن المرقد صبيحة جمعة ويعتبرن ذلك من العبادة والقربات إلى الله , يقلن بأن الشيخ الجد يرى كل داخل إلى مرقده , ويسمع كل صوت يُقال , وعندما يستعصي أمر على الشيخ الحفيد , فإنه يتجه قبيل الفجر إلى المرقد ويعرض الأمر على جده الذي لم يكن رآه من قبل , فيوجهه بتعليماته ٠
ولا ينسى أن يبلّغ حفيده بأن يحذّر المريدين من الحفيد المنشق ٠ وعلى ذلك يتحول القبر إلى مزار يحج إليه الناس وينحرون بهائمهم بالقرب منه , ويعقدون خيوطا خضراء على شِباك المرقد , ثم يسألون الشيخ الجالس في الجنة ويراهم بذات الوقت من عليائه أن يتوسط لهم عند الله لشفاء مريض , أو لفك كرب , أو مودة زوج , أو أو سعة رزق , أو إلحاق الأذى بظالم ٠ أو يتوسط له ليقبل الله توبته من إثم ٠ ورأيت كيف أن الناس لايفكرون بإجراء مقارنة بين بيوتهم الطينية المتصدعة التي يعيش فيها أحياء , وبين بناء المرقد وما يحتويه من سجاد ثمين وليس فيه غير أموات ٠

* * *

لقد كان تحذير النبي لاستغلال الناس في أمر دينهم بيّنا عندما أوضح بأن الإنسان عندما يموت , هو الذي يحتاج إلى دعاء الأحياء وإلى صدقاتهم , لأن الميت انفصل عن الحياة التي كانت به وانقطع عمله في الدنيا ولم يعد باستطاعته إضافة كلمة واحدة إلى كتابه , ولا إلى حذف كلمة , فكيف به يضيف ويحذف في كتب الأحياء , أو يشفي المرضى , أو يوسع الأرزاق ٠ وقد أخبر النبي الناس بأن ابن آدم إذا مات غدا في قطيعة عن عمل ينتفع به , أو يُنفع به غيره , لأن الحياة هي دار العمل , وعلى ذلك فإن الآمال كلها معقودة على الأحياء , وكل ماهو موجود من كلام الله والرسل هو لصلاح الأحياء الذين بمقدورهم أن يقدّموا كذلك نفعا للأموات وليس العكس ١٢ ٠ فبيّن النبي صلى الله عليه وسلم : / إذا سألت فاسأل الله , وإذا استعنا فاستعن بالله , واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك , وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك , رُفعت الأقلام , وجفت الصحف / ٠ وفي حديث : / واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك , وما أصابك لم يكن ليخطئك / ٠ ثم أن من المخالف للشريعة المحمدية أن يتكهن شخص دخوله النار , ويتكهن دخول شخص آخر الجنة , وبناء عل هذا التكهن يذهب إلى قبره فيتوسل إليه ليتوسط له من جنته أن يُخرجه الله من النار عندما يموت ويُقذف فيها ٠ فكم من شخص لاشيخ ولاطريقة ولامذهب له في الجنة , وكم من شيخ ومن إمام في النار ٠ وقد رأيت صفات مشتركة تجمع هؤلاء الشيوخ , مثل الأمية الفقهية واللغوية لأنهم ورثوا المشيخة ولم يرثوا الفقه , وأن خطبهم هي عبارة عن مجموعة أخطاء إملائية ولفظية , وأحيانا يستندون على آيات منسوخة من القرآن الكريم على أنها الناسخة وكذلك على أحاديث ضعيفة على أنها صحيحة وعلى الأغلب فإنهم يقعون في هذه الأخطاء عن جهالة , ثم أحيانا يجتهدون بتفاسير تخمينية لآيات ليثبتوا للسامعين بأنهم على دراية بعلوم التفسير إذا سُئلوا سؤالا في مجلس , وأحيانا يسطون على خطب الجمعة المطبوعة في كتب منذ مئات السنين فيقرؤونها للناس على أنها لهم , وكذلك تعدد الزوجات , وتكاثر حالات الانتحار بين أبنائهم , وحالات تحرش بعض بناتهم ببعض الملالي المقرّبين من أهل البيت , وتكرار حالات خطف بين بناتهم وأولادهم في الزواج , وحالات متفاقمة من الخصومة بين الأخوة بسبب الخلافة في المشيخة ٠ بطبيعة الحال قد تخرج هذه الممارسات من محلية هؤلاء المشايخ لتشتعل في عالم السياسة , فيمكن أن يوسع شيخ شبكته لتنتشر في أصقاع الأرض , ويمد العالم بأفكاره عن الدين ٠ وهذه هي رأس الخطورة والمغامرة لأن أبناء الغرب الذين لايعلمون الإسلام سوف ينظرون على هذا الشيخ على أنه أحد حفدة محمد وقد حمل رسالته إليهم , وبناء على

هذا المفهوم المسبق سيكون الموقف من الإسلام عامة الذي سيكون قد تلقى ضربتين معا , ضربة في بلاد المسلمين نتيجة ممارسات المشايخ المحليين , وضربة في بلاد العجم نتيجة ممارسات المشايخ العالميين . وتبلغ الخطورة مرحلة أكثر تقدما ينظر فيها جمهور من أهل الغرب إلى شخص مسلم نظرة مريبة , وهذا من شأنه أن يسرّب المياه إلى أعشاش المسلمين الآمنين المتجنسين في تلك الديار التي منحتهم الأمن ونعمتُي الأمن والملاذ , وكانوا قد هربوا من مشايخهم المحليين ليلحقهم المشايخ العالميون باللعنة إلى تلك الأعشاش الآمنة فتفسدها عليهم . وعلى قدر مايسبب مريدو هذا الشيخ / العالمي / من أذى ووجل لأبناء تلك الأمكنة , على قدر ما تظهر أصوات من أهل الديار تنادي بترحيل كل مسلم وإسقاط الجنسية الكتابية عنه , لأن بقاءه قد يشعل فتيل حرب عالمية كبرى بين بلدانهم وبلدان العالم الإسلامي , وبين شعوبهم وشعوب المسلمين وتخرج الأمور من أيدي الساسة فيرى ابن كل دين انتقاما من ابن دين آخر في نزعة عنصرية دينية تكون ساحتها العالم برمته وتكون أفتك من كل حروب الأرض السابقة . فمن الخير لهم أن يعود وا بمشايخهم ويعملوا على إصلاح ذات البين في ديارهم تلك . ليس من سبيل للأمة الإسلامية إلا أن تتكاتف وتبذل قصارى جهدها لنشر ثقافة السلم في الإسلام من جهة , ومن جهة التخفيف من الكبت على الجيل الشاب وتوجيه مواهبه نحو هوايات مثمرة نافعة وإنقاذه من براثن هؤلاء الشيوخ ومريديهم . ليس من سبيل إلا أن ننمي فيهم ثقافة صلة الرحم والمحبة والتسامح , فإن عيون وأيادي الشيوخ تتجه على الدوام إليهم , ودوما هم الذين يكونون الأسلحة البشرية الأكثر فتكا في أيدي هؤلاء المشايخ الذين لايمتلكون شجاعة الخروج من أوكار يختبئون فيها , يوزعون صكوكا من جحورهم بدرجات الجنة على الضحايا أولئك , وقد أوهموهم أن المسافة المتبقية هي محض خطوة شجاعة نحو القفز إلى رحاب الجنان , فيقدمون على تلك الخطوات بحماس الشباب وجهاد المؤمنين وأخوّة المسلمين , حاملين معهم صكوكا موقعة من وكيل الله في أرضه , وتمضي على هذا النحو ثنائية الشيخ والمريد بعباده في حقل من ألغام .

من خلال إلقاء نظرة عامة على هذه الظواهر المحدثة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم نقع على مفهوم وكأن الدين لم يكمله آخر الأنبياء وأن به نقص وهؤلاء هم الذين يكملون للناس دينهم , وهذا يضع قول الله تبارك وتعالى : / اليوم أكملت لكم دينكم ... / ١٣ . جانبا لأنه يقول بعدم النقص . فجاء خطاب الله تبارك وتعالى جليا في هذه الفئة : / أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله / ١٤ . فإذا نظرنا إلى تاريخ ثنائية الشيخ والمريد السياسية نرى بأنها لم تجلب غير الويلات للمسلمين عبر كل هذا

التاريخ الذي هو سلسلة من إلحاق الأذى بالمسلمين من كافة مواقعهم ٠فإن رأيت هذه الصفات التي بينتها لك في شيخ , احذره وحذّر الناس منه واتل عليهم قول ربك : / وإن صرا طي مستقيما فاتبعوني ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون / ٠ واشرح لهم أن الصراط المستقيم هو مستقيم لأنه صراط واحد يوصل العبد إلى ربه , وأما الطرق الملتوية فهي محفوفة بالمخاطر ٠ ثم اقرأ لهم قول ابن مسعود رضي الله عنه : / خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مستقيما , وخط خطوطا على يمينه , وخطوطا على شماله فقال للخط المستقيم : هذا سبيل الله ٠ وللخطوط عن يمينه وشماله : هذه سبل متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه / ٠

إن الإمام هو إمام على قدر ما جمع من فرقة في المسلمين , وإن الفقيه هو فقيه على قدر ماردم من هوة فرقت المسلمين , وإن الشيخ هو شيخ على قدر ما أصلح من خلافات في المسلمين ٠ ثمة توضيح للإمام مالك يقول فيه : / إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه ٠ لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين - وأشار إلى المساجد - فما أخذت عنهم شيئا وإن أحدهم لو أؤتمن على بيت المال لكان أمينا ٠ إلا أنه لم يكونوا من أهل هذا الشأن / ٠ ٠ أنار الله دروب المؤمنين بقوله : / ولاتكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون / ١٥ ٠

وفي واقع الأمر فإن وسائل الإعلام أدخلت الإسلام في كل بيت على كوكب الأرض , فيمكن لأي شخص ومن أي بقعة أن يرى خطبة الجمعة من مكة المكرمة ويعرف أي فتوى يبتغيها من مصادر موثوقة بالضغط على زر , وهذا يغني عن ألف شيخ أمي في فقه دينه ٠ ثم أن الإسلام ليس بالتعقيد الذي يتم تقديمه به في هذه الطرق الشتى , فعن جابر رضي الله عنه : / أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت إذا صليت المكتوبات , وصمت رمضان , وأحللت الحلال , وحرمت الحرام , ولم أزد على ذلك شيئا أدخل الجنة ؟ قال : نعم / ١٦ ٠ وليس مطلوبا من المسلم الجري خلف كل التفاصيل والدخول في متاهات ليست مطلوبة في الدين , فعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : / إن الله عز وجل فرض فرائض فلا تضيعوها , وحد حدودا لاتعتدوها , وحرم

أشياء فلا تنتهكوها , وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها / ١٧ ·

مراجع:

١ - سورة طه , الآية ٦٩
٢ - سورة يونس , الآية ١٠٧
٣ - رواه أبو داود وأخرجه أهل السنن الأربعة وصححه الحاكم عن النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ : (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول , فقد كفر بما أنزل على محمد) ·
٤ - رواه البزار بإسناد جيد
٥ - سورة فصلت , الآية ٣٦
٦ - سورة الحجر , الآية ١٥
٧ - سورة طه , الآية ٦٦
٨- سورة البقرة , الآية ١٠٢
٩- نقلا عن كتاب / الأذكار / للإمام النووي , فصل : في آخر ماقصدته من هذا الكتاب ·
١٠ - المرجع السابق
١١- المرجع السابق
١٢- في رواية لمسلم وأبو داو والنسائي وأحمد بن حنبل عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية , أو علم ينتقع به , أو ولد صالح يدعو له ·
١٣- سورة المائدة , الآية ٣
١٤- سورة الشورى , الآية ٢١
١٥ - سورة الروم , الآية ٣٢
١٦ - عن كتاب / الأذكار /
١٧ – المرجع السابق ·

٤- بحث فـي ظاهرة النفاق

كان يمكن لهذا الحديث أن ينتهي بي عند نهاية الفصل الثاني , وقد سعيت ما أمكنني أن يكون مركزا على دقائق الثنائية وسلبياتها على الإنسان , ولكنني حسبتُ أن ذلك سيلبث ناقصا مالم أبحث بعض الشيء في جذور ظاهرة النفاق منذ صدر الإسلام , فمن جهة حتى تتبين جذور هذه الظاهرة وكيفية التصدي لها من قبل رجال الإسلام الأوائل , ومن جهة حتى نبحث في سيكولوجية الإنسان المنافق ونبحث هذه النزعة بشيء من التحليل ٠ فقد أفضى بنا البحث في وقائع سلبية ثنائية الشيخ والمريد إلى ظاهرة النفاق التي انطلقت شرارتها الأولى عند ظهور الإسلام وإعلان النبي كلمة الله الأولى في هذه الرسالة , وإعلانه أنه هو النبي الخاتم الذي ترقبته البشرية جمعاء , والذي كان يظهر في الكتب والصحف السابقة ٠ وقد تفشت هذه الظاهرة بصورة غاية في الخطورة حتى تدخل القرآن وتعرض لأمر هؤلاء في سور متعددة ٠ ومع مرور الزمن بدأ النفاق يأخذ أشكالا وتفرعات ومنعرجات متفاوتة إلى أن بلغ في زماننا على ما هو به من آفة ٠

مدخــل إلــى عالــم المنافقيــن

ليس على الدين من حرج إذا أعلن البعض عدم إيمانه بهذا الدين , وأنه يعيش في قطيعة عن أركان الإيمان , ولكن يلتبس على الدين شيء من الحرج والغموض إذا أعلن هذا البعض إيمانه نفاقا وهو في دواخله أبعد ما يكون عن الإيمان ٠ فالأول شخص واضح يكون التعامل معه على وضوحه , وهو يتعامل مع المؤمنين في مصالحه وتعامله وواجباته الاجتماعية , وكذلك هم لايجدون حرجا من التعامل معه بناء على قاعدة الوضوح التي رخص بها الله تبارك وتعالى في بنية وجوهر العلاقة مابين المؤمن والكافر , وأما الثاني فيعده المؤمنون منهم وفي كتابهم , فيتسنى له إفساد البيت وهو داخله ٠ ولعل / عبد الله بن سبأ / مثال على ذلك ٠
المنافق هو كائن منبوذ في كل الأعراف والأديان والعقائد والتقاليد الاجتماعية , بل حتى في الأنظمة السياسية ؛ ففي هذه الأنظمة يوصَم المنافق ب / الخيانة العظمى / لكونه يعيش على تراب الوطن ويتشمّس

بشمسه وبذات اللحظة يعادي مواطنيه فيكون جاسوسا عليهم بغية إلحاق الأذى بهم وبديارهم , فيُعاقَب هذا المواطن بارتكاب الخيانة العظمى وهي أعلى عقوبة سياسية وجزائية ووطنية واجتماعية يواجهها مواطن في وطنه • ولذلك وضع الإسلام شرط الإيمان كخطوة أولى لدخول أي إنسان كتاب المؤمنين , فإذا تحقق هذا الشرط في نفسه وقلبه واغتسل المرء بمياه الإيمان المباركة , دخل كتاب المؤمنين وصار أحد سكان البيت الكبير الذي باركه الله , وإن لم يتحقق هذا الشرط في نفسه وقلبه ولسانه فإن باب المؤمنين يلبث مغلقا أمامه حتى لوتظاهر بكل أركان الإيمان • فالإيمان هو الركن الأول الذي يفتح الباب للدخول إلى عالم الإسلام والمسلمين , وهو الركن الأول الذي يُخرج أي مسلم من ملة الإسلام والمسلمين •

النفاق أن تُظهر أمرا مخالفا لما أنت عليه , فتدعو إلى أمر وأنت مؤمن بنقيضه و هو لايكون مع الآخرين فحسب , بل يكون مع الذات أيضا , والمنافق يعيش حالة ازدواجية متواصلة مع نفسه قبل أن يُظهرها للآخرين • ويتوصل المنافق بنفسه مرحلة من الفصام تستولي على كل حركة ظاهرية وباطنية تبدر منه عن شعور وعن غير شعور • لاأريد أن يُفهم النفاق على أنه حالة مرضية أو وراثية وأن المنافق هو ضحية مغلوب على أمره , بل الشخص يميل إلى كل مفصل من مفاصل النفاق مع سبق الإصرار , وهو ذاته ينمّي هذا النفاق في ذاته وسلوكه , لأن المنافق هو شخص يستعين بذكائه في ممارسة السلوك النفاقي حتى يستطيع أن ينجح في تمثيل هذا الدور ببراعة وتفوق • أما الشخص المغلوب على أمره أو قليل الذكاء فإن النجاح لايحالفه في مثل هذه المهمة • وليس عبثا أن الدين نهى عن النفاق وأعلم المنافقين بأنهم / في الدرك الأسفل من الجحيم / • والناس أيضا يتقون شر المنافق ويتجنبونه بما أمكن لأن النفاق في واقع الأمر يكاد يجمع بين مختلف النزعات السلبية التي ظهرت في الإنسان غير السوي , فالنفاق أخذ شيئا من الرياء , وشيئا من السادية , وشيئا من السيكوباتية , وشيئا من المازوخية , وشيئا من الشيزوفيرنيا • وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافق بقوله : / أية المنافق ثلاث : إن تحدث كذب , وإن وعد أخلف , وإن أؤتمن خان / •

والمنافق يعيش كل هذه النزعات داخله فيبلغ مرحلة متطورة من النفاق إلى أنه يمارس النفاق في كل حركة تبدر منه • والناس يدينون المنافق ويتصرفون معه بغاية الحذر لأنهم يدركون بأنه شخص لايصدر منه الحق طرفة عين , ويترفعون بأنفسهم على أن يصاحبوا منافقا • ومن ناحية أخرى فإن النفاق هو حالة من الغموض , والمنافق هو شخص ظلامي , فعندما يقول لك شخص بأنه ملحد وتكون أقواله وأفعاله مبنية على مذهبه

فإنه يبدو واضحا أمامك , ولكنك عندما ترى هذا الشخص يطيل ذقنه ويحمل قرآنا بيده ويسبّح الله في جامع فإنه يتحول إلى كائن غامض بالنسبة لك , ورغم أنك لم تكن تتعامل معه بحذر في الحالة الأولى , إلا ّ أنك ستنظر إليه بريب في الحالة الثانية ٠ لهذا دعا النبي أن يكون الإنسان واضحا في مواقفه وألا يميل إلى الغمض فيُساء فهمه , وكان عليه الصلاة والسلام إذا مال إلى أمر , أفصح عنه بالقول البيِّن ٠ تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : / كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من يسمعه / ٠ وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : / أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تُفهم عنه , وإذا أتى على قوم فسلم عليهم , سلم ثلاثا / ٠ نستطيع أن نتعرف على جوانب الوضوح في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم حتى من خلال خصوصياته , فقد كان واضحا في تصرفاته الشخصية ولايترك أمرا غامضا إلا يستفيض في توضيحه , ولايترك سؤالا إلا ويجيب عليه , وكان إذا رأى أمرا اتخذ فيه القرار البيِّن ٠ فقد سبق له صلوات الله وسلامه عليه أن كتب كتابه على امرأتين , بيد أن لم يمسسهما ٠ فلما كتب كتاب الزواج على أسماء بنت النعمان الكندية , ودخل ليتزوجها تفاجأ بأن بها بياض , فخرج دون زواج , ثم متعها وأعادها إلى أهلها ٠ وكتب كتاب الزواج على عمرة بنت يزيد الكلابية , ولما دخل بها وأراد الزواج , استعاذت منه , فتركها النبي قائلا / منيع عائذ الله / ثم ردها إلى أهلها ٠ ويقال في رواية أن التي استعاذت منه , كندية بنت عم لأسماء بنت النعمان , ويقال أن النبي دعاها فقالت : إنا قوم نُؤتى ولا نأتي ٠ فردها إلى أهلها ٠ وأخرج البخاري في كتاب الطلاق , باب : من طلق وهل يواجه الرجل ٠ قال : حدثني الحميدي حدثنا الوليد الأوزاعي قال : سألت الزهري أي أزواج النبي صلى الله عليه وسلم استعاذت منه , قال : أخبرني عروة عن عائشة أن ابنة الجون لما أدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودنا منها قالت : أعوذ بالله منك ٠ فقال لها : لقد عذتِ بعظيم ٠٠ الحقي بأهلك / ٠

وبذات الوقت عندما قيل في عائشة ما قيل فإنه لم يتصرف بما قال الناس بل خطب معلنا موقفه : / يا أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي , ويقولون عليهم غير الحق , والله ما علمت منهم إلا خيرا , ويقولون ذلك لرجل , والله ما علمت منه إلا خيرا , وما يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي / ٠ وعندما تصاعد ت التهمة وأخذت تجري في الناس بقوة كالريح , تروي عائشة : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم , وعندي أبوي , وعندي امرأة من الأنصار , وأنا أبكي , وهي تبكي معي , فجلس , فحمد الله , وأثنى عليه , ثم قال : يا عائشة , أنه كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقي الله , وإن

كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبي إلى الله , فإنه يقبل التوبة من عباده ٠ فوالله ما هو إن قال لي ذلك , فقلص دمعي , حتى ما أحس منه شيئا , وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله صلى الله عليه وسلم , فلم يتكلما ٠ قالت : وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي , وأصغر شأنا من أن ينزل الله فيّ قرآنا يُقرأ به في المساجد , ويُصلى به , ولكني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نومه شيئا يكذب به لما يعلم من براءتي , أو يخبر خبرا , فأما قرآن ينزل فيَّ
, فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك ٠ فلما لم أر أبوي يتكلمان قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ٠قالا : والله ماندري بما نجيبه ٠ قلت : والله لاأتوب إلى الله ما ذكرت أبدا , والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس , والله يعلم مني أني منه بريئة , لأقولن ما لم يكن , ولئن أنا أنكرت ما يقولون لاتصدقوني ٠ ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره , فقلت : ولكن سأقول كما قال يوسف : / فصبر جميل وبالله المستعان / ١ ٠
فأنزل الله : / إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم / ٠
كل هذا حتى يبقى الإنسان واضحا ويستطيع أن يمارس حياته بوضوح ٠ قال الله في فئة المنافقين : / لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون / ٠ حتى قال جل شأنه : / ويقلبون لك الأمور / ٠ ثم : / حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ومنهم من يقول أئذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا / ٠ وقال الله : / ألم تر إلى الذين يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبون / ٠ وبلغت المواجهة بين المسلمين والمنافقين حدا أنزل الله فيه سورة من القرآن حملت اسم / المنافقين / وبدأ المسلمون عندذاك يطردون المنافقين من المساجد , فعندما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الظاهرة تفاقمت وتسربت إلى بيوت الله , وذات يوم رأى أناسا منهم يتحدثون خافضي أصواتهم وقد لصق بعضهم ببعض , أمر بطردهم , فقام أبو أيوب , خالد بن زيد بن كليب إلى عمر بن قيس أحد أبناء بني غنم بن مالك بن النجار – وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية – فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد وهو يقول : أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة ؟! ٠ ثم أقبل أبو أيوب أيضا إلى رافع بن وديعة , أحد بني النجار فلببه بردائه ثم نتره نترا شديدا , ولطم وجهه ثم أخرجه من المسجد وأبو أيوب يقول له : أف لك منافقا خبيثا ,

أدراجك يامنافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو وكان رجلا طويل اللحية , فأخذ بلحيته فقاده بها قودا عنيفا حتى أخرجه من المسجد , فقال : خدشتني يا عمارة ٠ قال : أبعد ك الله يا منافق , فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك , فلاتقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ وقام أبو محمد مسعود بن النجار إلى قيس بن عمرو بن سهيل , وكان قيس غلاما شابا , وكان لايعلم في المنافقين شابا غيره , فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد ٠ وقام رجل من بلحدرة بن الخزرج , رهط أبي سعد الخدري يقال له عبد الله بن الحارث إلى رجل يقال له الحارث بن عمر , وكان ذا جمة , فأخذ بجمته فسحبه بها سحبا على ما مر به من الأرض حتى أخرجه من المسجد ٠ فقال : لقد أغلظت يابن الحارث ٠ أجابه ابن الحارث : إنك أهل لذلك , أي عدو الله لما أنزل الله فيك فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم , فإنك نجس ٢ ٠ قال الله : / ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين , يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم ومايشعرون / ٠ ويقول : / وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون / ٠ ويقول الله فيهم : / وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون , وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون / ٠ ويصفهم الله وقد ضرب بهم مثلا : / مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون / ٠

* * *

مثل النفاق في الناس كمثل جسد فسد فيه عضو خفي لبث يصدر الفساد حتى أتى على كامل الأعضاء ٠ لايمد المنافق خطوة لإفساد غيره قبل أن يكون قد مدها لإفساد نفسه لأن النفس الصالحة لاتنجح في مهمة إفساد غيرها قبل أن يتحقق فيها فساد ٠ ينهى الله الناس عن النفاق حتى لايكونوا منافقين ٠ يقول محيي الدين بن عربي بأن الله ذم المنافق ويقول في ذي الوجهين وهو المنافق : إنه يقول آمنا بالله وبما جاء من عند الله وليس كذلك , وإنما يفعل ذلك خداعا لله والذين آمنوا , وجعل الفساد صلاحا , والصلاح فسادا , والإيمان سفها , والمؤمنين سفهاء , ويأتي المؤمنين بوجه يرضيهم , ويأتي الكافرين بوجه يرضيهم ٠ فأخبر الله بأن هؤلاء هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين , وأنهم الصم عن سماع ما

ذكرّهم الله به , والبكم عن الكلام بالحق , العمي عن النظر في آيات الله ٠ يتبيّن من هذه الأمثلة التي وردت في الإسلام بأن المنافق يبتغي بنفاقه أن يشوّه الحقائق ويعتمد في مهمته على التردد إلى الأماكن الآهلة بالسكان ٠ فالمنافق لايحقق شروط النفاق إذا لبث في مسكنه وأحكم الباب على نفسه , وعندها ليس مطلوبا من أحد أن يدخل بيته ويتهمه بالنفاق , فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر بطردهم عندما تسربوا إلى مسجده ومسلميه وابتغوا الفساد والشقاق ٠ وبذات الوقت فإن النبي يقعد إلى الكافر ويدعوه إلى دين الله الجديد لأن الكافر في حقيقة الأمر هو شخص واضح معني بالرسالة , ومن أصحاب النبي مَنْ كانوا كفارا ولكنهم لم يكونوا منافقين ٠ ثمة حديث آخر للنبي ورد في صحيحَي البخاري ومسلم يوضح فيه أن الإنسان يمكن له أن يحمل خصلة من من نفاق , ففي صحيحيهما عن عبد الله بن عمر و بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أربع من كن فيه كان منافقا خالصا , ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان , وإذا حدث كذب , وإذا عاهد غدر , وإذا خاصم فجر ٣ ٠ فالنفاق هو قول وفعل وممارسة , والشخص لايكون منافقا بكلمة تقال له أو بفعل يُساء فهمه فيه أو حتى بذنب اضطر إليه , بل وحتى بكذب وجد نفسه فيه مضطرا ٠ وحتى يحمي الدين مؤمنيه من النفاق فقد وضع قاعدة ثابتة تيسر لهم بعض المواقف المحرجة التي يتعرضون لها فأباح فيهم أن : / الضرورات تبيح المحظورات / و : / من اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه / ٠ ولكن المنافق لاشيء يضطره إلى النفاق والدين نفسه يقول : / لاإكراه فيَّ / ومن هنا تميز المنافق عن غي المنافق وجاء النبي صلى الله عليه وسلم موضحا هذا التمييز بينهما : / ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينتمي خيرا ويقول خيرا / ٤ ٠ وفي رأي لأبي حامد الغزالي يقول فيه : / الكلام وسيلة المقاصد , فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا , فالكذب فيه حرام لعدم الحاجة إليه , وإن أمكن التوصل إليه بالكذب ولم يكن بالصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذاك المقصود مباحا , وواجب إن كان المقصود واجبا , فإذا اختفى مسلم من ظالم وسأل عنه , وجب الكذب بإخفائه , حتى لو أخبره بوديعة عنده فأخذها الظالم قهرا , وجب ضمانها على المودع المخبر , ولو استحلفه عليها , لزمه أن يحلف يوري في يمينه , فإذا حلف ولم يور , حنث على الأصح وقيل لايحنث , وكذلك لو كان مقصود حرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه في العفو عن الجناية لايحصل إلا بكذب , فالكذب ليس بحرام , وهذا إذا لم يحصل الغرض إلا بالكذب / ٥ ٠ ويقول : / الذي له مثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله ليأخذه , فله أن ينكره , أو يسأله

السلطان عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها , فله أن ينكرها ويقول : مازنيت , أو ماشربت مثلا / ٦ ٠ حدث هذا كله حتى يتميز المؤمن عن المنافق ولايخلط الحابل بالنابل , إضافة إلى ذلك فقد يجنح مؤمن إلى ذنب وهو مؤمن , لكنه يستر نفسه في ذنبه , والدين هنا يبيح له أن يستر نفسه في ذنبه وألا يبوح به لأحد , ويطلب العفو من ربه بالسر , في حين أن المنافق يقوم بنشر الفاحشة بغية الترويج لها وجعلها قاعدة ٠ وفي جميع الأحوال فإن النوايا هي التي تحدد الأفعال وقد جاء في بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم : / إن العبد لايُكتب في المسلمين حتى يسلم الناس من يده ولسانه , ولاينال درجة المؤمنين حتى يأمن جاره بوائقه , ولايعد من المتقين حتى يدع مالابأس به حذرا مما به البأس ٠ أيها الناس أنه من خاف البيوت أدلج , ومن أدلج في السير وصل , وإنما تعرفون عواقب أعمالكم لو قد طويت صحائف آجالكم , إنه نية المؤمن خير من عمله , ونية المنافق شر من عمله / ٧ ٠

ويمكن أن نقع على أشكال متفاوتة في النفاق بين مجتمعاتنا المعاصرة تقشعر لها الأبدان , فنقع على نماذج المنافق السياسي , والمنافق الأخلاقي , والمنافق الوصولي , فنجد حاكما ينادي بمبادئ وفي ذات الوقت يكون أو ل من ينتهكها , ونجد شخصا بح صوته وهو ينادي بالأخلاق , ويكون في حقيقته مجردا من حرمة الأخلاق , وتجد مسؤولا يمدح سنوات في رئيسه فقط لبلوغ مرتبة عليا ٠ ولعل نموذج بعض أئمة المساجد الوصوليين هي أسوأ هذه النماذج في عصرنا , فتجد إماما يعتلي منبرا في مسجد وقد أحاله إلى منبر إعلاني لسلطان , يروّج فيه لبرنامج هذا السلطان ويبارك له فتوحاته السياسية , ويدعو الناس للمضيء خلفه , ويصل الأمر بأسوأ هذه النماذج إلى أن يقدم الولاء للسلطان نيابة عن الشعب كله , والأمة قاطبة , وهو من تلقاء نفسه ينتزع هذا الولاء من الأمة في مشارق الأرض ومغاربها , والناس يتفاجأون بأنه يتحدث نيابة عنهم وكأن لا ألسنة لهم ٠ والحقيقة أن هذا الإمام يكون مريضا فيأمل من خلف هذه الدعاية أن يعالجه السلطان على نفقة الدولة في الخارج بصفته أحد جنود الوطن الدينيين المخلصين , وعلاجه يكون بمثابة قوة للوطن , أو أنه يبتغي من خلف ذلك علوا في المنصب الديني حتى لو كان على حساب صاحب المنصب ذاته , وعندما يشعر الأخير بالماء وقد تسرب إلى بساطه فإنه كذلك يبدأ في تحضير الخطب الدينية الوطنية العصماء , فيزيد كل واحد من من الشعائر الوطنية الولائية للسلطان في خطبته ٠ ونقع في زماننا على نماذج تقوم بتفريخ فتاوى للسلطان بحسب ما يريد , وهذه النماذج هي كثيرة التردد إلى الأماكن الحكومية لأنها متخصصة بتفريخ فتاواها وهي متكئة على الأرائك , وهؤلاء

عادة تتقلهم سيارات حكومية كلما شعروا بتفريخ فتوى جديدة إلى درجة أنهم يغدون في ميزة خاصة بأنهم رجال دين حكوميين ٠ خرج مسلم عن محمد بن أبي عمر عن سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال : قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده لاتضارون في رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول : ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل الإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول : بلى يارب ٠ فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت , ويثني بخير ما استطاع فيقول : ههنا إذن ٠ قال : ثم يقال له : الآن نبعث شاهدا عليك ٠ ويتفكر في نفسه : من ذا الذي يشهد علي ؟ ! فيختم على فيه ويقال لفخذه : أنطق ٠ فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعلمه , وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق , وذلك الذي سخط الله عليه / ٨ ٠ وقد شاء الله تبارك وتعالى أن يخص المنافقين بسورة في كتابه العزيز يقول فيها : / إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون ١ اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ٢ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ٣ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشي مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ٤ ولإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ٥ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لايهدي القوم الفاسقين ٦ هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون ٧ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون ٨ يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم وأموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ةمن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ٩ وانفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربي لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ١٠ ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعلمون ١١ ٠

مراجع:

١ – أخرجه البخاري في كتاب / المغازي/ باب / حديث الإفك / ٤١٤١/٧ ومن كتاب / التفسير / ٤٧٥٠/٨ فتح ٠ ومسلم في كتاب / التوبة / باب / في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ٥٦/٢١٢٩/٤ وأبو داود في/ السنة / ٤/ح ٤٧٣٥ وفي كتاب / الأدب / ٤/ح ٥٢١٩ وأخرجه الترمذي في كتاب / تفسير القرآن / من سورة النور ٥ / ٣١٨٠ وأحمد في مسنده ٦ / ١٩٤ , ١٩٥ , ١٩٧ , ١٩٨ , ٢٦٤ ٠

٢ – عن سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٣٦ – ١٣٧ ط٢ دار الحديث , القاهرة ١٩٩٨ ٠

٣ – عن الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار للإمام النووي , ص ٣٣٦ , باب النهي عن الكذب وبيان أقسامه , مكتبة الغزالي ١٩٧١ ٠

٤ – المرجع السابق ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا أو يقول خيرا ٠ وأم كلثوم هي بنت عقبة بن أبي معيط القرشية الأموية أخت عثمان بن عفان لأمه وهو الحديث الوحيد الذي ورد لها في الصحيحين ٠

٥ – المرجع السابق ص ٣٣٦ – ٣٣٧ ٠

٦ – المرجع السابق ص ٣٣٧ ٠

٧ – نقلا عن كتاب / الوصايا / لابن عربي , ص ٢٨٩ , دار الإيمان ١٩٨٦ دمشق قال ابن عربي : / معناه موجود بلأحاديث صحيحة متفرقة ولم أجد نصه ٠

٨ – الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه ٠ رواه أبو داود في / السنة / باب / في الرؤية / , والترمذي رقم ٢٥٥٧ في صفة الجنة باب / ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى / وهو حديث صحيح ٠

الباب الثانـــــــي

فضاء الإيمان المفتوح

١- مدخل:

تكلل نورُ الإيمان بروح الإسلام بمباركة إلهية في ليلة بوركتْ بخير من ألف شهر لهداية الناس من ظلمات الجهل البشري إلى نور المعرفة الإلهية .
يولد الإنسان وفي تربة روحه بذرة الإيمان التي تمنح قيمة للحياة التي قدم إليها فينفتح ويشرق على الحياة وعلى هذه البذرة الإيمانية معاً ، ولذلك فإن الإنسان يكون متعلقاً بالحياة في مرحلة الطفولة أكثر من أي مرحلة أخرى وحتى في أقسى الظروف الحياتية فإنه يكون خائفاً على حياته وعلى مستقبله في حين أن الأكبر سناً قد يجنح إلى فكرة الموت كطريقة نحو الخلاص من تلك الظروف الحياتية القاسية . والواقع فإن حياة الإنسان برمتها تقترن بدرجات إيمانه ، فهو يكون مشرقاً بقدر إشراقة الإيمان لديه ، ويكون مظلماً على قدر ظلامية الإيمان لديه . وما هو أكثر أهمية هو أن واهب الحياة قد منح لهذا الكائن البشري الحرية في أن يروي هذه البذرة حتى تغدو شجرة إيمان مباركة في روحه فيشع منه نور الإيمان ، أو ألاّ يرويها حتى تموت من العطش وتفسد في روحه فلا تصدر منه إلاّ رائحة فساد .
وهنا تكمن مسؤولية الإنسان العظمى تجاه حياته فيعيش وقائعها وأحداثها بجدية .
الإيمان هو ميزان عدل في ضمير الإنسان ، يكتمل الإنسان وينضج بمقدار ما يرتقي في درجات الإيمان ، وهو قنديل إلهي ينير الد رب أمام خطوات المؤمن . الإيمان حالة إنسانية متطّورة تؤهل صاحبها ليمارس سلوكاً إنسانياً في علاقاته مع ذاته ومع الآخرين منطلقاً من أرضية إيمانه المغروسة

بأشجار الرحمة والمودة والعدل والتسامح والأخلاق ، فتينَع من هذه الأشجار المباركة زهور الصلاة والصيام والحج والزكاة وسائر العبادات .

٢- ذنوب المؤمن

الإيمان نور القلوب ، نور ينير كل عضو من أعضاء الجسد ، ينير الدرب أمام خطوات الجسد والروح في رحلة السمو . إنه النور ذاته الذي يلبث يرفق بصاحبه في الحياة . يبقى قلب المؤمن يضيء بإيمانه ولو دخل النار فبإمكان ذرة واحدة من الإيمان أن تجاهد حتى تُخرج صاحبها كله منها ، كما جاهدتْ وسعت تحميه في الدنيا ألوان الشر . يبقى المؤمن مميزاً وإن ارتكب ذنباً ، والميزة أن المؤمن لا يتمادى في ذنبه وهو في حالة ارتكاب الذنب مضطراً أو منغراً ، وأن قلبه يكون وجلاً من الله ، وهو يكون في حالة حياء كاملة من الله الذي ينظر إليه ، إن كل حواسه ومدركاته تكون في حالة اضطراب خجلاً من الله كمن يسرق شيئاً على مرآة من صاحبه .
على الأغلب فإن ذنوب المؤمن تنتمي إلى نوع الذنوب التي لا تلحق الأذى بأحد غير صاحبها ، وهو يسعى ما بوسعه في سبيل مواراة آثار ذنبه ، وينكره أشد النكران إذا ما سُئل عنه ، ويكره أن يعود إليه كما يكره أن يُقذف في النار . إنه وهو يستر نفسه في ذنبه في معزل كامل عن الناس ويرتكب الذنب بينه وبين ربه ، يرفع قلب التضرع إلى ربه ويذرف دموع الندم على ما اقترفته نفسه من آثام ذاكراً في سريرته وخلوته : إن رحمة ربي وسعتْ كل شيء . وتراه يبحث عن سائل فيعطيه ، يبحث عن فساد يصلحه ، ويخشى أن يُعدي غيره بذنبه ، إنه يستر نفسه حتى لا يعدي غيره ، المؤمن المذنب هو عادة سخيٌ في إحسانه ومعروفه للناس ، إن إيمانه مع ارتكاب الذنب يضفي عليه هالة من الشفافية والبر . وتبقى آثار ذنوبه منحصرة في شخصه بعكس المذنب الملحد الذي من طبعه التمادي في الذنب والسعي جاهداً لجعل المعصية قاعدة بغية نشر الفساد في الأرض والناس . وهو مصر على ذنوبه وموسعاً لها يوماً إثر يوم وباحث عن رفاق سوء له لتوسيع رقعة الفساد ما أمكن بالاعتماد على أكبر عدد من الناس . إن المذنب الملحد هو المتمثل للشر والمدافع عنه فلا يكاد يترك جمعاً من الناس إلاّ ويلحق به ويجهر بمعاصيه وذنوبه داعياً الناس التخلي عن الفضيلة بكل الوسائل إلى بلوغ تحمّل الوزر لإغراء مؤمن كأن يقول لمؤمن تقي : تعال نرتكب هذه المعصية و ذنبك لي . بغية استدراجه واكتسابه إلى صفّه ، وجعل الفساد حالة علنية طبيعية ما أمكن ليكون في متناول الناس . إنه لا يكتفي بمعاداة

نفسه ، بل يتجاوزها لمعاداة الناس وهو متمسك بمهمته التي يمضي عمره فيها فيشعر بالظفر على قدر ما أفسد من ناس .
إن ذنوبه تتميّز بأنها تنتمي إلى نوع الذنوب التي تُلحق الأذى بالناس وتنشر فيهم الفساد حتى إذا تجاوز له الله عن حقه وجد حشداً هائلاً من الناس لا يتجاوزون له عن حقوقهم ، وعمّا لحقهم من أذاه في الدنيا ، والله لا يُرغم عليهم ليتجاوزوا عن حقوقهم ، ليلبثوا أحراراً في أمر يعنيهم وجَعَلَهم الله فيه أحراراً متعهداً بأنه لا يظلمهم ، وليرى الإنسان مرة أخرى أن العدالة الإلهية متحققة في كل زمان ومكان . يرتكب المؤمن المذنب ذنبه متورطاً فيه ومن ثم تائباً عنه ,ويرتكب الملحد المذنب ذنبه قاصداً إياه مصراً عليه .
معصية المؤمن هي معصية خفية
ومعصية الملحد هي معصية علانية
معصية المؤمن هي معصية اضطرارية أوإغرائية
ومعصية الملحد هي معصية من أجل المعصية ذاتها .
إن مجرد ترك هذا الفاسد في الناس هو ظلم للناس من قِبل الله ومن قِبل ولاة الأمور ، والله ليس ظالماً للناس ولذلك أمر ولاة الأمور إبعاد المفسدين عن الناس بشتى الوسائل وقد وضع لهم وسائل متعددة مثل :" إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم" (١) .
إننا في حياتنا اليومية عندما نجد أن أحد أبنائنا قد فسد ويسعى لإفساد البيت كله ، فإننا لا نتردد في منعه ، ليس منعه من أن يكون فاسداً بنفسه لأنه حر في حياته ، ولكن منعه بشتى الوسائل لإفساد إخوانه في البيت . وهكذا بالنسبة لعضو من أعضاء الجسد إذا أصابه فساد ، فإننا لا نبتره لأنه فاسد ومكتف بفساده ، بل لأنه سيفسد أعضاء أخرى من الجسد . والواقع فإن هذه الأمثلة تنطبق حتى على الخضار والفواكه والأشجار والحيوان والتربة والمساكن والطرقات . وقد بيَّن الله هذه الفئة الفاسدة في الناس وحذّر الاختلاط بها ، ثم بيَّن للذين آمنوا بأن هؤلاء لايحملون خطايا المؤمنين ، وأن الذي يرتكب خطيئة يكون مسؤولاً عنها :" وقال الذين كفروا للذين آمنوا : اتبعوا سبيلنا ، ولنحمل خطاياكم " • يقول الله :" وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ، وليحملن أثقالهم وأثقالاً ⊗ مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون " (٢) . ويكفي أنك تسمع من جليس

⊗ ثقل الكفر ، وثقل الكذب على المؤمنين :" ومَنْ أظلمُ ممن إفترى على الله كذباً " العنكبوت ٨

طيب كلمة طيبة ، هذه الكلمة التي قال ربك :" ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين " (٣). وفي حديث للنبي :" إنما الجليس الصالح وجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير . فحامل المسك إما يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيباً ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة "(٤).

الميزة بين ذنب المؤمن وذنب الملحد ، أن المؤمن يُذنب في لحظات الضعف ، والملحد يذنب في لحظات القوة . يبلغ إيمان المؤمن به أن يجعله يخجل من إيمانه ألاّ يتوب ، ويبلغ إلحاد الملحد به أن يجعله يخجل من إلحاده ألاّ يمضي في الفساد . المؤمن هو ذاك الشخص الذي يحب أن يكون مؤمناً . والملحد هو ذاك الشخص الذي لا يحب أن يكون مؤمناً ٠ يشفع إيمان المؤمن له حتى لو قادته ذنوبه إلى النار فإن تلك النار تكون أخف عليه من نار الملحد الذي لم يكن لديه إيمان و لا دين ، فكما أن المؤمن يرتقي في الجنة على قدر إيمانه ، فالمؤمن في النار أيضاً تُخَّفف عنه النار على قدر إيمانه ، فقد لا ترتفع أعلى من كعبيه ، أو قد تصل ركبتيه ، ويمكن أن تُخفَّف عنه النار إلى أن تغدو حرارة ، فيمسي المؤمن في جحيم المؤمنين فقط في درجات حرارة مرتفعة إلى أن يدخل الجنة ولو بذرّة إيمان واحدة كانت في قلبه لأن حديث النبي : لايخلد في النار مَنْ كان في قلبه ذرة إيمان.[⊗] يعني أن هذه الذرة ستقيه خلود النار التي لا تكون ناراً كالتي يكون فيها مًنْ ليس في قلبه حتى مثقال هذه الذرة من الإيمان ، وليست هذه الذرة من أجل تحققها فحسب ، بل لأنها تقف حائلاً بين حاملها وبين خروجه من الدين كله ، فهذه الذرة تقيه من أن يكون بلا دين ، وأيضاً لن يكون الدينُ اسما أو لقباً فحسب ، بل إن حامل الدين هو مميَّز ميزة كاملة عمن لا دين له ، وذلك بالمبادئ والأخلاق وبذكر الله ، وبوجل قلبه من ذكر الله . لذلك كان النبي يقول لأصحابه بأن شفاعته ليست لهم فحسب يوم القيامة ، بل هي لكل فرد من أفراد أمته ، أولئك الذين ثقلت عليهم ذنوبهم لأن عمليات الإنقاذ العظيمة لا تكون عظيمة إلاّ بقدر ما تنجد أناساً وقعوا في أخطار عظيمة ، فشفاعة النبي هي بالدرجة الأولى لأصحاب الكبائر من مؤمني أمته حتى تتحقق عظمتها التي أجّلها النبي إلى يوم عظيم . وهذا درس يعلّمنا أن نميل دوماً للإحسان إلى مَنْ هو أكثر حاجة لهذا الإحسان ، لأن هذا من شأنه أن يمحق من

[⊗] رواه مسلم و أبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود ونص الحديث :" لايدخل النار أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ولايدخل الجنة أحد في قلبه مثقال ذرة من خردل من كبرياء ".

نفوسنا كل شكل من أشكال الأنانية ويعزز فيها مشاعر التكاتف الإنساني بعيداً عن المصالح التي تجعل الناس في دائرة الاقتصاد فحسب . علينا أن نكون مع مَنْ وقع أكثر مما نكون مع مَنْ هو واقف على قدميه ، أن نعطي لمن لا شيء لديه ، لا أن نعطي لمن كل شيء في سبيل أن نسلب هذا المسكين حتى هذا " اللاشيء " الذي لديه .
روى لي صديق أن أحد المقتدرين دعا شخصاً وجيهاً إلى غذاء ، وقام بذبح عشرة خواريف احتفاء بقبول هذا الوجيه دعوته للغذاء ونصب خيمة خاصة ليأكل فيها ، وما أن حلَّ موعد الغذاء وتأخر الوجيه عن الحضور ، بدأ الفقراء والجياع يدنون من الخيمة ، عندها وقف شخص في مدخلها مهمته فقط منع الفقراء منها ، وبعد تأخر طويل قدمتْ سيارة يقودها سائق الوجيه فقال هذا السائق للمقتدر أن سيده أُصيب بزكام ويطلب أن يؤجل الدعوة إلى الأسبوع القادم . وتحقق ذلك فحضر الوجيه في موعده ، وكان المقتدر قد أحضر خمسة خواريف هذه المرة دون أن يذبحها وما إن رآه حتى أمر بذبحها أمام نزوله من السيارة . وروى الصديق أن هذا الوجيه عند إحضار الطعام اعتذر عن تناوله بسبب الوعكة التي ألمتْ به وحظّرتْ عليه تناول اللحوم حتى يشفى منها ، ولكن تقديراً له فإنه تناول قطعة بحجم رأس عصفور ثم راح يغسل يديه بالماء والصابون وينصرف على الفور . كان في القرية فقراء هم بأمس الحاجة إلى خروف واحد ليجعلوه مونة لشتاء كامل ، وهؤلاء مُنعوا حتى من دخول الخيمة . إن النبي لم يقل بأنه سيقف مع مَنْ هم ليسوا بحاجة إليه ، لم يقل بأنه سيشفع لأصحابه الذين وقفوا معه ، بل قال بأنه سيكون مع أكثر الناس حاجة إلى شفاعته ، سيكون مع أكثر الناس فقراً للحسنات لأنهم هم الذين سيكونون بأمس الحاجة إلى شفاعته ، كما أن ذاك البائس في تلك القرية كان بأمس الحاجة إلى خروف واحد لعياله الذين يتضورون جوعاً . إن الفقير يذهب إلى لحّام يسأله شيئاً لله ، فيعطيه قطعة فاسدة . يذهب إلى سمّان يسأله شيئاً لله ، فيعطيه أدنى قطعة نقود مهترئة من دخله . يذهب إلى بائع خضار يسأله شيئاً لله ، فيعطيه ما لم يعد صالحاً للبيع . يذهب إلى مخزن غذائي يسأله شيئاً لله ، فيعطيه علبة سردين انتهت صلاحيتها . ويبلغ التناقض ذروته عند دخول رجل ثري إلى محالهم أو رجل ذو نفوذ فيعطونه أجود ما لديهم من بضاعة وقد يكون ذلك بدون مقابل لغايات في نفوسهم هي أبعد ما تكون عن سبيل الله .
لقد دلّ الله الناس على تجارة مباركة بأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . وهذه التجارة التي قالها الله تكمن في أنه يُضاعف أجر التاجر في سبيله سبعمائة ضعف إضافة إلى الفوز برضى الله . والواقع فإن الرجل يؤجر حتى على اللقمة يضعها في فيه امرأته ، فلتكن هذه اللقمة من أطيب ما على المائدة من

طعام . لقد أمرك الله أن تأتي ذوي القربى حقهم والمساكين وابن السبيل وهذا الحق لا يكون في قطعة طعام فاسدة ، أو في فضلات لاتسمن ولا تغني عن جوع ، فهل تريد أن تذهب إلى الله وترى عنده فضلات. جاء الإسلام لينهي الناس عن كل عادة سلبية كانت سائدة في الجاهلية ، ولكن الناس رغم دخولهم الإسلام أبوا أن ينتهوا منها إلاّ مَنْ كان إيمانه بالله فوق كل اعتبار .
وقد نهى النبي عن ذلك بقوله :" شر وليمة يدعى إليها الأغنياء ويُترك الفقراء ".(٥) ثم في الحديث الشريف :" إن الله طيب لا يقبل إلاّ طيباً ". (٦)
عجبت لأناس أقاموا ولائم عامرة بما لذ وطاب من طعام وشراب وفاكهة عليها أناس ما عرفوا الجوع ، وخارجها بالجوار أناس ما عرفوا الشبع ، والقاعدون عليها يكون حضورهم ترفعا للعتب أتوا من بقاع بعيدة عن طيب خاطر لأن صاحب الوليمة انتقاهم انتقاء وألح على حضورهم , بينما لبثت عين جائع بانتظار طفل يخبره الحضور وهو على قرب خطوات , بل أن بيته امتلأ برائحة ذاك الطعام الشهي , ومعاشه لايعينه ليأتي بمثله ٠ كيف تكون وليمة وبالقرب منها جائع ، كيف تكون وليمة وقد أُقيمتْ لأناس أتوا عن طيب خاطر . إن شرط الوليمة هوأن تُشبع جائعاً ، وكلما أكل هذا الجائع المحروم بشهية ، كلما زاد إحسانك إليه . ثمة أناس لا يأكلون اللحم إلاّ في مناسبات كهذه ، فكلّما أقمت ووسّعت وليمتك لهؤلاء ، تحقق شرطها . واعلم أن أكثر الولائم خيراً هي تلك التي تُقا م ولو في السنة مرة واحدة لفقراء ومساكين ويتامى وأبناء سبيل . دوماً عليك أن تبحث في مناسبات كهذه عن أناس أكثر جوعاً حتى تغتني وليمتُك بهم .
أحياناً نرى أشكالاً من التناقض في هذه الولائم ، فبعد أن تنتهي الوليمة يأمر مقيمُها أن يُوزَّع ما فضل من طعام للمحتاجين " في سبيل الله " والواقع يكون " بدل أن يُرمى في القمامة " . فنعلم أن هذا الشخص تذكّر معازيمه الأثرياء عند رأس الوليمة ، وتذكَّر الله عند الفضلات . يأمرك الله أن تنفق في سبيله ما تحب لنفسك ، فدوماً مدّ يدك إلى حيث ما هو نفيس وعزيز عليك وقل : هذه حصة الله . واعطه لأقرب فقير محتاج ، تراه يصل الله. ثم أنفق ما دونه لغير الله لأنك لا تكون مؤمناً ما لم يكن الله ورسوله أحب إليك من نفسك ، وعندما ترى هذه الأولوية في المحبة ، وعطاء ما تحب لمن تحب يتحقق لديك ، اعلم بأنها إشارة كبرى من إشارات الإيمان . وتذكّر دوماً قول ربك لك :" لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وماتنفقوا من شيء فإن الله به عليم ". (٧)
كل مساء .. كل مساء ، يغفو المؤمن ملتمساً موقع الإيمان من روحه ، ملتمساً موقع روحه من الإيمان. يعاتبه إيمانه إن انجرف لاهثاً في المعاصي

، لايدعه يغفو لحظة قبل أن يعاتبه ، وإن لم يرتدع ، يصعّد لهجة العتاب له :
أين موقعك مني يا مؤمن وأنت لاتتقن مهنتك
أين موقعي منك وأنت تهرب من تربية ولدك
أين موقعك مني وأنت لا تحفظ أهلك
أين موقعي منك وأنت تحرجني أمام الله ببذاءتك
أين موقعك مني وأنت تغل يدك
أين موقعي منك وأنت تبخل تكون حبيب الله سخياً .
كل مساء .. كل مساء ، يأبى إيمان المؤمن التخلي عنه في نزوة ،في زلة ، في لحظة ضعف . ينهضُ كلُ يوم إيمان من ركام السنوات ، تنهض كل فكرة إيمان من ذاكرة الماضي .. تتضافر مواقف إيمانه مجتمعه لتسانده في محنته ، مانعة إياه الغور في هوة الآثام . ذلك هو الإيمان المتأصل في الذات المؤمنة ، ذلك هو الإيمان الذي يصبر على أذى صاحبه ويأبى التخلي عنه حتى ينهاه الله ، يلبث ممسكاً بيدَي صاحبه منيراً أمام خطوته ظلمات الدرب . لقد حدث أن أخطأ داو ود خطيئته ، ولكنه عندما نُبِّه إليها ، لبث يبكي أربعين سنة حتى نبتت من دموعه شجرة فقعد تحت ظل شجرة دموعه حتى خاطبه الله :" يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ".
لقد شاء رب العزّة أن تُسجَّل للإنسان حسناته وهو قائم بها ، وألاّ تُكتب ذنوبه وهو يرتكبها على أمل أن يتوب فلا تُكتب عليه فيبسط الله يديه في الليل ليتوب مذنب النهار ، ويبسط يديه في النهار ليتوب مذنب الليل . ويبقى أمل التوبة مفتوحاً حتى يومه الأخير .

مراجع:

١- سورة المائدة ، الآية ٣٣
٢- سورة العنكبوت ، الآيتان ١٢، ١٣
٣- سورة إبراهيم ، الآية ٢٥
٤- رواه البخاري ج٧ – ص ١٢٥ – ط دار الفكر – د. ت
٥- سنن الترمذي عن أبي هريرة
٦- أخرجه البخاري عن أنس بن مالك
٧- سورة آل عمران ، الآية ٩٢

٣- نعمة الاعتدال

شاء الرب أن يأتي آدم متوازناً طبيعياً يمتلك طاقات معتدلة للانسجام مع مختلف مراحل الحياة وفصول الاختلاف في نفسه وفي أي طبيعة تحيط به . ولسوف يورّث هذا الجد العجوز كل هذه المورثات التي لا يملك غيرها لأحفاده الذين سوف يملئون أرض الرب ، يأكلون من نباته ، ويشربون من أمطاره .

حتى لو وُضِع أحد الحفدة في عزلة محكمة دون رشيد ، لتبقى هذه المورثات التوارنية الطبيعية تمكّنه العيش بسكينة وراحة نفس ، وفي ذروة وحشة هول العزلة يترامى إليه أنه كائن مسكون بالله . لسوف يبدو مبتهجاً قدر نجاحه الحفاظ على الإرث ، وتعيساً قدر فشله في مهمة الحفاظ . يستطيع أن يتمتع بطعام شهي ثلاث وجبات في اليوم والليلة ، يتمتع بذروة اليقظة ستة عشر ساعة يمضيها فيما شاء ، يسكن قي عالم من نوم وأحلام ثماني ساعات . لديه قدرات لتعلّم لغات أصقاع الأرض ، يعقد صداقات ، علاقات غاية في الإثارة والحميمية ، يرتدي ثياباً جديدة . كل ذرة من كنوز الإرث تعينه على الانفتاح ، تضفي متاعاً على كل خطوة يقوم بها ضمن مملكة الاعتدال حتى إذا نسي متاعاً ، آتاه فذكّره : ورثتكَ وورثتني لتمتع بي وأمتع بكَ . فينطلق هذا الحفيد بحيوية الفتيان ليقطف عناقيد الراحة واللهو والتسلية والاستلقاء على الظهر ، والتمطي بعد نوم عميق ، والمشي الهوينا ، والترحال ، والإبداع ، وقشر الفاكهة ، وعناق الذكورة والأنوثة ، وصلة الرحم ، وتأمل جمال الطبيعة ، والنظر إلى الطير وهو يطير . ومن ضفة العمر الأخرى يكتشف أن توازنه يُستمدّ من تمتعه بهذه الخواص الجسدية والروحية ، فإن نجنّب فحولة الرجولة ، أو متاع اليقظة ، استرخاء الغفوة ، عمق النوم ، تغيير النسيم ، لذة إتقان المهنة ، فقد السيطرة بزمام توازنه . وإن أفرط في متاع ، أفقده المتاع توازنه في ردّ عقاب كي يقف في حدّه ، وينتبه إلى خطورة الإفراط فلا يأخذ إلاّالقدر ، هنا يستيقظ على قول ربه مستدركاً الغفلة :" إنا كل شيء خلقناه بقدر" ٠ (١) .فإذا أفرطت في الجماع ، عاقبك الجماع ذاته ، وإذا أفرطت في تناول طعام ، عاقبتك معدتك ، وإذا أفرطت في الراحة ، عاقبتك الراحة ، وإذا أفرطت في الاستيقاظ ، عاقبك الاستيقاظ ٠وفي عالم الطب يتأكد لنا ذلك عندما نعلم أن هذا المرض عادة ينتج عن قلة النوم ، وذاك ينتج عن كثرة الجماع بلا ضابط ، وآخر عن سوء التغذية ،

وآخر عن الإفراط في التغذية . ونطا لع بشكل دائم النشرات الطبية التي تبيّن أسباب الأمراض التي تنتج إما عن الإفراط أو عن الحرمان . عندما لا تستحم فإن جسدك يدعوك لأن تغسله ، وعندما تستحم كل ساعة فإنه يدعوك أن تكف عن ذلك . عندما تهمل أسنانك فإنها تعاقبك ، وعندما تحافظ على هبة الله هذه فإنها تؤدي مهمتها وتحافظ على راحتك . إن كل ما لديك هو لراحتك وإمتاعك ولا شيء فيك لإزعاجك أو إقلاقك ، ولكن هذه النعم ذاتها تنتقم منك وتزعجك عندما تزعجها ولاتستخدمها بقدر يحقق لك الإشباع . إن القدر يحقق لك الإشباع . تستطيع أن تستمع لشيء من التلفاز أو المذياع أو المسجل بصوت هادئ مسموع قادر على إمتاعك ، ولكن إذا رفعتَ الصوت إلى آخره فإنك ستدخل عالماً من الصخب يؤذي أُذنيك فيما بعد وقد يُرهق أعصابك . قد ترى شخصاً أصفر الوجه ترتعش كفاه ويشعر بحالة لا اتزان ودوّار ويبدو عصبياً متوتراً ، وعندما تقترب منه تعرف بأنه لايكتفي بالقدر الذي يشبعه من امرأته ، بل يتناول عقاقير مقوّية حتى يأخذ أكثر من طاقته , وأكثر من قدره من هذه المرأة .

يقول الله :" ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة ".(٢) ويبيّن للناس :" وما أصابتكم من مصيبة فبما كسبتْ أيديكم ". (٣)لأن طبيعة الخلق هي طبيعة سوية متوازنة :" وخلق كل شيء فقدره تقديرا ". (٤)

وهكذا تتحول النعمة لدى المفرّط إلى نقمة قال الله :" ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ".(٥) وقال :" ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ". (٦) فالعقاب ليس لغاية العقاب ، بل لمعرفة النعمة والحفاظ عليها وتقديرها . وكذلك على الإنسان أن يُظهر النعمة التي أنعم الله بها عليه ولايخفيها فقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم :" إن الله يريد أن يرى أثر نعمته على عبده ". فتبيِّن للناس أثر النظافة على صحتك وعلى إيمانك حتى يقتدوا بك قال النبي :" إن الله تعالى طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ،جواد يحب الجود ". (٧) وقال :" النظافة من الإيمان ". ونهى أن يُبال في الماء الراكد . وكل هذا حتى يتمتع الإنسان بالنعمة كي لا تتحول إلى نقمة فتعاقب الإنسان سواء بصورة فردية أو بصورة جماعية والله يقول :" وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ". (٨) " كلوا واشربوا من رزق الله ولاتعثوا في الأرض مفسدين ". (٩)

"قل مَنْ حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق

". (١٠) بل حتى على الإنسان أن يعدل في طعامه فمن هدي النبي صلى الله عليه وسلم أ لا يتناول الآكل بيده اللقمة من طعامه قبل أن يبلع اللقمة السابقة .

خُلِق الإنسان متوازناً ولكنه هو الذي يُخل بهذا التوازن بتعامله اللامتوازن مع ملكاته التي أتته بقدر . ليس أمام الإنسان من سبيل إلاّ الاعتدال كي يحافظ على توازنه النفسي والعقلي والعضلي ، ومن نعم الله على الإنسان أنه أرشده إلى هذا الاعتدال . والنبي سن سلوك الاعتدال من خلال ممارسته لهذا السلوك وبالنسبة للطعام فلم يكن يأكل حتى يجوع وإن أكل اعتدل في أكله وإن كان الطعام حاراً انتظر حتى يبرد ليأكل بهدوء ولايزعج عضواً من أعضائه فيقول : إن الله لم يطعمنا ناراً ، فابردوه . ولم يسبق له أن جمع قط بين لبن وحامض ولا بين سمك ولبن ، وكان يأكل بأصابعه الثلاث ويصغّر اللقمة ليريح معدته ولتسهيل الهضم ، ويمضغ اللقمة بشكل جيد قبل ابتلاعها ، ولم يكن يشرب الماء مع الطعام لأنه كما قال صلى الله عليه وسلم :" يد بغ المعدة " واكتشف الطب فيما بعد أن شرب الماء مع الطعام يسبب اضطرابا في عملية الهضم . قال :" لا تجعلوا آخر طعامكم الماء " . وكان يوصي أن يُمص الماء مصاً وألاّ يُشرب واقفاً أو ممدداً إلاّ إذا دعت الضرورة إلى ذلك . الإسلام يدعو لأن يعطي الإنسان كل شيء حقه وأن يتصرف بقدر لأن كل شيء أتاه بقدر . وحتى في العبادة فإنه نهى عن الإفراط . وإذا نظرنا في هذه العبادة سنرى التنوع كي تمتلئ حياة الإنسان بالتنوع ، فالعبادة ليست صلاةً فحسب ولا صوماً فحسب ، بل تشمل الكلمة الطيبة والابتسامة وإزاحة الأذى عن الطريق ، والإتقان في مهارة العمل ، ومساعدة الآخرين ، والصدق ، وصلة الرحم ، وعيادة المريض . ولهذا فإن الرجل الذي يتفرّع لقضاء عمره في المسجد وقراءة القرآن فقط ينهاه الإسلام عن ذلك كما ينهاه أن يصوم طوال عمره " لا رهبانية في الدين ". كل هذا ليبقى الإنسان محافظاً على توازنه الطبيعي وليعيش حياته بصورة طبيعية بعيداً عن الخلل والازدواجية والعقد في مجتمع سوي وا ضح يفهم بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً في القول والفعل . فدوماً يكون الخير كل الخير في الوسطية ولذلك أمرنا الله بالوسطية في كتابه الكريم وقد جعلنا أمة وسطا . يقول :" ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك " لأنك ستحرم نفسك مما وهبها الله ، وكذلك ستحرمها من فضل الصدقة ومساعدة الآخرين . كذلك :" ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا ".(١١) لأنك لم تقدر نعمة الله ولم تتصرف بها بقدر , بل بدّرتها , واليد المبسوطة كل البسط لايثبت فيها شيء . فكل شيء إذا تجاوز حده انقلب ضده , وخير الأمور أوسطها . فالمؤمن يستمد توازنه الروحي من القرآن الذي كذلك خلقه الله بقدر , أعني بالقدر

حتى في تركيبة الحروف وسياق ورود الكلمات ، فإن كل حرف من هذا الكتاب جاء منضبطاً ومقدّراً ومتوازناً حتى يستمد الإنسان منه انضباطه وقدره وتوازنه . ولأضرب مثلاً على ذلك ن فالحياة تقابل الموت في الحياة الدنيا ، ونرى القرآن قد ساوى ما بين الحياة والموت وهو يقول : لولا الموت ، لما كانت حياة ، والحياة هي مستمرة مادام الموت مستمر ، فنرى أن لفظ الحياة ورد في هذا الكتاب ١٤٥ مرة ، وكذلك لفظ الموت ١٤٥ مرة . و ورد لفظ الدنيا ١١٥ مرة ، ويقابله لفظ الآخرة ١١٥ مرة . و ورد لفظ الشهر ١٢ مرة وهذا عدد شهور السنة . و ورد لفظ اليوم ٣٦٥ مرة وهذا عدد أيام السنة .

ونحن نظن بأننا أتينا بمقولة أن المرأة نصف المجتمع ، والواقع أن القرآن ساوى ما بين المرأة والرجل إذ ورد الرجل ٢٤ مرة ، وكذلك وردت المرأة ٢٤ مرة .

وما لايقل أهمية ضمن هذا الحديث في محاور كتاب الإيمان هو أن الإنسان عندما يشدّد على نفسه في أمر ، فإن الله كذلك يشدّد عليه فتتعسر أموره ولاتتم إلاّ بشدّة وعسر ذلك أنه هو الذي مال إلى الشدّة والعجالة ، وإذا يسر على نفسه في أمور دنياه ووسّع وتأنّى ، فإن الله يوسع عليه ويجعل له من أمره رشدا . ولذلك لاعجب أن ترى أن الغايات والأهداف والرغبات تتحقق أول الأمر لأولي التلميحات والإيماءات والتمهّل والصبر وذلك بيسر ، وقد تتحقق حتى عن غفلة منهم ، بينما أهل الشدّة والعجالة فإن أهدافهم ورغباتهم لاتتحقق إلاّ بشق الأنفس . إضافة إلى ذلك فإن التأني يمنح صاحبه حالة من الهدوء والصفاء ، بينما الشدّة تملأ صاحبها بالاضطرابات النفسية والعصبية .وقد جعل الله طاقاته من الصبر لدى الإنسان بصفة عامة حتى أولئك الذين ورثوا الاضطرابات والشدّة عن آبائهم ، ولكن على الإنسان أن يستعين على قضاء حوائجه بطاقة الصبر هذه حتى يرى الله يوسع عليه .

لقد خلق الله كل شيء ، ولاشيء جاء بدون خلق الله له ولذلك فإن الحياة هي غنية بهذا التنوع الهائل في الخلق ، والإنسان سواء أدرك أو لم يدرك فإنه لا يكون متوازناً ومنضبطاً لولا هذا التنوع والاختلاف الذي يبلغ في مخلوقات وحالات حد التناقض . فأنت ترى وتسمع وتشم ، بالمقابل ترى مَنْ لايبصر ولايسمع ولايشم رائحة ، وأنت تمشي على قدميك ، بمقابل مَنْ يمشي على قدم واحدة ، أو جزء من قدم ، أو هو محروم من نعمة المشي على قدمين . وإذا رأيت شخصاً متّقد الذكاء ، فإنك ستجد لقاءه شخصاً بلا ذكاء ، وستجد شخصاً أحمقاً . وإذا رأيت نحلة ترتحق من وردة وأن ما يخرج منها هو شفاء وعافية لك ، فإنك ترى ذبابة تحط على قمامة ومجرد لمسك لها يسبب لك مرضاً . فلولا النحلة لما كانت الذبابة ، ولولا المبصر لما كان الأعمى ،

ولولا الأحمق لما كان الذكي ، ولولا الماشي على قدمين لما كان الأعرج ، كما أنه لولا الليل لما كان هناك نهار ، ولولا الموت لما كانت ثمة حياة . فأنت لن تتزن ما لم تستخدم ما لديك من دموع ، وضحك ، وجماع ، وجهد ، وراحة ، وجوع ، وشبع ، ودفء ، وبرد . والنبي مرّ بكل هذه التجارب حتى كوّن شخصيته المتميزة واستطاع أن يحمل رسالة الله الأخيرة إلى الإنسان . فقد جاع إلى درجة أنه أسند معدته بحجر ، وكذلك ملك عالماً إسلامياً بعد فتح مكة . ضحك ، وبكى ، فرح ، وحزن ، اغترب ، وعاد إلى مسقط رأسه ، عاش زوجاً لواحدة حتى ماتت ، عاش متعدّد الزوجات ، طلّق أكثر من امرأة ، أعاد امرأة كان قد طلّقها ، نساء أنجبن له ، نساء لم ينجبن له ، أحب خديجة حباً شديداً فأنجبت له ، أحب عائشة حباً شديداً ولم تنجب له . عاش راعياً يرعى غنم أهل مكة لقاء قراريط ، أصبح قائداً بارزاً في العالم ، برد ، ودفء ، سمع مَنْ يسبه ، وسمع مَنْ يثني عليه ، رأى مَنْ يصدّقه ، رأى مَنْ يكذّبه ، رأى مَنْ يفديه بماله ونفسه ، ورأى مَنْ أتى لقتله ، أمضى أمي القراءة والكتابة حتى عمر الأربعين ، بات معلّماً يغيّر بعلمه الدنيا لقد عاش النبي حياته حقاً بمرها وحلوها ، فكان هذا الانتقال بمختلف المراحل والتجارب داعياً إلى بناء شخصية قوية قويمة كشخصية محمد التي تركت أثراً على الإنسانية جمعاء من بعده سواء بصورة مباشرة أو غيرمباشرة. وهذا بذاته يحرّك طاقات وقدرات ونزعات الإنسان ويقي مشاعه الجمود أو النوم الأبدي . فأنت تعيش لذة تقديم شيء نافع للآخرين ، ولم يكن هذا الشعور ليتحقق لولا وجود شخص آخر يعيث فساداً في الأرض ، وهذا ليس علواً من شأنه ، بل هو انحدار وانحطاط له على قدر ما هو ارتقاء وسمو لك ، لأن الإنسان بطبيعته لايرتقي بما يقدّمه من شر ، بل ينحدر و هو ذاته يُدرك هذا الانحدار ، وكما أن مقدّم الخير يشم رائحة طيبة من عمله الطيب ، فإن مقدّم الشر يشم رائحة خبيثة من عمله الخبيث . لا شيء يسمو بالإنسان غير الإيمان ، وكلما آمن الإنسان وتفقه في إيمانه كلما سمى وارتقى وغدا فاضلاً . كلما يقدم شخص على فعل شر فإن إيمانه يكون في نقصان . والخير هنا تقديم المنفعة للناس ، والشر تقديم الشر لهم إلى درجة أنهم يتقوا شر هذا الشرير . وهذا خلاف المعصية فقد ترى مؤمناً عصى معصية و هو في إيمانه ولكنه يتوب عنها ولا يكون قد آذى أحداً جراء معصيته . مثل هذه التفاصيل قد لاتلتفت إليها ونعدها من الوسوسة ، ولكن في حقيقة الأمر فإنك تستمد انضباطك وترتيب حياتك من تفاصيل هذه الوسطية ، فهي تعلّمك كيف تتدخل في شؤون حياتك وتضبطها وتقدّرها تقديرا . وكذلك فإنها تُكسبك قوة الشخصية وتحميك من نزعة الانفلات . ليلة سقوط غرناطة وأبوعبدالله الصغير يجهّز نفسه ليخرج مطروداً من ملك لم يستطيع أن

يحافظ عليه هتفتْ به أمه قائلة :" ابكِ مثل النساء مُلكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال ". إن مَنْ يقتصد في أمور صغيرة أو أنه يراها صغيرة ، لايستطيع أن يقتصد في الأمور الكبيرة لأن الصغائر مجتمعة تتحول إلى كبائر .
الكلمة التي تتحدث بها مقدّرة لك ، فلا تلق الكلام على عواهنه ، قد تحتاج في موقف إلى كلمة حق تقولها ، ولكنك تكون قد أسرفت في الكلام فلا تقدر على قولها ، إن الصوت ذاته يعاقبك فلا يعينك على قول كلمة واحدة وأنت في كامل وعيك . فانظر كم مررتَ بمراحل حتى تعلمتَ لغة وأجدت استخدام الصوت بشكل هذدف ، كان ذلك لتتمكن من التواصل في مجتمع يستخدم اللغة وسيلة للعيش والتواصل فيما بينه ، وليس لتقذف الكلام كما لو أنك تريد نفاذه .
والنظر ذاته عليك أن تحافظ عليه فلا تستخدمه إلاّ في الأمور الهادفة التي تنتفع بها، يمكنك أن تستخدمه للقراءة ، للنظر في جمال خلق الله في الإنسان والطبيعة ، للأعمال التي تقوم بها ، لا أن تستخدمه للمواضع الخبيثة التي تقودك إلى الإثم والعدوان . وكذلك السمع فاحرص على على ألاّ تسمع إلاّ الطيب والخير ، وتجنّب إختلاس السمع والتجسس ، فإن سمعك يريد منك أن تستخدمه في مواضع الطيب ، وفي كل هذا عليك أن تهتم بصحة أذنيك وعينيك وفمك وتهتم بصحة كل من حاسة من الحواس التي أُتيتها بقدر . فكم من شخص إنفلت يقهقه في مجلس دون ضابط حتى سقط مغشياً عليه ، وكم من شخص أُسعف من مائدةٍ لأنه تناول طعاماً وشراباً بإفراط ، وكم من شخص تحدّث بإصطراخ في مجلس حتى فقد صوته . وكم من رجل بذر في كل حرث حتى فقد البذر لحرثه .
إذا رفعك الله في مرتبة من مراتب الدنيا ، فلا تنس النظر إلى مَنْ هو أدنى مرتبة منك وكن رفيقاً به .
إذا رزقك الله بمركبة ، فلا تنس أن تسير في الأسواق بقدميك حتى لا تُقتلَع من الأرض .
ولاتبطر بنعمة الله التي أنعمها عليك ، فإن البطر ينتهي بصاحبه ومن " سلّ سيفَ البغي ، قُتل به ".
كن شفيقاً رحيماً لطيفاً بنفسك حتى يرحمك الله الذي :" لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ".
لن تستطيع أن تكون معتدلاً ما لم يستقر الإيمان في جنباتك ، إن درجة الإيمان هي ذاتها التي تحقق لديك درجة الاعتدال مع الذات ومع الآخر .
إذا رزقك الله بولد ، فاكرمه إنه أمانة الله لديك ، لقد أمنّك الله بهذا الولد فرزقك به، فاحفظ أمانة الله. إذا عمل عندك عامل ، فاكرمه . إن الله قد أمن

برزقه لديك ، وأمَرَه أن يقضي لك حاجة من حوائج الدنيا . جعلك الله أميناً على رزقه ، فاعد أمانة الله ، قد حان وعدها قبل أن يجف عرق العامل .

" إن الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه ، ولا ينزع من شيء إلاّ شانه "

وقد بيَّن الله سبل الاعتدال ومن هذا البيان الإلهي :

- :"قولوا حطّة ".
- :"لا تفسدوافي الأرض ".
- " اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم "
- " أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة "
- أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه "
- " أوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم و إياي فارهبون "
- " ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون "
- " فاعفوا واصفحوا "
- وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عندالله "
- " استبقوا الخيرات "
- " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام "
- و أتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله "
- " ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين "
- " وانفقوا في سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا "
- وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب "
- "أدخلوا في السلم كافة "
- "فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله"
- " لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً "
- "ومتعوهن على الموسع قدَره وعلى المقتر قدره متاعاً "
- " فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراً لتعتدوا "
- " وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم "
- " ولاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى "
- " إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولايأبَ كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئاً ، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملّ هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا

شـهيدين مـن رجـالكم ، فـإن لـم يكونـا رجلـين فرجـل وامرأتـان ممـن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكرَ إحداهما الأخرى ، ولا يـأب الشـهداء إذا مـا دعوا ولاتسـأموا أن تكتبـوه صـغيراً أو كبيـراً إلـى أجله "

- " تلك حدود الله فلا تعتدوها "

كـل ذرة فـي الإنسـان مقـدّر لهـا تحقيـق الاعتـدال فـي ذاتهـا سـواء كـان هـذا الاعتـدال إيجابيـاً ، أم كـان سـلباً بمـا يمكـن تسـميته بــ : الاعتـدال الإيجـابي ، والاعتدال السلبي . وقـد ضـرب الله أمثـالاً فـي القرآن تشرح لنـا تفاصيل هذا الاعتدال في جانبيه ، وكذلك فـإن الواقـع الـذي خلقـه الله قرآنـاً منظوراً تتحـول فيه أمثلة الله الواردة في قرآنه المقروء : الطيبون للطيبات والطيبات للطيبين، والخبيثون للخبيثـات، والخبيثـات للخبيثين. وقـد أشـار شـرّاح ومفسـري القـرآن بـأن هـذا يكـون فـي الـزواج ، ويمكـن أن نُخـرج كـلام الله مـن دائـرة التفسـير الضيقة فنجعله قاعدة إعتدالية عامة على مذهب :" الطيور على أشكالها تقع " فيشمل هذا الكـلام العلاقـات الاجتماعيـة ، والإداريـة ، والشـراكة فـي المهـن ، وعقد الصداقات ، ومصدر الأرزاق ، والعلم[⊗] ، والمواقـف ، والأحزاب .

فإن الطيب يميل إلى حزب طيب ، والخبيث يميل إلى حزب خبيث ، والطيـب يميل إلى صداقة طيبة ، والخبيث يميل إلى صداقة خبيثة ، والطيب يميـل إلـى شـراكة طيبـة والخبيـث يميـل إلـى شـراكة خبيثـة ، والطيـب يميـل إلـى علاقـة اجتماعيـة طيبـة ، والخبيـث يميل إلـى علاقـة اجتماعيـة خبيثـة ، والطيـب يميـل إلى قول كلمة طيبة ، والخبيث يميل إلى قول كلمة خبيثـة ، والطيـب يميـل إلـى مصدر رزق طيب ، والخبيث يميل إلى مصـدر رزق خبيـث . :" وذلـك ليميـز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضـه علـى بعـض ".(١٣) يقـول قـرآن الواقـع المنظـور : كمـا أن الصـادق يكرمـه صـدقه ، والفاضـل يكرمـه فضـلـه ، والمخلص يكرمـه إخلاصـه . فـإن الكـاذب يذلـه كذبـه ، والمفسـد يذلـه فسـاده ، والمنافق يذله نفاقه . إن الشاذ يعاقبه شذوذه، وزير النساء تعاقبه امرأة ، ومَنْ يعيق أباه يعيقه ولده ، ومـن يعيـق أمـه تعيقـه ابنتـه و وفـق هـذا المـنهج يمضـي عدل الله :" وكل شيء فصلناه تفصيلا " .

يمضـي الاعتـدال ليشـمل حتـى الولايـة بقـول رسـول الله :" كمـا تكونـون يُـولّـى عليكم " . فقرية طيبة يتولاها والٍ طيب ، وقرية مستبدة يتولاهـا والٍ مستبد . و دومـاً علينـا أن نؤمن بهذه الحقائق و لـو كانـت مؤلمـة حتـى نسـتطيع أن نرنـو

[⊗] العلم بشقيه الإيجابي والسلبي ، إذ يمكن للعالم أن يستخدم علمه لما يرقّه ويسعد الناس ، وكذلك يمكن له أن يستخدم علمه لما يدمّر ويفتك بهم . فكم من عالم إنتفع الناس بعلمهم ، وكم من عالم إتقى الناسُ شر علمهم .

نحو الأفضل . فأن تستبدّ بأهلك وجارك ، استبد بك الشرطي ، والشرطي استبد به قائده . وكذلك يمضي الاعتدال ليتعمم فيشمل حتى غنى وفقر البلاد بقول الله :" والبلد الطيب يُخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلاّ نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ".(١٤) وهذا يمكن أن يشمل البيوت لأن البيت هو بلد صغير ، فيمكن أن نرى بيتاً يأتيه رزقه بإذن ربه ، إلى جانب بيت لا يأتيه رزقه إلا نكدا .

مراجع:

١- سورة القمر ، الآية : ٤٩
٢- سورة البقرة ، الآية : ١٩٥
٣- سورة الشورة ، الآية : ٣٠
٤- سورة الفرقان ، الآية : ٢
٥- سورة إبراهيم ، الآية : ٢٨
٦- سورة الروم ، الآية : ٤١
٧- رواه الترمذي
٨- سورة البقرة ، الآية : ٢٠٥
٩- سورة البقرة ، الآية : ٦٠
١٠- سورة الأعراف ، الآيتان : ٣٢ ــ ٣٣
١١- سورة الإسراء ، الآية : ٢٩
١٢- متفق عليه
١٣- سورة الأنفال ، الآية : ٣٧
١٤- سورة الأعراف ، الآية : ٥٨

٤- خذ الإيمان بقوة

لم يكن الإيمان عبر تاريخه من أجل الإيمان فحسب ، فالإيمان هوشجرة مثمرة طيبة تهب ثمارها للمؤمن , الإيمان هو حياة كاملة ، وهو ما يلي الحياة البشرية • يؤمن الإنسان لا ليؤمن فحسب ، إنه يؤمن حتى يستطيع أن يكون إنساناً ويمارس دوراً إنسانياً في حياته . وليس الإيمان هو أن تؤمن بالله فقط ، ولكن الإيمان أن تؤمن كذلك بالإنسان ، وحق هذا الإنسان في الحياة كحقك ، أن تنظر إلى أي إنسان تراه على أنه يحمل شيئاً من الله ، أن تصغي لما يقوله ولا تستهزئ بما يقول فهو الذي سخّر الله له كل شيء وعلّمه لغة يخاطبك بها ، وعلّمك آداب الإصغاء والقول الطيب الحسن . إن الله ليس بحاجة إلى إيمانك ، ولكن الإنسان هو الذي يحتاج إلى أن تكون مؤمناً ، وأنت ذاتك تحتاج لأن تؤمن حتى تستطيع أن تكون مع نفسك . يعلمك الإيمان أن تكون مع نفسك وألاّ تعتدي عليها ، يعلمك أن تبني جسدك فيكون قوياً . قال الله :" خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون " . وقال :" خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ".

رأت عائشة رضي الله عنها رجلاً كاد يموت تخافتا فقالت : ما لهذا ؟ قيل : من القراءة والعبادة . فقالت : كان عمر سيد القراءة ، وكان أعبد لله منه ، فكان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا أطعم أشبع ، وإذا ضرب أوجع .

ورأى عمر بن الخطاب رجلاً مطأطأ رأسه ، فقال له عمر : ارفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض ، ولا تمت علينا ديننا ، أماتك الله .

وعن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم :" سيد الناس آدم ، وسيد العرب محمد ، وسيد الروم صهيب ، وسيد الفرس سلمان ، وسيد الحبشة بلال ، وسيد الجبال طور سيناء ، وسيد الشجر السدر ، وسيد الأشهر المحرم ، وسيد الأيام الجمعة ، وسيد الكلام القرآن ، وسيد القرآن البقرة ، وسيد البقرة آية الكرسي ، أما إن فيها خمس كلمات في كل كلمة خمسون بركة ".

انبعثت إلى الحياة لتعيشها وتكتشفها ، تستمتع بمتاعها وتتألم بآلامها . خذ الحياة بقوة وعشها بقوة واعلم أنه لايستقبل القوة إلاّ مَنْ كانت به قوة . عليك أن تبني جسدك وتبعد عنه مَوَاطن الوهن .

أن تقوم بعمل واحد بقوة ، خير من أن تقوم بعملين بوهن . أن تقرأ صفحتين بقوة ، خير من أن تقرأ عشرين صفحة بضعف . يمكنك أن تؤجل عمل اليوم إلى الغد عندما تدرك ضعفك إزاءه أن تؤجله خير من أن تقدّمه بضعف . خذ قسطاً من الراحة بين عملين ، راحة النفس وراحة البدن . كن حذراً من الجري خلف الملذات فإنها تهلك النفس والبدن معاً . قال الإمام الشافعي رحمه الله :" أربعة تقوي البدن ، أكل اللحم ، وشم الطيب ، وكثرة الغسل من غير جماع ، ولبس الكتان . وأربعة توهن البدن : كثرة الجماع ، وكثرة الهم ، وكثرة شرب الماء على الريق ، وكثرة أكل الحموضة . وأربعة تقوي البصر : الجلوس تجاه القبلة ، والكحل عند النوم ، والنظر إلى الخضرة ، وتنظيف الملبس . وأربعة توهن البصر : النظر إلى القذر ، والنظر إلى المصلوب ، والنظر إلى فرج المرأة ، والقعود في استدبار القبلة . وأربعة تزيد من الجماع : أكل العصافير ، وأكل الأطريفل الأكبر ، وأكل الفستق ، وأكل الجرجير . والنوم على أربعة أنحاء : فنوم على القفا وهو نوم الأنبياء عليهم السلام يتفكرون في خلق السموات والأرض ، ونوم على اليمين وهو نوم العلماء والعباد ، ونوم على الشمال وهو نوم الملوك ليهضم طعامهم ، ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين . وأربعة تزيد في العقل : ترك الفضول في الكلام ، والسواك ، ومجالسة الصالحين ، والعلماء ". الإنسان الضعيف يرى كل ما في الحياة ضعيفاً إلى أن يراها باردة لا دفء فيه فيبلغ درجة من البرود البدني والروحي يتمنى فيها الموت لأنه لايرى دفئاً فيه وفي الحياة . إن الإنسان القوي يرغب بمزيد من الحياة ويستعد للذهاب إلى آخر ركن من العالم في سبيل ألا يمرض يومين ، أو أن يلحق أملاً قد يشفي داءً ألم به . دوماً فإن صناع الأفكار العظمى والقرارات العظمى هم الأقوياء وليسوا الضعفاء ، والله بطبيعة الحال هو قوي وليس ضعيفاً ولذلك فحتى المؤمن القوي هو خير عنده من المؤمن الضعيف ، واليد العليا هي خير من اليد السفلى ،والإنسان يميل إلى فكرة الانتحار عندما يستبدبه الضعف ، والانتحار ليس قوة ولا شجاعة بأي حال ، ولكن الشجاعة كل الشجاعة تكمن في مدى قدرة المقاومة لدى الإنسان في أحلك ظروف الحياة ، ولذلك فإن أيوب لم ينتحر حتى وهو في ذروة الألم ، وكذلك إبراهيم حتى وهو يُقذف في النار وهذا حدث مع كل الأنبياء ، ثم مع كبار العلماء والأفاضل فالمقاومة تُزيد الإنسان قوة ، والاستسلام يزيده ضعفاً على ضعف .

فكان الإنسان وعبرتاريخه كائناً باحثاً عن عوامل القوة البدنية والروحية ونجد اهتماما بالغاً بعوامل القوة لدى المسلمين . وكان لعلي بن أبي طالب اهتمام بالغ في ضرورة اكتساب القوة العضلية والفكرية وقاده اهتمامه إلى

أن كتب :" مَنْ ابتدأ غذاءه بالطعام المملح أذهب الله عنه سبعين نوعاً من البلاء ، ومَنْ أكل في اليوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه ، ومَنْ أكل كل يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسده شيئا يكرهه . واللحم ينبت اللحم ، والثريد طعام العرب ، والبسفارجات تعظم البطن وترخّي الإليتين ، ولحم البقر داء ولبنها شفاء وسمنها دواء . والشحم يخرج مثله من الداء . والسمك يذ يب الجسد ، وقراءة القرآن والسواك يذهبان البلغم . ومن أراد البقاء – ولا –بقاء – فيباكر بالغذاء ، وليبكر العشاء وليلبس الحذاء (كناية عن المسير) . ومن أراد الصحة فليقلل من غشيان النساء ، ولن يتداوى الناس بشيء مثل السمن ". والحجاج بن يوسف الثقفي كان باحثاً عن أسباب القوة ويسأ ل عنها أطباء عصره وقد نصحوه :" لاتنكح من النساء إلا فتاة ، ولا تأكل من اللحم إلا فتياً ، ولاتأكل المطبوخ حتى ينعم نضجه ، ولا تشربن دواءً إلاّ عن علة ، ولاتأكلن من الفاكهة إلاّ نضيجها ، ولا تأكلن طعاماً إلاّ أجدت مضغه ، وكل ما أحببت من الطعام ولا تشربن عليه ، فإذا شربت فلا تأكلن عليه شيئاً . ولا تحبس الغائط والبول ، وإذا أكلت بالنهار فنم ، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة ".

يكتسب الإنسان القوة العضلية من الطعام, ويكتسب القوة الفكرية من المطالعات, والله قد أكرم الإنسان بأصناف وألوان الطعام والشراب ليستخدمها وألاّ ينسى نصيبه من الدنيا قال :

" كلوا من طيبات ما رزقناكم ".

" كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين "

" كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان "

" كلوا مما رزقكم الله واشكروا الله "

"وكلوا واشربوا حتى يتبَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ".

ثمة حكاية قديمة تروي أن رجلاً في مقتبل عمره أراد أن يذهب في تجارة ليأتي ببعض الما ل ، وفي الطريق رأى ثعلباً مريضاً بالكاد يتحرّك ، فوقف سائلاً نفسه : كيف يأكل هذا الحيوان الواهن ؟ وفي أثناء تأمله وشروده بأمر الثعلب ، لاح له أسد قوي يحمل فريسة ، فجلس بالقرب من الثعلب وبدأ يلتهم فريسة حتى شبع وانصرف . بعد ذلك رأى الثعلب الواهن يزحف إلى بقايا الفريسة فيأكل هو الآخر حتى الشبع وينصرف إلى مكانه . وقف الشاب قائلاً في نفسه : إذا كان الله يبعث أرزاق مخلوقاته جميعاً فما لي أركض وأشقى حتى أُطعم نفسي . وعاد إلى بيته يقول لأبيه قصة الثعلب الذي جعله يعود من نصف الطريق . فقال له الأب : أنت مخطئ , تنظر إلى ظواهر الأمور،ليس المهم ما تأكل , المهم من أين أتيت بطعامك ٠ إني أريد لك أن تكون أسداً تأكل الثعالب من فضلاته ، لا أن تكون ثعلباً واهناً تأكل بقايا

السباع ٠ والله كريم بالإنسان :" وأنزلنا عليكم المن والسلوى " وقد أنزل مائدة على بني إسرائيل عليها سمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل رغيف زيتون وحب رمان . ثم بيّن للإنسان ألوان الطعام :"وفاكهة مما يتخيرون "." ولحم طير مما يشتهون " .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب اللحم ويقول بأنه سيد الطعام في الدنيا والآخرة . وكان كذلك يأكل القثاء بالرطب والملح . وكان صلى الله عليه وسلم يحب الهندباء والبقلة والباذروج ، وكان يأكل اللبن والتمر ويسميهما :" الأطيبين " ولم يكن يأكل من الشاة سبعاً : الذكر ، الأثنيين ، المثانة ، المرارة ، الغدد ، الحيا ، الدم ، بالإضافة إلى أنه لم يكن يحب أكل الكليتين . ومن دعائه :" اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ".(١) فالإنسان الخاسر لصحته هو بذات الوقت خاسر لعقله وفكره وعمله لأن قوة الإنسان هي مصدر أي حركة تبدر منه وقد بيّن لنا النبي :" من أصبح منكم في سربه ، معافىً في جسده ، وعنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ". (٢) في احدى الأيام سمع النبي صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين عائشة تقول :" اللهم إني أسألك العفو والعافية " فقال لها :" لقد دعوتِ بخيَري الدنيا والآخرة ". خلق الله ألوان وأشكال الطعام والشراب من أجل قوة أبدان وعقول الناس ودعاهم إلى هذا الطعام :" يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ". (٣) " قل لا أجد في ما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ". (٤) وإذا كان هذا الطعام يقوي البدن والعقل معاً فإنه في الحين ذاته يعالج البدن ويطرد منه الأمراض . نتوقف هنا في لمحة سريعة أمام العلاقة بين البدن وما خلق الله من طعام , وهي مكتشفات طبية معاصرة جرت وفق تجارب عديدة في كبرى مخابر التحليل في العالم ٠

فالتفاح رغم أنه يساعد على نمو الجسم وأداء وظيفة الرئتين ، يحمي الإنسان من خطر التلوث البيئي ويخفف من آثار التدخين ، كونه يحتوي على مادة " الكوريدسيتين " المضادة للتسمم ، وكذلك فهو يحتوي على مواد تقاوم الربو وتيسر عملية التنفس للمصابين بأمراض الرئة والتنفس . بينما أوراق البقدونس تساعد على طرد الغازات والانتفاخات والتقلصات والمغص المعوي والمعدي ،كما تساعد على إدرار البول وتنقية الكلية وتفتيت حصاوي المجاري البولية وخفض الكوليسترول وبولينا الدم ، وتخفف هذه الأوراق من آلام مرض النقرس . والباذنجان -إضافة إلى قيمته الغائية الثمينة كونه يحتوي على كميات لابأس بها من المواد الغذائية حيث تصل نسبة السكريات (جلوكوز – فركتوز – سكروز) إلى

٤ % وأهم الأملاح الموجودة في الباذنجان ، (٣ B، C)- فإن فيتامين (C) (حمض الأسكوربيك) يلعب دوراً هاماً في عمليات الأكسدة والاختزال والتبادل الكربوهيدراتي وتنظيم نفاية الوعية الدموية . أما الليمون فقد أكد الطب أن كل مائة غرام من عصيره تحتوي على ٢٠ ملغ من الكالسيوم و٩٠ غرام من البوتاسيوم ، ونصف غرام من الحديد وكميات قليلة من المنغنيز والفوسفور وهي مجتمعة تحافظ على المعدل القلوي للجسم ، كما أنها تحتوي على ٨٠ ميكرو غراماً من النياسين الواقي من مرض البلاغرا ، و٥٠ ميكروغراماً من الثيامين الواقي من مرض الأسقربوط ، و١٧ ميكروغراماً من السترين الذي يعمل على تقوية ومتانة الشعيرات الدموية وحمايتها من التمزق ، و٥٠ ميكروغراماً من الريبوفلافين اللازم لتنظيم عملية الأكسدة والتمثيل وهضم الأغذية الدهنية والبروتينية . والليمون يعالج مرض النقرس كونه يذيب الأملاح المترسبة في المفاصل ، وهو يطرد السموم من المعدة والكبد ويحمي خلايا الجسم ويقوي أجهزة الدماغ وينقّي الدم .

وأثبت التحليل الكيماوي لليمون أن عصيره يعقم الخضروات التي تؤكل نية ويقضي على الجراثيم الموجودة فيها ، وكما أنه يقوي عضلة القلب والشرايين ، ومضاد قوي للإصابة بالبرد والزكام والرشح واحتقان الكبد ويفيد المرارة . وعند التهاب المسالك البولية فهو يطهر الكلية والبروستاتا والمثانة ، لأنه يساعد على إدرار البول وطرح الفضلات ويقوي الأنسجة والعظام والأوعية الدموية حتى قيل فيه أنه مستودع دواء . هذه نماذج كأمثلة على أن كل ما في الطبيعة يساعد الإنسان ويمدّه القوة والنشاط ويطرد منه الوهن, ولكن الإنسان نفسه هو الذي يصر على الكسل والمرض والضعف إن شاء ، وهو الذي يقي بدنه وفكره كل عوامل الوهن والإهمال .فالإهمال هو شكل من أشكال فسح المجال للأمراض , فالقوة تكون بالحياء , وبالعمل , وبالكلمة الطيبة , وبالنظافة ۰ كان النبي ينهى أن يهمل المسلم صحته فعندما رأى رجلاً وقد تفرق شعره قال :" أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه ". وعندما رأى رجلاً يرتدي ثياباً متسخة قال :" أما كان يجد هذا ما يغسل به ثيابه ". (٥) وقد دعا إلى كف الأذى عن طريق المسلمين حتى جعل ذلك شعبة من شعب الإيمان

وتمضي شُعَبُ الإيمان لتحمي المؤمن الخلاعة والفساد والأمراض ، فعن يعلى بن أمية :" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يغتسل في فضاء مكشوف ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله عز وجل حَيِيٌّ ستِّير يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر ". (٦)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم :" مر بقبرين ، فقال : إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة ". (٧)
يدعوك دينك أن تكون قوياً في أخلاقك ومعرفتك ، فكثير من الحيوان يتمتع بقوة أبدان لا يبلغها إنسان ، ولكن هذا الحيوان القوي البدن ذاته يغدو ضعيفاً ومستسلماً إزاء قوة أفكار إنسان أضعف منه بدناً . ومن هنا فإن قوة الإنسان تبقى ناقصة ما لم تسندها قوةُ أخلاقية . فإن تمتع شخص بمظهر حسن وكان داخله خاويا , فذلك لاينفعه بشيء , وكذلك لو تمتع بلياقة بدنية , وكان بلا ذكاء , فهذا لاينفعه بشيء •وفي هذا قيل الكثير من الشعر , ورويت حكايا عديدة • يقول مبشّر بن الهديل الفزاري :

ولا خير في حُسن الجسوم وطولها
إذا لم تزن حُسَن الجسوم عقول

وقال ابن شرف القيرواني :

احذر محاسنَ أوجه فقدت
محاسن أنفس ولو أنها أقمارُ

سُرجٌ إذا نظرتَ فإنها
نورٌ يضيءُ وإن مسستَ فنارُ

وكان الوزير ابن المغزي الذي تولى الوزارة في عهد البويهيين في بغداد ويحفظ خمسة عشر ألف بيت من الشعر العربي القديم يقول :

رأيت الحُسنَ في أدبٍ وعقلٍ
وفي الجهلِ الدمامةُ والهوان

بل حتى ثقافة أدب الحوار تُضفي قوةً جمالية على إنسان قد لا يتمتع بجمال المظهر فيتفوّق البيان على ذلك ، يقول شبيب بن شبيبة :

وكم من ماجد أضحى عديماً
له حسنٌ وليس له بيانُ

وما حسن الرجالِ لهم بزين
إذا لم يُسعد الحُسنَ اللسَانُ

ويقول المتنبي:

وما الحسن في وجه الفتى شرفاً
إذا لم يكن في فعله والخلائق

ثمة حادثة طريفة وقعت مع أبي حنيفة وقد كان جالساً يقرأ دروساً لأصحابه ومستمعيه ، وإذا برجل ذو هيئة يدنو إلى مجلسهم فقال الإمام لأصحابه : تثبتوا كي لا يأخذ هذا الرجل عنكم شيئاً ٠ فلما جلس الرجل ذوالهيئة وأبو حنيفة يذكر أوقات الصلاة قائلاً : أما الصبح فوقته من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعتْ الشمس زال وقتها ٠ فقال الرجل : فإن طلعتْ الشمس قبل الفجر فكيف يكون حكمها ؟ فالتفت أبو حنيفة إلى أصحابه وقال : كونوا كما شئتم فإن الأمر على خلاف ما حسبنا . وقال : آن لأبي حنيفة أن يمدّ رجله ٠

يمكن أن نجد الدعوة إلى العناية بلياقة الجسد والنفس حتى في وقائع تدعو إلى مظاهر المزاح والتسلية والترويح عن النفس لأن القلوب تمل النمط الواحد من العيش ٠ وفي هذا كان يوجد في مكة شخص دميم الوجه ، خشن النفس يدعى " زاهر " والناس يتجنبون صحبته ويتركوه في عزلة عنهم ، ومرة رآه النبي في السوق وكان يقف بمفرده ، فجاءه النبي من خلفه وأغمض عينيه ، فكان يتساءل عمّن فعل له ذلك حتى التفت فاحتضنه النبي ، فقال هذا الرجل بأنه وجد حلاوة لم يجدها وهو يلامس النبي . وعندما مرَّ النبي على أصحاب الدركلة[⊗] قال :" جدوا يابني أرفدة حتى تعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة ". (٨) نجد في كتاب الاسلام مظاهر أخرى للدعوة إلى القوة من خلال التمسك بالخلق الحسن , وستر النفس , وستر الآخرين , فكيف تكون قويا وقد أفشى شخص سرك الذي تضعف عند ذكره , وكيف تكون قويا في بدنك وقد ذهبت أخلاقك في مواقف بينة في الناس ٠

فأنت قوي بقوة خلقك وقوة مساحة الستر التي تنعم بها , إن أي إنسان يمكن أن يمشي وسط المدينة عاريا تحت ثيابه , لأن الناس جميعا يمشون معه عراة تحت ثيابهم , ولكن هل تسير وسط المدينة عاريا فوق ثيابك . فالإنسان يمتاز عن الحيوان بالأخلاق أكثر مما يمتاز عنه بالنطق لأن الحيوان هو كائن غير أخلاقي إضافة إلى أنه كائن غير ناطق . الإنسان يلتزم بالأخلاق ، يلتزم بالعيب ، يلتزم بالحياء ، حتى يرتقي في درجات إنسانيته ، وهذا ليس تراجعاً ولا نقصاً بقدر ما يكون رقياً وسمواً وجمالاً ، ومن كل ذلك يستمد قوته في المجتمع الذي ينتمي إليه ٠ هذه الالتزامات هي ليستْ قيداً له على قدر ما هي حرية بشرية وتميّز بشري عن سائر الكائنات الأخرى . فكم من شخصٍ بُلي بنزعة سلبية ، ولكنه لبث يصارعها ويخفيها حتى مات ، وكم من شخصٍ آثر الموت على أن تظهر له سمعة سيئة . وقد

[⊗] الدركلة : لعبة للعجم وضرب من الرقص أيضاً . مختار الصحاح

وعد الله هذا الإنسان الباحث عن الستر بأن يلقي عليه الستر حتى في القيامة, فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" لا يستر عبدٌ عبداً في الدنيا إلاّ ستره الله يوم القيامة " . والستر هو قوة للإنسان ، فالإنسان يكون قوياً كذلك بالسمعة الطيبة على قدر ما يكون ضعيفاً بسمعته السيئة .

:" لو أنما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحر يمده من بعده سبعةُ أبحر ما نفذت كلمات الله ". (٩)

أن تعيش الحياة بقوة في سبيل الله خير لك من أن تمضي إلى الموت بضعف في سبيله . إنك تولد على فطرتك ، وعندما تنفتح كوردة فإن الأشواك تأخذ شكلها في روحك ، هذه الأشواك التي انتقلت إليك مع نطفة التكوين ، هنا ستتحقق بطولتك على قدر نجاحك في اقتلاع هذه الأشواك التأسيسية من جذور نطفتك ، أو سينحدر بك وهنك لتغدو فريسة لهذه الأشواك في الدرك الأسفل من الوهن .

مراجع:

١- رواه الحاكم والترمذي
٢- رواه البخاري وابن ماجه
٣- سورة البقرة ، الآية ١٦٨
٤- سورة الأنعام ، الآية ١٤٥
٥- رواه أحمد وأبو داود
٦- رواه أبو داود و النسائي
٧- أخرجه البخاري ومسلم
٨- عن مختار الصحاح ، في د ر ك ل
٩- سورة لقمان ، الآية ٢٧

٥- الواقع والمتخيَّل

التصورات والتخيلات التي تسبح في أذهاننا تعجز أن تخلّف الرائحة التي تخلّفها الأفعال ، إنها لا تخلّف أكثر من رائحة التصورات والتخيلات ، كما أن الأفعال لا تخلّف إلاّ رائحة الحقائق الغارقة في واقعيتها، وأنه لمن الخطأ الفادح ظننا شم روائح الواقع من أفعال لم تقع إلاّ في أذهاننا .
عندما تتخيّل واقعاً لم يقع فتقنع نفسك بأنه واقع لتستمتع به كبديل عن الفعل الذي لم تقدر عليه ، أو أنك تخجل القيام به ، فإنك ومع أول إشارة للواقع تُدرك صدمته وأنك طُردت من عالم من خيال . الخيال هو من صناعة أفكارك ، ولكن الواقع هو من صناعة أحداث تقع بغتة . ومن هنا يكون مفهوم البعض لمسألة الموت وما بعد الموت مفهوماً خيالياً بحتاً لا صلة له بالواقع لأنه لم يقع عليه . وهذه هي ذروة المشكلة من خوف هذا البعض من الموت إلى درجة الرعب ، بل إلى درجة الموت رعباً . فكل ما يتخيله هذا البعض هو : ظلام قبر مهجور ، والاستلقاء في حفرة أبدية تحت التراب . ويذهب الخيال بفريق متفائل من هذا البعض إلى تصوير الجنة وتصوير نفسه فيها ، فهي عالم ممل لأن كل شيء موفور ، ولا عمل سوى الطعام والشراب والجماع ، أي أن الإنسان هناك يبلغ ذروة الشلل .
المفهومان ليس لهما أي صلة بالواقع لأنهما لم يقعا فيتخيّل المتخيل بأنهما وقعا وهو يعيشهما قبل أن تطأ قدمه القبر وقبل أن تنفتح عيناه في جنة . فالإنسان تتغير أفكاره من سنة إلى سنة ، ومن عقد إلى عقد ، وكذلك يتغير خياله لأن لكل مرحلة عمرية أفكارها وأحلامها وخيالها هذا كله خلال عمر قصير لا يتجاوز قرناً واحداً من الزمن وفي واقع حياتي مختلف عن أي واقع آخر فيما بعد الحياة الدنيا . ولعل الإيمان يقدّم للمؤمن شيئاً من هذا الواقع الذي لم يقع لأنه يؤمن بأن ما أتى من الله هو واقع وليس خيالاً إلهياً . فهو إذن يؤمن بأنه الآن بين يدَي ربه ليكون تحت تصرف ومشيئة ربه, وكذلك فهو سيتجه إلى يدَي ربه ليكون تحت تصرف ومشيئة ورحمة ربه ، فهذا الرب ذاته بإمكانه أن يجعل حياته الدنيا أشد عليه وأضيق من أي قبر ، وهو لا يستطيع أن يتحرك إلاّ بمشيئة الله وما قدّره عليه الله ولا يستطيع أن ينظر نظرة أو يخطو خطوة لم يقدره الله عليها ، فالإنسان في محراب الإيمان ليس حراً طليقاً بعيداً عن متناول يمينَي الله مادام لم يمت ، وأن الله غير قادر عليه إلاّ إذا مات وارتفعت روحه إلى السماء ، بل أن الله قادر أن

يفعل بـه مـا يشـاء وهو حـي يـرزق فـي الحيـاة ، وقـادر أن يرفعـه إليـه روحـاً وجسداً حياً لو شاء. وقد أوضح الله هذه الحقيقة أمـام الإنسـان المؤمن :" إنمـا مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنـاه من السماء فـاختلط بـه نبـات الأرض ممـا يأكل النـاس والأنعـام حتـى إذا أخـذت الأرض زخرفهـا وأزينـت وظـن أهلهـا أنهـم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كـأن لـم تغن بـالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ". (١) وكذلك أوضـح فـي سـورة " الحديـد " بقولـه تبارك وتعالى :" اعملـوا إنمـا الحيـاة الـدنيا لعب ولـهو وزينـة وتفـاخر بينكم وتكـاثر فـي الأمـوال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفـار نباتـه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ". (٢)
وفـي القصص يقول رب العزة :" ومـا أوتيتم مـن شـيء فمتـاع الحيـاة الـدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلـون ". (٣) وكـذلك يـأتي خطـاب الله إلى الذين يؤثرون الحياة الدنيا بعيداً عن الإيمان والخطاب ذاته هو دعوة لهم إلـى الإيمـان ومـن قولـه لهـذه الطائفـة :" إن الـذين لا يرجـون لقاءنـا ورضـوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غـافلون ، أولئك مـأواهم النـار بما كانوا يكسبون ". (٤) ويقول :" من كان يريد الحيـاة الـدنيا وزينتهـا نـوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخثـون ". (٥) ويقـول :" وويـل للكـافرين مـن عذاب شديد ، الذين يستحبون الحيـاة الـدنيا علـى الآخـرة ويصـدون عن سبيل الله ويبغونـهـا عوجـا أولئـك فـي ضــلال بعيـد ". (٦) ويصـفهم بقولـه :" إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا ". (٧) وليس هذا نهيـاً عن الحياة الدنيا ، بل إن الله دعـا الإنسـان ليأخذ نصيبه مـن الـدنيا علـى ألاّ يميل إليها كل الميل فتنسيه ربه أو تجعله يكره لقاء ربه حتى لا يفارق الـدنيا . وقد مدح الله مَنْ يجمع بين الدنيا والآخرة بقولـه :" ومـنهم من يقـول ربنـا آتنـا فـي الـدنيا حسـنة وفـي الآخـرة حسـنة وقنـا عـذاب النـار ". (٨) وقـال فـي خليلـه إبراهيم :" وآتينـاه فـي الـدنيا حسنة وانـه فـي الآخـرة لمـن الصـالحين ". (٩) وقال علـى لسـان موسـى :" واكتب لنـا فـي هـذه الـدنيا حسـنة وفـي الآخـرة انـا هدنا إليك ". (١٠)
ولذلك فإن الإسلام دعا الناس ليظنو خيراً بالله الذي يغفر لهم ذنوبهم حتـى لـو كانت كزبد البحر بقول النبي وألاّ يقنطوا من رحمة الله الغـافر للـذنوب جميعـاً الذي لا غفور ولا رحيم غيره . وبهذا الإيمـان السـاطع في النفوس والقلـوب فإن الإنسان الحي هو ذاته الإنسان الميت في خضوعه لقدرة الله ، فـلا شـيء يتغير في هذه العلاقة .
قدرة الله علـى الإنسـان لاتكـون أكثـر لـدى موتـه ، بـل هـي القـدرة ذاتهـا وهـو الإنسـان الخاضـع ذاتـه لتلك القـدرة الإلـهيـة ، ومـا يتغيـر هـو أن هـذا الإنسـان الـذي وصـل الحيـاة بعـد مـروره بمراحـل مـا قبـل الحيـاة ، فإنـه يـدخل مرحلـة

جديدة لا نعرف شيئاً عنها ، وكما أن الإنسان انسجم مع حياته الدنيا ، فلماذا لايكون الراحل منسجماً في المكان الذي حل فيه ، والإنسان هو دائم القلق من مكان سيتجه إليه لأنه يخاف ألاّ ينسجم معه ، ولكن لديه القدرة الكافية لهذا الانسجام ، فرجل سيواجه شهرين من السجن بعد سنة ، قد يعيش سنة كاملة من اللا استقرار والتوتر والتصورات السلبية عن وضعه في السجن ، ولكن عندما يعيش واقع هذين الشهرين ، سينسجم وسيكتشف عالماً جديداً عليه ويكتشف كم كان ساذجاً وسطحياً في كل ذاك التوتر والتخيل طوال سنة كاملة ، فهو الآن يعقد علاقات جديدة بواقع جديد ، وفيما بعد قد يتردد إليه لزيارة أصدقاء ، إنه بمحض إرادته هذه المرة يقوم بزيارة ذاك المكان الذي سبّب له كل ذاك الرعب من خلال تخيله له . ومَنْ قال بأن رجلاً مات منذ مليونَي سنة هو غير منسجم في المكان الذي فيه وكان قد انسجم مع الحياة من خلال عشرين سنة فقط .

إن حسن الظن بالله وبأن مغفرته وسعتْ كل شيء يقدِّم نفحات مشرقة لأهل ذاك الخيال السلبي القاتم . وكان النبي يقول عن رجل يتقلّب في الجنة .. أو بقوله الحرفي حسب رواية البخاري :" رأيتُ رجلاً يتقلّب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانتْ تؤذي المسلمين " وإن بادرك ريب فاعبد " ربك حتى يأتيك اليقين " ويطمئن قلبك وأنت تذكر الله . مرة جاء رجل لعلي بن أبي طالب قائلاً بأنه ارتكب ذنباً ، فدعاه علي إلى التوبة ، ثم عاد مرة أخرى قائلاً بأنه أذنب مرة أخرى ، فدعاه مرة أخرى للتوبة ، ثم عاد مرة أخرى قائلاً بأنه فعل كذلك ، فأعاد عليه علي بأن يتوب. فقال الرجل دهشاً : إلى متى ؟! . فقال علي : إلى أن ييأس الشيطان . إن عليك أن تُيئس طاقة الشر لديك بظنك الحسن بالله وتقلّد أباك الأول بسؤا ل العفو ، ومادام الله هو الذي هداك لسؤا ل العفو فإن عفوه يتسع ذنبك مهما كان حجمه ، فلا توجد ذنوب لا تُغتفر بالتوبة وعندها يُمتّعك الله متاعاً حسناً ويزيدك قوة على قوة . الإيمان يأتي فيبدّد هذا الخوف من نفوس المؤمنين فالمؤمن كفاه طمأنينة أنه يحفظ من كتاب إيمانه :

- " الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " الزمر ٤٢
- " أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة " النساء ٧٨
- " كل نفس ذائقة الموت " آل عمران ١٨٥
- " وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد " ق ١٩
- "لكل أجل كتاب " الرعد ٣٨
- " كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون " القصص ٨٨

والمؤمن مستقر في طمأنينته لأنه مؤمن بأن كل ما في الأمر أنه لحظة الموت سيأتي ملاك ليسلّم عليه :" والذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون : سلام عليكم " النحل ٣٢
وقد أمضى النبي عمره وهو يشرح للناس كتاب الإيمان وينزع من قلوبهم الرعب من الموت إلى أنه إستطاع أن يوصلهم إلى إيمان مفاده أن الموت هو مرحلة ما قبل اللقاء بالله وأن الإنسان حتى يلقى الله وينظر إليه لابد له أن يمر بالموت قبل ذلك, وقد أوضح النبي تفاصيل هذا الإنتقا ل ، أو لنقل الإرتقاء من الأرض إلى حيث الله بقوله :" إذا إحتضر المؤمن أتته الملائكة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أخرجي أيتها الروح الطيبة راضية مرضياً عنكِ إلى روح و ريحان . فتخرج كأطيب من ريح المسك حتى أنه ليتناوله بعضهم بعضاً حتى ليأتوا به باب السماء فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ، فيأتون به أرواح المؤمنين فهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ". (١١)
وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قا ل : ربك يقرئك السلام . وأما ما مضى فإنه يتحول إلى ذكرى ، فقد تركت الحياة فيه ذكرى طيبة وأحسنت إليه ، كما أنه ترك فيها ذكرى طيبة وأحسن إليها وقد صوّر النبي هذا الماضي بشكل شجرة طيبة ، استظل بضلها راكب وترك عندها ذكريات ، وتركت لديه ذكريات ، بمعنى أنها أحسنت إليه وإنه أحسن إليها ثم انطلق يكمل مسيره . ونص الحديث يروي : " ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها ". (١٢)
وقد توسع النبي في شرح ذلك لعائشة التي كانت متعلقة بالحياة وتكره الموت فعندما قال :" مَنْ أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومَنْ كره لقاء الله كره الله لقاءه " . قالت له : كلنا نكره الموت يا رسول الله . فقال لها : " ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا بُشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ". (١٣)
وكان يصر على أن يحسن المؤمن الظن بالله وبعفوه ومغفرته لأن ذلك يفتح في نفسه باب ا لحب إلى ملاقاة الله وقد قال للناس :" لا يموتن أحدكم إلاّ وهو يحسن الظن بالله ". (١٤) وهذا بذاته يأتي على مسألة رسم واقع للجنة في / المتخيَّل / وأخذ موقف واقعي منها . فأنت تتخيَّل نمط العيش في قارة على البعد منك ، ولكنك عندما تنخرط في نسيج مجتمعها قد ترى نقيض ما كان في خيالك وأنت في كل ذاك البعد . هذا مع نمط الحياة على سطح الأرض وفي فترة زمنية قصيرة ، فكيف إذا اختلف الزمان و المكان وأُعيد تشكيلك كله بهيأةٍ مختلفة على ما أنت عليها في واقعك الدنيوي شكلاً ومضموناً ، وكذلك بعد الاكتشافات والتطور البشري . فأنت تكون في واقع

لم يكن بمقدور مخيلتك أن تتخيله بنص الحديث :" فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر في بال بشر ". فتكون أكثر نضجاً ومعرفة بتاريخك وحقيقتك وبسر العلاقة التي بينك وبين الله ، وهذا ما يجعلك ترتقي فتنظر في الله وتراه رأي العين المجردة في ذاك المكان الأكثر أمناً ورقياً الذي أعده الله للإنسان . يقول الله :" وننشئكم فيما لا تعلمون ". (١٥) كان أمير المؤمنين المنصور ذات ليلة نائماً فانتبه مرعوباً ،ثم عاود النوم ففزع مرة أخرى ، وعاد للنوم ، لكنه فزع مرة ثالثة . ويروي الربيع أنه قال : يا ربيع . قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : لقد رأيت في منامي عجباً . قال :ما رأيت جعلني الله فداءك . قال : رأيت كأن آتياً أتاني فهينم بشيء لم أفهمه . فانتبهت فزعاً ، ثم عاودتُ النوم ، فعاودني يقول ذلك الشيء ، ثم عاودني بقوله حتى فهمته وحفظته وهو :

كأنــي بهـذا القصـر قـد بـاد أهلـه وعُـرّي منـه أهلـه ومنــــــازله

وصار رئيسُ القوم من بعد بهجةٍ إلى جدث تبنى عليه جنـــــادله

وما أحسبني يا ربيع إلاّ وقد حانت وفاتي ، وحضر أجلي ، ومالي غير ربي قم فاجعل لي غسلاً ، ففعلتُ ، فقام وإغتسل وصلى ركعتين ، وقال : أنا عازم على الحج فهيّء لنا آلة الحج . فخرج وخرجنا حتى إنتهى إلى الكوفة ونزل النجف ، فأقام أياماً ، ثم أمر بالرحيل ، فتقدمتْ نوابه وجنده . وبقيت أنا وهو بالقصر ، وشاكريتُه بالباب . فقال : ياربيع حئني بفحمة من المطبخ ، فجئته ، فقال لي : اخرج وكن مع دابتي حتى أخرج . فلما خرج وركب رجعتُ إلى المكان كأني أطلب شيئاً ، فوجدته قد كتب على الحائط بالفحمة :

المرءُ يهوى أن يعيش وطولُ عيشٍ قد يضُرّهْ

تفنى لذاذاتُه ويبقى بعد حُلو العيش مُرُّهْ

وتصرف الأيام حتى ما يرى شيئاً يسُرهْ

كم شامتٍ بي إنْ هلكتُ وقائلٍ لله درُّهْ

إن عدم حسن الظن بالله و برحمته الواسعة يعزّز لدى تلك الفئة من الناس الرجاء بعدم لقاء الله ، لأنها لاترى من هذا اللقاء غير أهوا ل وعذاب ومصير قاتم . وإذا كان الواقع كذلك فإن الناس جميعاً لن يرجون لقاء ربهم ، إذ لايوجد بشر خلا من ذنوب ، ولايحلو لإنسان أن يُواجَه بسيئات أعماله ، لكن الله عندما خلق الإنسان شاء أن يغفر له ومنحه فرصاً تغسله من ذنوبه وكأن لا ذنب البته له, كمن يرفع عن نفسه جنابه فيمسي طاهراً كأنه ما كان على جنب . فالإنسان يحرم عليه دخول الجنة إلاّ إذا كان طيباً ، ذلك أنه يدخل مكاناً طيباً والملائكة تقول لداخلي الجنة : سلام عليكم طبتم . ومعنى

هذا أنهم غدوا طيبين برحمة الله . ما هي هذه الفرص الثمينة التي تغسل الإنسان من ذنوبه ليصبح طيباً كأنه لم يذنب ؟ هناك أحد عشر فرصة رحم بها الله عباده ليتخلصوا من آثامهم ويبلغوا الجنة طيبين وقد جعلها الله تبارك وتعالى في ثلاث مراحل يمر بها الإنسان ، منها أربع في الحياة الدنيا ، وثلاث في القبر ، وأربع يوم الحساب .

إن كل فرصة واحدة من هذه الفرص تجعله كمن ولد للتو ، والإنسان أوتي طاقة للقدرة على التطيب برحمة الله الكامنة في هذه الفرص الثمينة التي تنجيه العذاب وتدخله رحمة ربه .

فرص الحياة الدنيا أولاها :" التوبة " يمكن لأي إنسان مذنب تقوده ذنوبه إلى العذاب ، أو تحرمه دخول الجنة أن يتوجه با لتوبة إلى الله فتطهره بأمر من الله وتجعله نقياً كالثوب الأبيض . ثانيها :" الاستغفار " ، أن تستغفر لذنبك ، تطلب المغفرة من الله ، تبوء بهذا الذنب أمام نفسك وأمام الله في خلوة وتلح عليه أن يغفر لك ، تذرف دموع الندم من عينيك ومن قلبك ، وسيد الاستغفار أن تقول :" اللهم أنت ربي لا إله إلاّ أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لايغفر الذنوب إلاّ أنت ". واعلم أن رسول الله الذي غُفر له ما تقدم وما تأخر من ذنب كان يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم سبعين مرة ، وكان صاحب النبي وراوي أحاديثه أبا هريرة يسبّح الله في اليوم إثني عشر ألف تسبيحة .

ثالثهما :"حسنات تمحو السيئات "، فإن كل حسنة تحسن بها تمحو عنك خطاياك حتى تمسي بلا خطايا ، فترتقي بحسناتك درجات أهل الإيمان وتتقرّب إلى الله زلفى .

آخر فرص الإغتسال من الذنوب في الحياة الدنيا إن تجاهلتَ الفرص الثلاث ولم تعمل بها هي :

" المصائب المكفرة " وهي نعمة كبرى من الله يظنها البعض نقمة . فتقع عليك مصيبة تكفّر عنك ذنباً عظيماً وكلما كانت المصيبة عظيمة ، احمد الله لأنها تغسلك من ذنب عظيم وأنت لم تستغل الفرص الثلاث السابقة . إن الله لا يريد أن تلقى عذاب الآخرة ، لايريد أن تقف بين يديه غارقاً في آثامك ، فقد عذّبتك آثامك في الدنيا ، وغسلتك منها المصائب الكبرى التي كانت تقع عليك واحدة تلو الأخرى . قال النبي :" إن العبد ليتوعك الوعكة لا يقوم منها إلاّ غفر الله له ".

الآن انتهتْ فرص التنقية من الذنوب ، هل تنتهي رحمة الله في الدنيا إن لم تستفد منها ، لسوف تجري رحمة ربك وتحل عليك حيثما كنت . ستكون في

الموت أمام ثلاث فرص أخرى تنقيك من ذنوبك وقد دخلتَ القبر آثماً لم تغتنم أربع فرص في حياتك .
أولاها :" صلاة الجنازة " ، فبقدر عدد المؤمنين الذين يؤدون صلاة الجنازة عليك تُغفر ذنوبك .
ثانيها :" أهوال القبر " ، فترى أهوال القبر التي تغسلك من ذنوبك وتقرّبك لدخول الجنة نقياً .
آخرها :" هدايا الأعمال "، وهي تكمن في الصدقات عليك ، فيمكن لولدك أن يحج عنك ، أن يدعو لك بالخير ، يمكن أن تترك علماً تنتفع به ، أن تترك صدقة جارية ، أن تترك ولداً صالحاً . هذه أعمال مباركة تمحو ذنوبك وأنت في القبر ، وتنقيك لتدخل الجنة طيباً .
فإن تجاوزتَ هاتين المرحلتين وقامت الساعة وحلّ يوم الحساب هل تنقطع رحمة الله عنك . ستجد رحمتة وأنت تبحث عنها في ذاك الزمن الذي يستغرق خمسين ألف سنة من حساب للناس أجمعين . يوم يفر الابن من أبيه والصاحب من صاحبه ، يومها ستأمل في رحمة الله فتراها تمنحك فرصاً أخرى وتغسلك من معاصيك وآثامك وكل عمل خبيث تحمله معك . ستكون مع مَنْ هم مثلك بعد أن فارقك الذين أصابتهم نعمة من النعم السبع الماضية ، فترون أولى هذه الفرص الأربع الأخيرة وهي :
" أهوال يوم القيامة "، إنه زلزال إلهي كبير ، فترى هذه الأهوال التي تكون عقاباً لك حتى لاتدخل النار ، وتغسلك من ذنوبك فتدخل الجنة طيباً .
ثانيها :" الوقوف بين يدَي الله "، تقف بين يدَي الله بآثامك ومعاصيك فتخجل مما أنت فيه إلى أن تتمنى الإنصراف استحياء من الله الذي يذكّرك بنعمه وفضله عليك وأنت العاصي الجاحد .
هذه المشاعر المحرجة والمؤلمة التي تتوضع فيها بمواجهة الرب تنقّيك من ذنوبك وتكون لك بمثابة العقاب لأن الله يريد أن تدخل الجنة . فإن مضتْ الفرصتان وانضمتا إلى الفرص السبع الماضية ، ما الذي يبقى لك ، هل ستدخل النار خالداً فيها ؟! .
وحتى لو لم تدخل النار ، فهل تبقى آثماً محروماً من دخول الجنة وينعم فيها كل مَنْ حلّت عليهم رحمة الله ، هل ستبقى محروماً منها وأنت ترى أنه يكفيك عقاباً وإحراجاً من الله ومن الأهل والأصحاب أنك لاتدخلها ، فكيف بك وأنت تُقذف في النار مع أهل السوء والشر . سترى عندئذ شفاعة النبي التي تحل على أهل الكبائر من أمته ، الذين ما زالوا ينتظرون فرصة تقيهم من ذنوبهم ، ستحل شفاعة النبي كبشرى كبرى لهؤلاء الذين يفرحون بها وترفع عن كواهلهم آثاماً ماعادوا يحتملونها ، عندها يتنفس المتنفسون ويشعرون بنعمة تخلصهم من الذنوب التي لبثت تلاحقهم حتى ذاك المكان

وكأنها لن تتركهم أبداً وتراهن أن تقودهم إلى السعير ، لكن شفاعة النبي تكون أكبر بإذن الله ورحمته فيلمسون لأول مرة نعمة النقاء ويكونون أكثر الناس إفادة من الكوثر الذي أُعطي للنبي .
فإن مضتْ شفاعة النبي وانضمت إلى الفرص التسع ولبث شقياً مازالت ذنوبه متربصة به وتأبى الفكاك عنه ، هل يأمل في رحمة الله بعد ذلك وقد غدا على شفى حفرة من نار ، ستحل عند ذاك الفرصة الأخيرة على هؤلاء الذين مازالوا يأملون رحمة ربهم ، وهذه الفرصة الأخيرة هي :" عفو الله " فيعفو الله عمن يشاء وسيشمل هذا العفو العدد الأكبر من أهل لا إله إلاّ الله ، فقد ترك الله هذه الفرصة الأخيرة لأهل المعاصي الكبرى الذين لبثوا في ذنوبهم إلى الرجاء الأخير . وعند ذاك لن يتردد إبليس أن يتطاول آملاً في أن تدركه الرحمة .
لاشيء يقر عين الإنسان كالأمل في رحمة الله وأن الله لاينظر إلينا بمنظور أعمالنا بقدر ما ينظر إلينا بمنظور رحمته ، ذلك أن الله خلق الإنسان للرحمة لا للعقاب :" إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ". (١٦) وأمر كل ما في السماء والأرض جميعاً ليخدم هذا المخلوق العاقل الجديد الذي يمتلك ذروة الشفافية وأنبأ الإنسان بذلك وهو يخاطبه :" وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً ". لفظ الجمع الذي لا يستثني شيئاً ، فالإنسان هو الكائن الذي يُشغل كل ما في السموات وما في الأرض بأمر من الله ، الله يحب أن يرحم الإنسان ويبغض أن يعاقبه . فحتى إذا تجاوز الإنسان حدود الله وأنكر نعمته ، فإن باب الرحمة يلبث مفتوحاً أمامه وقد أخبر رسول الله :
" اتبع السيئة ، الحسنة تمحها " وبشر الناس الذين أسرفوا في ذنوبهم :" إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها ". (١٧)
وحقيقة الأمر أن الموت هو يقظة من نوم الحياة ، لأن ما بعد الحياة هو أكثر صفاءً وأكثر جمالاً إلى درجة أن الإنسان ذاته يكون في هيئة أقوى وأجمل وأنظر حتى يستطيع استقبال يقظة الموت بقوة ، وعند ذاك سينتبه بأنه كان نائماً وأن الحياة التي ظنها مليئة بالحيوية وكان خائفاً من فراقها تحولت إلى منام بالنسبة لحقيقة اليقظة الكبرى ، والإنسان لايلمس تلك اليقظة الكبرى إلاّ إذا مرّ بالموت حتى يُعاد تشكيله ويكون في هيئة يقظية تؤهله لينظر إلى الله ، تؤهله ليعرف الحقائق الكبرى عن حقيقته كإنسان. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :" الناس نيام ، فإذا ماتوا إنتبهوا ". إن اللحظات الأولى للموت تنبهك بأنك كنتَ نائماً ، فتدرك بأن نومك في ذاك النوم الطويل كان نوم النوم ، مثل أن حلمتَ حلماً في حلم وعند ذاك يُقال لك :" فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ". ومرة أخرى فإنك تكتشف بأنك لم تكن نائماً

فحسب ، بل كنت متغطياً كذلك بغطاء غطّاك الله به . لقد كنت تفترش الأرض متغطياً السماء وهذا الغطاء كان يحميك أذى الكواكب الأخرى وما عليها ، لقد كنت في فراش آمناً من أي خطر خارجي لأن غطاء السماء سوف يدفع أي قادم إليك بجاذبية معاكسة التي لولاها لتساقط عليك الأذى من الكواكب الأعلى من فراشك هذا .

قال النبي :" ليس على أهل لاإله إلاّ الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم ، وكأني بأهل لاإله إلاّ الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ".

عندما مات إبن الجوزي أوصى أن يُكتب على قبره :

يا كثير العفو عمن كثر الذنب لديـــه
جاءك المذنب يرجو الصفح عن جرم يديـه
أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إليــه

فالإنسان مهما بلغ من علم وفقه فإنه لا يعصم عن الذنوب ولكن الإيمان بحسن الظن بالله هو الذي يحقق له حالة من الاستقرار . يقول الشافعي صاحب المذهب المعروف وهو على فراش الذهاب إلى ملاقاة ربه :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي عند عفوك سُلَّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظمـــا .

مهما كانت ذنوبك فلا تنس بأنك ذاك المخلوق الذي يحب الله أن يغفر له ,فأصحاب الميمنة :

" علـى سُـرُرٍ موضـونة ، متكئـين عليهـا متقـابلين ، يطـوف علـيهم ولـدان مخلّدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يُصَدَّعُون عنها ولا يُنـزِفون ، وفاكهـةٍ ممـا يتخيـرّون ، ولحـم طيـرٍ ممـا يشـتهون ، وحـور عـين ، كأمثـال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لايسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، إلاّ قيلاً سلاماً ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سدرٍ مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إنـّا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً ، عُرُباً أتراباً ". (١٨)

وهاهو يقود المؤمنين في رحلة إطلاعية على نمط الحياة في الجنة ، وهو لا يقول شعراً ولا خيالاً ، إنه يتحدث عن الله :" وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين " لذلك فإن حديثه أعذب من الشعر وهو ليس بالشعر ، فالعبارات التي تسري على لسان محمد تلقاها في مدرسة اللطيف الخبير ، وهو الذي رباه يومأبيوم ، وسنة بسنة . :" إني أوتيتُ جوامع الكلم وخواتمه ، واختصر لي الكلام إختصاراً ". رأى النووي :" جوامع الكلم فيما

بلغنا ، أن الله تعالى يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك ".
و وصف الزمخشري بذهول :" إن البيان العربي كأن الله – عزت قدرته – مَخَّضَهُ ، وألقى زبدته على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرجل ، وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السجل ، وما قرن بمنطقه منطق إلا كان كالبرذون مع الحصان المطهم ، وقع من كلامه شيء في كلام الناس إلا أشبه الضح في نقية الأدهم " .
وصدق إذ قال :" أنا أفصح العرب ". والواقع فإن أهل القلم يأتون فينهلون من أحاديثه أنفس مؤلفاتهم في شتى ميادين الكتابة . وهي مؤلفات غدت من أكثر كتب الفكر قيمة وخاصة تلك التي تناولت البعث والجنة ، لأن الفكر البشري قبل محمد كان عاجزاً عن تصوير كل هذه المناظر المذهلة البديعة ، وماقيل من قبله لايستحق الذكر مقارنة بما قيل من بعده وخاصة بعد مرحلة " الإسراء والمعراج " . والأمر الأكثر ذهولاً وأهمية أن هذه التفاصيل التي لم تكن تبلغها مخيلات العباقرة ، عاش محمد وقائعها وقال للناس بأنه يتحدث عن رحلة إعجازية واقعية ، ثم أتى البراهين عن مشاهداته بما " لاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر " . فعلّمه الله ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيماً : " هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد .
لبنه من فضة ، ولبنة من ذهب ، بلاطها المسك الأذفر . فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك .
إن الله تعالى بنى الفردوس بيده . الجنتان بستانان في عرض الجنة ، كل بستان مسيرة مائة عام .
في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعصعها ، فيقال : مَنْ هذا، وآتي باب الجنة يوم القيامة ، فأستفتح ، فيقول الخازن : مَنْ أنت .
للرجل الواحد بالقصر من اللؤلؤة الواحدة في ذلك القصر سبعون غرفة ، في كل غرفة زوجة من الحور العين ، في كل غرفة سبعون باباً ، يدخل عليه من كل باب رائحة من رائحة(روائح) الجنة سوى الرائحة التي تدخل عليه من الباب الآخر .
- لو أن حوراً بصقتْ في سبعة أبحر لعذبت البحار من عذوبة فمها .
وإن في الجنة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها ، وإن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق ، وإن في الجنة غرفاً من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها . إن المتحابين في الله تعالى لعلى عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود

سبعون ألف غرفة . فلولا أن الموت يُرفَع عن أهل الجنة لمات أكثرهم فرحاً .

- أنهار في الجنة تخرج من تحت تلال أو جبال المسك . في الجنة نهر يقال له :" البيدخ " عليه قباب من ياقوت ، تحته جوار ، يقول أهل الجنة :" انطلقوا بنا إلى البيدخ " فيتصفحون تلك الجواري ، فإذا أعجب رجلاً منهم جارية مس معصمها فتتبعه .
- / قيم يستقبل الرجل على باب الجنة /: فلولا أنه عرفه بنفسه لخرّ ساجداً من النور والبهاء والحسن.
- أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وإن الله عز وجل يقول لأهل الجنة فيأتي بثور وحوت فيجز لأهل الجنة. طعامهم ذلك جشاء كريح المسك .

إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الشراب من الجنة فيجيء الإبريق فيقع في يده فيشرب ، ثم يعود إلى مكانه . إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع ، تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك . وإنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيجيء مشوياً بين يديك ، ويقع على خوانه لم يصبه دخان ، ولم تمسه نار ، فيأكل منه حتى يشبع . / وينادي الطير / : " ياولي الله رعيتُ في مروج الجنة تحت العرش ، شربت من عيون التسنيم ".

في الجنة طائر له سبعون ألف ريشة . / وللنخيل / : جذوع ، وكرانيف ، وجريد ، وأقماع من ذهب ، وثمارها كالقلال ، ألين من الزبد ، وأحلى حلاوة من العسل . تمر سحابة بأهل الجنة فتقول : ماذا تريدون أمطركم .

- ويسطع نور الجنة فرفعوا رؤوسهم ، فإذا هو ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها / وتأتي الرجل /: حوراء عيناء معها سبعون جارية ، وسبعون غلاماً ، وعليها سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من وراء الحلل والجلد والعظم ، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء ، وكما يرى السلك في الدرة الصافية ، فيضرب بيده إلى نحرها فيقرأ ما في كبدها فإذا هو مكتوب : " أنا حبك ، وأنت حبي ، إليك انتهتْ نفسي " . / فيها /: شجرة تهب لها ريح فتصفق فما سمع السامعون بصوت شيء قط ألذ منه.

وليس من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل ، فيأمره الله تبارك وتعالى فيأخذ في السماع ، ثم يقول للملائكة : أسمعوهم تمجيدي وتحميدي ، و: ياداود مجد بذلك الصوت الحسن الرخيم ".

مراجع:

١- سورة يونس ، الآية ٢٤
٢- سورة الحديد ، الآية ٢٠
٣- سورة القصص ، الآية ٦٠
٤- سورة يونس ، الآيتان ٧-٨
٥- سورة هود ، الآية ١٥
٦- سورة إبراهيم ، الآيتان ٢-٣
٧- سورة الإنسان ، الآية ٢٧
٨- سورة البقرة ، الآية ٢٠١
٩- سورة النحل ، الآية ١٢٢
١٠- سورة الأعراف ، الآية ١٥٦
١١- رواه مسلم والنسائي
١٢- رواه أحمد والترمذي وابن ماجة
١٣- متفق عليه
١٤- رواه مسلم
١٥- سورة الواقعة ، الآية ٦١
١٦- الحديث رواه أحمد والترمذي وابن جرير والطبراني والحاكم :"إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره فمَنْ أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومَنْ أخطأه ضل ".
١٧- روى معنى الحديث ابن النجار عن ابن عمر ورواه البيهقي وأبو نعيم والحكيم عن أنس والبيهقي عن أبي هريرة بلفظ :" اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن له نفحات من رحمته ".
١٨- سورة الواقعة ، الآيتان ١٥-٣٧

٦- شعوب وقبائل

الإيمان هو رسالة انفتاح الإنسان على بعضه البعض وليس رسالة انغلاق وتقوقع كل قوم أو كل مجتمع على نفسه والعيش في دائرة مغلقة لا يستطيع حتى الطير أن يخترقها . الإيمان هو رسالة تحاب أبناء آدم جميعاً على سطح الأرض وليس رسالة تباغض وتنافر . جاء الإيمان ليزيح دواعي الفرقة ويضع دواعي اللقاء ويبِّين للإنسان بأنه فقير بدون الآخرين مهما كان ثرياً ، وضعيف دونهم مهما تبدّى له بأنه قوي. وقد شاء الله أن يجعل قبلة المسلمين في الوسط ما بين المشرق والمغرب من حيث جغرافية الموقع وخاطب المسلمين :" وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ". (١) لو ترك الإنسان نفسه على فطريتها لكفاه ذلك أن يعيش بسلام ، لكنه دوماً يدفع أثماناً باهظة نتيجة تدخله في شؤون هذه الفطرة . إن القاعدة الثابتة تقول بأن سكان الأرض هم شعوب وقبائل ، يتفرعون إلى عروق وأشكال ولغات وأديان ، يتفرعون إلى تركيبات وطبائع وثقافات وحضارات ، وهو يستمدّون غناهم وتجدّدهم واستمرار يتهم من هذا التنوع الثري .
استطاع الغرب بعد قرون من التفكير والتجارب أن يقتنع بهذه القاعدة الإنسانية ، واستطاع أن يصوغ القوانين التي تؤمّن للشعوب والقبائل والأديان العيش بحرية وكرامة ، بل وبدأتْ تغري الآخرين لاستقطابهم فتدفع لهم رواتب شهرية وتؤمّن لهم العيش الكريم والسلامة وحرية ممارسة الطقوس فقط ليقبلوا الدخول في تركيبة مجتمعاتهم . فترى مثلاً حاكماً ملحداً يسمح ببناء جامع في قلب عاصمته حتى يتحقق هذا التنوع والغنى في عاصمته ، وهو ذاته يقوم بتأثيث هذا الجامع ومنح معاشات شهرية للمترددين إليه ، حتى تمشي امرأة سافرة في الشارع ، فتمشي بالقرب منها امرأة مجلببة ، حتى يتجه رجل إلى خمّارة ، و بالقرب منه يتجه رجل إلى بيت عبادة . إلى جانب عقائد ومذاهب وأفكار وطرق مختلفة ، وهذه الدول سرعان ما تمنح جنسيات لهؤلاء حتى تضمن بقاءهم . فنحن في حقيقة الأمر ضيوف في عالم واحد ، أبناء زمن واحد كما نحن من صلب رجل واحد . فخطتْ هذه المجتمعات خطوات طيبة في التعامل الإنساني والعدالة والمساواة والتقدم وأصبحتْ بالفعل غنية بهذا النسيج المجتَمعي والتنوعي من كافة أرجاء الأرض . إن هذا التنوع بذاته موجود في الوطن العربي وبدل أن

ينمـى ويزدهر ليؤتِ أكلـه ، يلقـى العكس حتـى أن بعض هذه الـدول بـات لا يفوح منها إلاّ رائحة البارود والدماء لأن كل قوم يريد أن يبيد القوم الآخر .
وإذا تحقق ذلك وأباد قوم كل الأقوام واللغات والشعوب والقبائل الأخرى من دولتـه ، فهـذا بذاتـه يكـون مخالفـاً لفطـرة البشـر ، لأن قريـة لـيس فيهـا غيـر مجموعة أقرباء من لغة واحدة وقبيلة واحدة فقط هي قرية ميتة . لدينا بعض الأمثلة وقعتْ بحكم جغرافية المكان ، أو فرضتْ نفسها فرضاً فـي أنحـاء مـن هذا الوطن ، فمثلاً نرى المدن الساحلية التي تقع على البحار سواء في شـرق البلاد أو غربها أكثر انفتاحا ونضجاً وامتلاء بالحياة والخبرات ومنها يصـدر شعاع الـوعي الفكـري والحضـاري ، ومـا ذلـك إلاّ بسبب كثـرة الاختلاط مـع مختلف سكان العالم والانفتاح على شرائح هائلة من المجتمعات البشـرية مـن خـلال سـاحلية المكـان الـذي يجلـب البـواخر مـن كـل بقـاع الأرض ، مـن كـل بحـار العـالم ، فيتحقق بشـكل تلقـائي الاختلاط والتلاقح الاجتمـاعي والفكـري والحضـاري والإنسـاني ، وهؤلاء أيضـاً يمكـن أن يتبـادلوا الهـدايا فيمـا بيـنهم .
إن أكثر الناس انفتاحا هم أولئك الذين ولدوا وترعرعوا علـى سـواحل البحـار الكبـرى ، بينمـا المدن التـي تكـون بحكـم جغرافيتهـا فـي الصـحارى أو الجبـال تبقـى عرضـة لكـل أمـراض التخلـف والتقوقـع والتراجـع فـي دائـرة ظلاميتهـا وانغلاقيتها, وكذلك عنجهيتها وقبليتها وتعصبها . ويمكـن أن نلمـح شـيئاً كهـذا فـي غالبية الـدول التـي يـربط بينهـا الخلـيج العربـي ، فنـرى انفتـاح هـذه الـدول على ثقافات وحضارات حتى لو كانـت بعيـدة عـن ثقافـة وحضـارة سـكان هـذه المجموعة الخليجية .
جاء النبي مبلغا رسالة ربه الأخيرة للعالم مناديا بالمحبـة بـين سكان الأرض أجمعين , وداعيا إلى انفتاح علم الإنسـان مـن كـل البقـاع علـى بعضـه الـبعض وإزالة الحواجز بين الإنسان وأخيه الإنسان قارئالهم قول ربهم الواحد :" يـا أيهـا النـاس إنـا خلقنـاكم مـن ذكـر وأنثـى وجعلنـاكم شـعوباً وقبـائل لتعـارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " . فيشـرح قـول رب النـاس هـذا للنـاس:" لـيس لعربـي علـى أعجمي ولا لأسود علـى أبـيض فضـل إلاّ بـالتقوى " و " النـاس سواسـية كأسنان المشـط " و " الخلـق كلهـم عيـال الله " فلـم تقـف مهمـة النبـي عنـد نقـل الرسـالة ، بـل تجاوزهـا إلـى الشـرح والبيـان لتصـل الكلمـة إلـى مختلـف فئـات النـاس :" يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربـك ، وإن لـم تفعـل ، فمـا بلغـت رسالته " وكذلك :" وأنزلنـا إليـك الـذكر لتبـين للنـاس مـا نـزل إلـيهم " . فبـات النبي هو الحاكم الـذي يحكـم بمـا أنـزل الله :" وأن أحكـم بيـنهم بمـا أنـزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنـوك عـن بعـض مـا أنـزل الله إليـك ". :" كونـوا عبـاد الله إخوانـا ". انتشـرت رسـالة الإسـلام داعيـة إلـى هـذه الأخـوة الإنسانية , فانفتح النبـي علـى لغـات وعـروق وقبـائل النـاس فـي الأرض ,هـذه

الأخوة هي التي جعلت النبي يقول في سلمان وهو " فارسي " وكان عبداً اشتراه من امرأة يهودية وأعتقه : " سلمان منا أهل البيت "٠ (٢) وأذن كذلك لبلال " الحبشي " أن يطأ بقدميه سطح بيت الله العتيق ليؤذن وهو عبد أجنبي, وثمة حادثة وقعت بين عمار بن ياسر ، العبد المعتق ، وبين عثمان بن عفان سليل البيت الأموي وكان ذلك في أثناء بناء مسجده صلى الله عليه وسلم فقال عثمان لعمار :" إني سأراني أعرض عن العصا لأنفك ". ومما قاله النبي عندما علم بذلك :" ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، وإن عماراً جلدة ما بين عيني وأنفي " ٠وفي حادثة ثانية بين عمار وبين خالد بن الوليد المخزومي القريشي قال خالد لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أ تترك هذا العبد الأجدع يشتمني . فأجابه النبي : يا خالد لا تسبّ عماراً ، فإن من سب عماراً سبّه الله ومن أبغض عماراً أبغضه الله ، ومن لعن عماراً لعنه الله .

إن الربيع مهما ارتوى مطراً وخصوبة فإنه سيلبث باهتاً إذا اقتصر على نوع واحد من الأشجار ، ونوع واحد من الطيور ، ولكنه يكتمل ويثرى ويبلغ جماليته على قدر ما فيه من تنوع أنواع الزهور والأشجار والطيور التي تغرّد فيه .

إن أي مدينة من مدن العالم مهما بلغت من غنى فإنها ستكون ميتة وتنطفئ المصابيح في بيوتها إذا كانت بلغة واحدة ، وعرق واحد ، وشعب واحد ، وقبيلة واحدة , ونمط واحد من التفكير ٠ ولكن التنوع البشري والفكري والقومي يحيل حتى الصحارى القاحلة إلى ربيع بشري لانهاية له ٠

بلادنا ثرية ومتأصلة بحضارات ولغات وأعراق وأمم : أرمن ، سريان ، آشوريون ، تركمان ، عرب ,شركس ، أكراد ، يزيد ، غجر . والإسلام حقق لنا وجود حضارات وأمم أخرى بسبب دخولهم الإسلام والعيش في بلادنا ولدينا نساء من مختلف أنحاء العالم تزوجن وأقمن فينا وهن كذلك يحملن حضارات وتركيبات اجتماعية متنوعة ، وقلما نجد مدينة لاتتمتع بهذا الثراء البشري الحضاري والإرث الثقافي . العالم برمته ينفتح علىبعضه البعض ويزيح الجدران والحدود ، ويوحّد العملات وما ييسر هذا التمازج الأخوي الرائع إن قرآننا قد أمرنا :" قل سيروا في الأرض ". (٣) وأمرنا أن نمشي في مناكبها ٠

إذليس ثمة أسوأ من الانعزالية والتقوقع على الذات والنظر إلى نصب مزيد من الحدود والتقسيمات التي تفصل بيننا ، وهو سير عكسي ، ودعوة مشبوهة نحو مزيد من تشتت . لاشيء يبرر فصل الإنسان عن أخيه الإنسان ، لكن كل شيء يبرر انفتاح الإنسان على الإنسان . حتى الإسلام الذي هو آخر وخاتم دين لم يتدخل لفصل الناس عن بعضهم ، بل تركهم ينفتحون على

بعضهم حتى لو رفضوا أديان بعضهم البعض . فالإسلام لم يمنع المسلم أكل ذبيحة أهل الكتاب ، لم يمنعه من طعامهم وشرابهم وتعلّم لغاتهم والعيش في بيوتهم ومجتمعاتهم ، بل لم يمنع المسلم الزواج بامرأة خارجة عن دينه وهي تصرّ على دينها ، فلا يجوز له بأي حال أن يرغم عليها الخروج من دينها لتدخل دينه ، أو الخروج من لغتها لتدخل لغته ، وليس هناك ما هو أهم من العقائد والأديان ولكنها لم تمنع الإنسان من الإنسان فلا يجوز للمسلم بأي حال من الأحوال أن يشتم راهباً أو قسيساً أو أي شخص من أهل الكتاب ، وليس هوولكن دينه ينهاه عن ذلك ويدعوه إلى التصاهر والتعايش والتحابب ، ورغم كل هذا فيصل التعصب الأعمى بالبعض بأن يحرّم زواج ابنته من شخص ينتمي إلى لغة أخرى حتى لو كان من ذات الدين ، بل قد يتحاشى حتى السلام عليه والعمل معه والسكن إلى جواره لا لشيء فقط لأنه ينتمي للغة أخرى . كل التجارب والخبرات البشرية تدعو إلى الانفتاح ، حتى الطب فإنه يرى فائدة زواج الأباعد وسلبية زواج الأقارب .
ليس هناك من سبيل إلاّ بناء مزيد من الجسور بيننا ، أن تنفتح بيوتنا على بعضها ، لغاتنا على بعضها ، ثقافاتنا على بعضها ، وحتى دبكاتنا ومأثوراتنا الشعبية على بعضها ، أن يرتقي بعضنا ببعض .
كل واحد لديه ما ليس لدى الآخر ، وما يفتقر إليه الآخر ، وأي محاولة لإلغاء خصوصية الأخر هي خسارة حتى للقطط التي تعيش بيننا .
هانحن نرى الناس يرحلون أفواجاً أفواجاً كما رحلتْ من قبلهم أنواع الطيور والدواب والنبات وانقرضت فينا وأصبحنا فقراء بها ، هاهم أيضاً يرحلون حتى أوشكوا على الانقراض . هذه هي الخسارة الأفدح في تاريخ البلاد : كيف نسترد هذه الثروة الحضارية الهائلة وقد أوشكنا على الإفلاس حتى أنك تكاد لا تسمع في دائرة وفي مدينة غير لغة واحدة ، غير ديكورات بشرية واحدة ، غير عادات واحدة ، غير ثياب واحدة ، غير وجوه واحدة ، وغير موتٍ واحد . إذن أين ذهب كل هؤلاء ولماذا تخلوا عنا ، ولم نسمع غير نبرات أصواتهم المشتاقة في الهاتف وهي تنادينا بأن نتخلى أيضاً . كيف ستستطيع هذه البلاد أن تبقينا فيها ، كيف تغري ما تبقى وهو قليل, بالبقاء في هذا النسيج الاجتماعي . أظن أن التفاؤل ليس في مكانه . إنها ثروات هائلة تلك التي خسرناها ، ثروات لايمكن تعويضها ، لكن كيف سنحافظ على ما تبقى ، هل نمنحهم رواتب شهرية وامتيازات مغرية حتى لا ينقرضوا فينا وعندها فقط سينطفئ الضوء الساطع المتبقي ونلبث في عتمة أبدية أبد الدهر . ومن السخرية أن تجد شخصاً أحمقاً يتحدث بعد كل هذا الانهيار عن عودة " مؤخرات الأموال " وكأنه لم يشعر بهذا الصقيع الاجتماعي الذي حل على الورد والشوك . لقد خسرنا إنساننا الذي دُفع له كي يقبل تركنا ونحن بعد كل

هذا ننظر إلى هذا الذي دُفع له وكأننا ننظر إلى ثمنه بدل أن ننظر إليه ، وما الذي سنفعل بثمنه ، أو هل سيقبل أن يمنحنا ثمنه وقد كان فينا جائعاً عارياً مقهوراً مغلوباً على أمره ، وكأنه قد نجا بجلده منا . كان الإسلام قد سمح لامرأة لا تؤمن به الزواج بمسلم والإنجاب منه والعيش طول العمر في بيته ، ولكن قد نجد نظاماً سياسياً لايسمح لمثل هذه المرأة التي لا تؤمن به بمجرد العيش في الحياة كلها . هناك أناس يُحسبون على أهل الفكر في بلادنا يعملون بكل حقد لترسيخ مفهوم الفرقة بيننا وبين الآخرين ، وهم أنفسهم يعيشون ذروة الازدواجية ، إذا تراهم يغرقون بأجسادهم وأرواحهم في أمر يحاربوه . ذات مرة قال لي شخص بأن " لغته " مهددة بسبب تداخل اللغات الأخرى فيها وتوصل هذا الإنسان إلى نتيجة وهي أن كل مَنْ يُدخل كلمة أجنبية على هذه اللغة فإنه متعامل مع " الأعداء " ٠ولا أعرف لماذا يصرون أن يجعلوا لنا أعداء , ويكثرون استخدام هذه الكلمة التي تلفظ أكثر من كلمة " الأصدقاء " ٠ والطريف في الأمر أن جرس الهاتف رن في تلك اللحظات فرفع السماعة و أول لفظ قاله :" ألو " .
لماذا نعتبر كل لغة غيرلغتنا هي لغة معادية ، ولماذا ننظر إلى الشعوب الأخرى بأنها تعادينا إلى درجة أن البعض في زماننا اخترع مصطلحاً خاصاً بنا وهو :" الغزو الثقافي " ولا أستطيع أن أفهم دلالة هذا التعبير إلاّ إغلاق أبوابنا ونوافذنا أمام الناس في وقت كل الأبواب والنوافذ تنفتح على بعضها البعض في حوار حضاري لائق بما توصل العالم إليه من حضارة ، وهو مصطلح غير موجود في العالم كله غيرنا . فما معنى عبارة " غزو ثقافي " . إن الثقافة والحضارة والاكتشافات البشرية هي ملك للجميع . فمَنْ هذا الذي يمنعك من تناول وجبة غذاء من اللحم بطريقة توصلتْ إليها سيدة تعيش في ستوكهولم ، ربما نحن فشلنا في أن نتفوق في مطابخنا وأن نساءنا قد لايجدن غير " الثريد " حتى في أضخم المناسبات الغذائية . إذن بإمكانهن أن يقلّدن نساءً أخريات ليرحن أزواجهن ورجالهن من الثريد ، أو وضع هذا الخروف على قمح . هناك آلاف الطرق التي ستجعل من هذا الخروف ألذ وأشهى . فنحن لا نستطيع أن نغلق لغتنا ونحرم اللغات الأخرى من دخولها لأننا لابد أن نقول مثلاً : دولار – بيتزا – همبرغر – أنترنيت – بستان – ألو – تلفزيون – برندا- كباب . إضافة إلى كل تلك المصطلحات الهائلة٠ فنحن جزء من العالم ولا نستطيع أن نعيش في ظلمة عنه ، لأن العالم أيضاً يأخذ منا ولايوجد في قاموسه شيء اسمه " غزو ثقافي " . إنه يترجم حتى القرآن إلى شعوبه ، ويُترجم آدابنا وعلومنا وتراثنا وحضارتنا ، ويمنحنا أبرز جوائزه في شتى الميادين، ويبني مساجداً على أراضيه رغم أن ذلك يناقض عقيدته وأفكاره ، وهو أيضاً يضطر ليُدخل ألفاظاً من لغتنا إلى لغته ويضطر

لاستخدام مصطلحاتنا ، وأساتذتنا يشغلون جامعاتهم ومدارسهم ودور حضاناتهم ، ويشجعون طباعة كتبنا وصحافتنا في بلادهم بلغتنا ، وكذلك في بث برامج عربية وقنوات فضائية بلغاتنا المختلفة . إن كل أبوابهم مشرعة أمامنا وعلى ذلك فيمكن أن نقول بأننا نحن غزوناهم حتى بلاجئينا السياسيين . هناك مَنْ يعمل لترسيخ ثقافة الانغلاق في وقت نحن بأمس الحاجة فيه إلى ثقافة الانفتاح وإذا كان المسلم يؤمن بكتاب الله فإن هذا الكتاب قد تعهد بحفظ لغته وهو ذاته رغم أنه عربي فهذا لم يمنعه من أن يحتوي على ألفاظ غير عربية .

فإذا كان قرآننا يستخدم ألفاظاً غير عربية ، فما الذي يخيفنا بعد ذلك من استخدام لفظ أعجمي . أليس الله هو الذي علّم الناس جميعهم هذه اللغات . أليست كلها لغات الله ، كما أن كلهم مخلوقات الله ، أم أن لغتنا فقط هي لغة الله ، وأننا فقط من خَلق الله . إن الإسلام لا يفرض على أي شخص أن يخرج من أغانيه وموسيقاه ولغته وتركيبته الاجتماعية ، وبلاده وحتى زوجه وأولاده إذا أراد أن يدخل دين الإسلام ، فهو يبقى كما هو في بيته وزوجه وولده ولغته ومجتمعه وقد أشهر إسلامه ودخل بالفعل ملة الإسلام . الإسلام ليس لغة واحدة ، إنه جميع اللغات ، ليس مجتمعاً واحداً ، إنه جميع المجتمعات ، ليس بلداً واحداً ، إنه جميع بلاد العالم ٠

لا حرج عليك أن تغنّي أغنية يغنيها غيرك ، أن تأكل طعاماً طهاه غيرك ، أن تلفظ لفظاً لفظه غيرك ، أن تقرأ كتاباً كتبه غيرك ، أن تنتفع بتقنية أتقنها غيرك ، أن تنام في بلد هو لغيرك٠ فأنت تعيش حالة تواصل متبادلة مع شعوب وقبائل الأرض ، تصدّر ما لديك ، وتستورد ما ليس لديك ، والله هو الذي شاء أن تكون حاجة كل مجتمع عند غيره ليتحقق هذا التواصل والتبادل بين المجتمعات البشرية على كوكب الأرض ٠ ولذلك فإن المجتمع الدولي عندما يريد أن يعاقب بلداً ، فإنه يمنعه من هذا التواصل في الاستيراد والتصدير ويفرض عليه عزلة ، تلك العزلة التي يفرضها بعضنا على بعض .

إن نماذج المأساة تتشكل أمام أنظارنا في كل أشكال التفرقة التي تكاد تختص بها بلادنا ، فكم من كفاءة تعطّلت فقط لأن صاحبها ينتمي إلى لغة غير لغة البلاد التي ولد فيها ، وكم من شخص حُرم من منح دراسية وعلمية ، وكم من شخص بات في هامش الحياة وهو ذو كفاءة ومواهب نادرة فقط لأنه لم يدخل تنظيماً معيناً ، وكم من محل أُغلق فقط لأن ليس فيه صورة ولي الأمر . وروى لي بعض الأشخاص ألواناً من التعذيب الذي لقيه المسلم من أخيه المسلم في المعتقلات ، علمتُ معها أن تعذيب الكفار للمسلمين مع بدء الدعوة كان أهون وأخف بكثير منها وليس بسبب أن هذا المؤمن ارتد عن دينه ، أو

أنه سرق خزينة الدولة ، أو تاجر في المخدرات ، أو اغتصب نساءً ، فقط لأن أحد الأشخاص قد نقل عن شخص نقل على لسانه أنه تحدّث عن بعض اعوجاج في قانون ما من قوانين النظام الذي شاء الله له أن يعيش فيه ، لم يحمل الرجل سلاحاً ، فقط عبرّ عن رأيه في مسألة ما بغية تلاقح الآراء .
وهذا واجب عليه حتى يكون مواطنا صالحا ، ولكن عندما نجول في بلاد الإفرنج نُفاجأ بأنهم أخذوا هذه الحرية من الإسلام وجعلوا للناس منابر و حدائق خاصة بالآراء المخالفة ، فيمكن لشخص في حديقة عامة مجهّزة لهذا الغرض أن يقف ويقول رأيه في أمر ما فيصغي إليه الناس ، ثم يعود إلى بيته ، وقد تتقدم جماعة بطلب للسماح لها على الاحتجاج الجماعي للتعبير عن موقفها من خلال التظاهر وحمل لائحات الاحتجاج ، فتخرج بإذن رسمي من النظام الذي تحتجّ عليه . فالإسلام هو دين الاختلاف في الآراء ، لأنه سيموت بدون التعددية الفكرية والاجتهادات والتفسيرات الجديدة ، وكل هذا داخل إطار الحديث وإبداء الآراء والمواقف التي تكون مبنية على المصلحة العليا للأمة والمحبة فيما بينها . وثمة ظاهرة غاية في العنجهية وهي أن بعض الأنظمة الإسلامية ألغت دور القضاء في حياة الناس ، فهي تعتقل الناس بناء على الشبهات وبدون إذن من القضاء ، بل هذه الأنظمة تمارس ضغطاً على القضاة حتى يصمتوا ، فيكونوا قضاةً على قدر ما يملكون من صمت ، ويخرجون من مهامهم على قدر مايخرجون عن الصمت ، فهوالقاضي لا يفتح فمه إلاّ أمام طبيب الأسنان . ليأتي شخص لا يمت إلى القانون بشيء ويحكم على المدانين بما هو مرسوم سابقاً ، فإن دخلتْ السياسة إلى بيت القضاء من الباب ، هربت العدالة من أقرب نافذة .
وغالباً ما ينتهي هذا الحكم في ساعتين يكون فيهما القاضي العام نائماً .
في إحدى المحاكمات في بلاد الإفرنج دامت ثلاث سنوات حتى جعلتْ المتهم يعترف بما نُسب إليه عن طريق مواجهته بكل البراهين والأدلة ، فعلّق شخص في موقع التحقيق الجنائي عندنا : والله لو سلّموه لي لما استغرق اعترافه أكثر من ثلاث ساعات .
أجل إن غُرف التحقيق في بعض بلادنا تتحول إلى مسالخ بشرية يهتّز لها الضمير الإنساني حتى أن الروائح فاحت إلى كل بلاد العالم ، فبدأتْ منظمات إنسانية تبرق لهذه الأنظمة أن يخففوا عن الناس فـ: " ليس هكذا تورد الإبــل " .
إن الحياة برمتها ستكون باهتة فقيرة مظلمة – كبعض قرانا – إذا اقتصرت على شعب واحد ولغة واحدة ولون واحد من الإنسان ، وكان بإمكان الله أن يجعل نبياً واحداً ولغة واحدة وديناً واحداً ، ولكنه شاء أن يمنح الحياة كل هذا التنوع لتغدو غنية بهذا التنوع البشري الهائل ، وكان يمكن لثلاثة آلاف سنة

تكفي لوضع نهاية لهذه الحياة البشرية ، لكن الحياة تغدو أكثر نضارة وروعة وتجدّد مع كل ألفية بشرية جديدة . إذن أيها السادة ، الحياة مليئة بالعلم والأمية ، بالإيمان والإلحاد ، بالأديان والمذاهب ، بالشعوب والقبائل واللغات . لقد أتى الله بكل هؤلاء ليغنوا الحياة ولتستمد الحياة غناها وثراءها من نبضات هذا التنوع . كنتُ دوماً أنادي لا أن ننفتح على بعضنا البعض فحسب ، بل أن ينفتح العالم كله على بعضه البعض . وإذا كانت الحروب لم تزد الناس إلاّ كراهية ودماراً ورعباً طوال التاريخ البشري ، فإن السلم لايزيد الناس إلاّ انفتاحا ومحبة وتآلفاً .

إن العالم لن يكون ثرياً إلاّ من خلال انفتاحه على بعضه البعض والناس في أي بقعة كانت لن يكونوا أثرياء ما دامت أبواب مدنهم مغلقة أمام الآخرين .

إن ماينقصنا هو أن نزيح هذا الخوف من أعماقنا ، وكأن الآخر هو وحش على وشك افتراسنا ، فالله عندما شاء هذا التنوع لم يكن ذلك ليتعادى الناس ، بل ليتعارفوا . إن أسوأ انتهاك لحقوق الإنسان هو أن يُمنع هذا الإنسان من الذهاب إلى أخيه الإنسان في بُقاع الأرض والتعرف به قبل أن يموت وان يُرغم هذا الإنسان على البقاء في قرية أو مدينة أو دولة بقوة السلاح ، وأن يُرغم أن يقبل العيش على النمط الذي يُفرض عليه ، وان يُرغم أن ينافق فيقول في العلن ما يُنافي قناعته . في الماضي كان الناس يُنافقون وفق قناعاتهم ، وفي زمننا يجد الناس أنفسهم مرغمين على النفاق كي يتقوا التدخل العشوائي في حياتهم ، ومن الناس مَنْ هم أشد نفاقاً ، أو هم في الدرك الأسفل من النفاق ، فهم يمضون في النفاق من تلقاء أنفسهم بغية تملق • الواقع السيئ نفسه يفرز نماذج سيئة في النفاق ، فقد تجد مذهباً من الناس يُنافق حتى يرتقي ويتنافس على الدرجات ، وترى مذهباً يُنافق ليتمكن من الخزينة ، وترى مذهباً يُنافق ليعوّض عقدة نقص لديه حتى ترى قرية بأكملها تحولت إلى مجموعة منافقين .

لكن مايسر ويغبط هو أن أماكن طيبة من كرتنا الأرضية استطاعت أن تتخلص من هذه التركيبات الدخيلة, وأن تقدّم أمثلة بشرية ساطعة تنادي بأن الإنسان لم يخسر نزاهته كاملةً وأنه يمضي نحو الرقي في المعرفة والانفتاح والحضارة . إذن علينا أن نتعلّم من إيماننا ما لانعلمه .

لقد جاء الإسلام ليكون ملجأ للاجئين ، ولكن بات المسلم في زماننا يلجأ إلى بيوت غير المسلمين هارباً من إخوانه وعشيرته المسلمين .

المجتمعات التي تخل بشروط الوجود البشري على سطح الأرض فإنها ذاتها تدفع ثمن هذا الإخلال فتعيش حالة من الخلل واللاتوازن تدفعها نحو شخصية اجتماعية ازدواجية في المجتمع البشري وهذا بذاته ما حدث معنا في أمثلة واقعنا الذي نعيشه في معظم بقاع البلاد الإسلامية حتى أمسى

الإسلام كله في حرج بين الأديان واللغات والشعوب جراء تصرفات غير مسؤولة تصدر من مسلمين .
جاء الإسلام ليجعل من المسلمين عالماً أولاً ، ولكن المسلمين جعلوا من أنفسهم عالماً ثالثاً ، وكانت بلادهم أثرى بلاد العالم ، ولكنهم حولوها إلى بلاد نامية متخلفة تتراجع إلى الوراء أكثر مما تتقدم إلى الأمام . جاء الإسلام ليحمي حقوق غير المسلمين في ديار المسلمين ، فغدا المسلمون يتصدرون قائمة منتهكي حقوق أنفسهم ، ويأتون بغير المسلمين ليحموهم من أنفسهم هذه المرة ، جاء الإسلام عدلاً للعالمين ، ولكن المسلمين يحتكمون في نزاعاتهم فيما بينهم قضاة من غير دينهم لا علاقة لهم بدين الإسلام ، ولايقاضون بشرع الإسلام . وكأن المسلم يقول بأن شرع الله لم يعد يصلح له ولذلك يميل في قضاياه إلى القوانين التي وضعها الإنسان لأنها الأعدل ، والواقع أن روح العدل يكمن في القرآن الذي هو كتاب عدل وهو أعظم كتاب عدل عرفه الإنسان منذ بدء الخليقة ، لأن الإنسان مهما بلغ من عدل فإنه لن يرتقي ليكون أعدل من الله ، ولن يستطيع أن يكون أرحم بالإنسان من الله .
لقد أنزل الله القرآن ليقود به المسلمون العالم ، ولكنهم فشلوا في هذه المهمة ، وفشلوا حتى أن يقودوا أنفسهم . إن الجهل بفقه الواقع يدفع البعض وهو يبتسم ويضع عمامة على رأسه إلى تبشير الناس بأنهم في هذا الزمان يعيشون صحوةً إسلامية ، وهذه مشكلة بالغة الخطورة تكون بمثابة تخدير الناس ، بدل السعي نحو يقظة إسلامية حقيقية على ضوء تفقه تفاصيل الواقع الذي يقول بأن المسلم بات يخاف ويحتسب للمسلم أكثر مما يخاف ويحتسب لغير المسلم :" فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول " إن الشيء الوحيد الذي ينقص المسلمين ، هو أن يكونوا مسلمين . كل ما في الإسلام يحقق لهم القوة والعدالة والعالمية الأولى ولعل الحج هو خير مثال على أن المسلم هو الذي يستضيف الناس بجميع أعراقهم وشعوبهم وألوانهم ، وأن قبلة الإسلام تقع في بلاد المسلمين ، وأن الذين يناشدون راحة الضمير والتخلص من الآثام لا يجدون مكاناً أصلح من هذه البلاد .
لقد كان النبي قوياً لأنه كان واضحاً ، ولكن فقد مسلموه هذه القوة لأنهم فقدوا الوضوح . كان النبي يفتح أبواب دولة الإسلام أمام طرقات أي طارق ، ولكن بات المسلمون يهربون من بعضهم البعض ويمضون لاجئين في بلاد غيرهم ، وعلى الأغلب يعيشون من صدقات وتبرعات المحسنين من غير أبناء جلدتهم . استطاع الغرب أن يشرع أبواب دولته لرياح الديمقراطية وخاض هذه المغامرة الإنسانية الكبرى والبالغة الحساسية بكل شجاعة ونجح في بناء دولة ديمقراطية حديثة وقيادة العالم . وكان علينا أن نكون أكثر شجاعة وأكثر انفتاحا وأكثر وضوحاً لخوض هذه التجربة الذهبية التي هي

جزء من تاريخنا الإسلامي . إن أي امرأة ومهما كان معتقدها وموطنها لمجرد أنها تضع مولودها في تلك الدولة الكبرى فإنها تمنح في اليوم التالي كامل جنسيتها لهذا الإنسان الذي فتح عينيه لأول مرة على أرضها ، فيتمتع هذا المولود الجديد بكامل حقوق المواطنة لتلك الدولة الكبرى ، ولكن دولة الإسلام لا تملك شجاعة في أن تمنح مولوداً ولد على أراضيها من دين آخر وجنسية أخرى شيئاً كهذا . وعلى هذا فأصبحنا أمام واقع بات فيه ملايين المسلمين يتمتعون بجنسيات أجنبية إضافة إلى جنسياتهم الإسلامية ، ولانجد أجنبياً يتمتع بالجنسية الإسلامية إضافة إلى جنسيته ، حتى إذا أشهر هذا الرجل إسلامه فإن دولة الإسلام تمتنع من إعطائه جنسيتها ، بل قد تمتنع من منحه حق اللجوء الإنساني إليها ، والإسلام في جوهره هو مأوى ومقر اللاجئين والهاربين من الظلم والجوع والبرد ، ولاينهى البر والإحسان بالكافر إذا لجأ دخيلاً في دياره ، فهو يدخل الدين ولا يلقى البر بمنحه هوية الدين الذي دخله .

لقد أنزل الله الإسلام عدلاً للعالم برمته وأمر المسلمين :" ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " وهذا ما جعل النبي يشرع في إقامة دولة إسلامية يأتيها الناس بمختلف اتجاهاتهم ومعتقداتهم بحثاً عن كلمة الحق والعدل . وكان قد عُرف بين الناس بـ : الصادق الأمين .

إنه مدير هذه الدولة الفتية الصادقة الأمينة ، وهو يرفع شعار :" من غشنا فليس منا " ويقول للناس قول الله :" ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون " وكان حريصاً أن يكون القرآن هو الحكم في دولته ، فكيف يبني دولة إسلامية وهويأخذ تشريعه من غير الإسلام فكان خطاب الله واضحاً في تلك الفئة التي تلجأ إلى شرع غير الله في نزاعاتها :"أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله" لأن الله قد أرسله رسولاً عالمياً وليس رسولاً محلياً ، ورسالته لا تقتصر على قريته ، بل تشمل العالم برمته تنفيذاً لخطاب الله :" وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ". وإقامة الدولة الإسلامية بفضل الله على الأرض لا لتحكم العالم ، بل لتكون دولة عادلة يحتكم الناس فيها قضاياهم . وإذا كان التراجع المرعب يشكّل ألماً لنا نحن أبناء الإسلام ، فإنه كذلك يشكّل ألماً لكل العارفين باللبنات الأولى التي كانت أساس هذه الدولة الإسلامية التي ستكون بمثابة منارة إلهية للعالم وموطناً لكل باحث عن الفضيلة والهدوء الروحي .. ستكون هدية الله للبشرية ,بمعنى آخر : دولة الله بين دول العالم . ورغم كل ما نراه من أشكال تكريم الإنسان وحفظ حقوقه وكرامته وعدالة التشريع البشري التي تتمتع بها غالبية الدول الغير إسلامية ، فإنها في حقيقة الأمر ستبدو متراجعة أمام عدالة دولة الله هذه وحفظ كافة

الحقوق والكرامات والآراء لسكان هذه الدولة . ولذلك فإن الخسارة ليست خسارة إسلامية فقط ، بل هي خسارة لكل سكان العالم . ولا أريد هنا أن آتي بشواهد من أبناء الإسلام حول هذه الدولة التي أسسها محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن سآتي بشواهد من أناس خارج الإسلام استطاعوا أن ينقلوا إلى الغرب أسس ودساتير دولة الإسلام هذه التي تعرضت للانهيار على أيدي المسلمين المعاصرين . وقد أفاد الغرب من جوانب غاية في الأهمية لبناء مبادئ دولهم من دولة المسلمين المنهارة هذه ، لقد جاؤوا إلى البقايا المنهارة فأخذوها ورمموها وجعلوها أعمدة قويمة لبناء كل هذه الدول التي بتنا نهرب إليها بحثاً عن حقوقنا الضائعة ، وبحثاً عن الحفاظ على ما تبقى من كرامة وعزة نفس . يقول ول ديورانت :" تزعم الإسلام العالم كله في إعداد المستشفيات الصالحة وإمدادها بحاجاتها ، ومعالجة المرضى بلا أجر وإمدادهم بالدواء من غير ثمن . وكانت المستشفيات تحتوي على أقسام منفصلة لمختلف الأمراض وأخرى للناقهين ، ومعامل التحليل وصيدلية وعيادات خارجية ومطابخ وحمامات ومكتبة وقاعة للمحاضرات ، وأماكن للمصابين بالأمراض العقلية ". (٤)

وتروي المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها الذي أسمته " شمس العرب " :" إن البيمارستانات [⊗] كانت تقدم من موازنتها لكل مريض يدخل إليها مسلماً أو غير مسلم ، فيعافى ويخرج منها خلال فترة النقاهة ، وكانت تقدم له مرتباً شهرياً يتناسب مع دخله قبل المرض ، ويدوم هذا العطاء لمدة ستة شهور قابلة للزيادة وذلك لأن المريض الناقِه لايستطيع أن يرجع إلى عمله بمجرد خروجه من المشفى . فهذا التأمين لم تصل إليه أرقى الدول الحديثة حتى العصر الحاضر " . أمام ولادة هذه الدولة الإسلامية التي تتمتع بكل المواصفات التي تحقق للإنسان أمنه وكرامته أصبح الناس يتفاخرون بدولتهم هذه سواء من داخل الإسلام أومن خارجه . يقول ول ديورانت مرة أخرى في قصة الحضارة :" في زمن الخلفاء الراشدين مُسحت الأراضي واحتفظت الحكومة بسجلاتها وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيتْ بصيانتها ، وأقيمتْ الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها ، وكانت العراق قبل الفتح الإسلامي صحراء جرداء ، فاستحالت أرضها بعده جنات فيحاء ، وكان كثير من أراضي فلسطين قبل الفتح رملاً وحجارة ، فأصبحتْ خصبة غنية عامرة بالسكان ". وقد أقام الإسلام جزءاً من دولته في الأندلس ما يزيد عن سبعمائة سنة متواصلة ، فقدّم لهذه البلاد إنجازات إسلامية هائلة على كافة الأصعدة ، لقد بنوا المكان وأحسنوا إليه وأحسنوا إلى كل حي يقيم فيه

[⊗] المشافي

وحتى إلى الزراعة والجماد حتى باتت تلك السنوات الذهبية تُعرف في تاريخ الأندلس بـ الحضارة الإسلامية في الأندلس ، وديورانت نفسه يصف هذه الحضارة بقوله :" القباب المتلألئة ، والمآذن المذهبة جعلت بلاد الأندلس في القرن العاشر الميلادي أعظم البلاد المتحضرة في العالم كله في ذلك الوقت . وكان زائرو مدينة قرطبة يُدهشون من ثراء الطبقات العليا ومما كان يبدو أنه رخام عام ". لم يكن في ذاك الوقت مَنْ يفكّر إلاّ بالإحسان والعمل الطيب وتقديم الخير ويُذكر أن الهندسة الإسلامية استطاعت في ذلك الوقت أن تقيم جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً على نهر الوادي الكبير

" وأنشأ عبد الرحمن قناة تحمل إلى مدينة قرطبة كفايتها من ماء الشرب تنقله إلى المنازل ، والحدائق والفساقي والحمامات واشتهرت المدينة بكثرة الحدائق والمتنزهات ".

ويقول جان بول رو :" لقد وصل العرب في ميدان الصناعة الكيمياوية إلى مرتبة عالية ، فاستخرجوا المعادن وعملوا في الصناعة الزراعية مثل صناعة السكر ، وعنهم أخذتْ فرنسا الناعورة ، وطاحونة الهواء وصناعة الأسلحة ، والأقمشة ، وفن العمارة ، والبحرية ، وعلم الفلك ، والرياضيات ، والطب ، والتجارة ، والإدارة ، والموسيقى ". (٥) أما كانط الفيلسوف الألماني الشهير فيقول :" أخذت مبادئ التنكرية العقوقية تضمحل في بعض أرجاء أوربا بعد ظهور العربية الإسلامية في الأندلس التي سطع إشراقها من وراء جبال / البيرنه / إلى أواسط فرنسا ، فتناول طلاب التجدد التعاليم الاجتماعية البارعة التي انبثقت عن الحضارة العربية العظيمة وأخذوا في تبنيها ، فأيقظت فيهم رويداً رويداً شعور مكافحة التنكر والغرور ، واستبدالهما بطلب التجدد ، وظلت هذه الميول تختمر في الرؤوس حتى ظهرتْ بوادر الثورة الفرنسية الثانية ، وأعقبتها الثالثة . وماهَلّت طلائع القرن التاسع عشر حتى تسربتْ تعاليم الروح الاشتراكية إلى المجتمع الأوربي ، وكان ذلك أول تقليد شريف للعرب والإسلام تجلببتْ به أوربا لتخطو خطواتها الكبرى في سبيل تنظيم حياة شعوبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية " . والأوضح من هذا أن المؤرخ الإنكليزي جون دوانبورت إنتهى به تأريخه إلى أن قال في نهاية المطاف :" لو لم تقم في جنوب أوروبا الحضارة الأندلسية العربية ، لظلت هذه القارة تسبح مع شعوبها المختلفي النحل والنزعات في حلك من ظلمة الجهل والبداوة ، ولما ظهرت للمدنيّة الأوربية الحالية من أثر في الوجود " . والواقع أن هذه الدولة التي أسست للعالم الحديث وكذلك للمدنية الحديثة إنبثقتْ على التعاليم الإسلامية الخالصة التي أتى بها محمد لترتكز عليها أركان دولته ، وهذه التعاليم قبل كل شيء بدأت بغسل الإنسان المسلم من براثن الجاهلية ليكون صالحاً

وقادراً على بناء هذه الدولة القويمة فكان دوماً يزرع في نفوس أصحابه والمسلمين عامة القيم والمبادئ والحس الإنساني والأخوة الإنسانية ، ودوماً كان يتودد إليهم بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة فينهى مسلماً أن يحتكر حاجة ليستغل بها الناس ويقول له :" المحتكر ملعون وعاص ". وينهى الناس الاتكاء على الرب لالتقاط أرزاقهم ويدعوهم إلى العمل والتجارة والحركة فيقول لهم :" وأحل الله البيع وحرّم الربا " . ويبيِّن لهم أن الرشوة مذمومة في دولته وبين أبنائه فيخبرهم :" لعن الله الراشي والمرتشي والرائش بينهما ".

ويدعوا إلى دوام الحركة سواء حركة المال أو حركة الجسد حتى لا تكون دولته جامدة منطفئة فيخبرهم :"فامشوا في مناكبها " و" الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ". ويوصيهم :" وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " و " اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا " و" كونوا عباد الله إخوانا " و" اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله " .

لقد كان المسلم يهتدي بنور هذه الأخلاق ويسمو بها ويضحّي بكل غال ونفيس في سبيل أن يقدم لبنة إلى دولة الإسلام التي أساسها تنظيمات المجتمع المدني .

في سيرته الذاتية يسرد مالكوم إكس عام ١٩٦٤ :" لقد منَّ الله عليَّ فحججتُ البيت وطفتُ به وشربت من ماء زمزم وسعيت بين الصفا والمروة وصليت في منى ووقفت بعرفات مع عشرات الآلاف من الناس القادمين من كل أرض ، والذين يمثلون كل درجات الألوان البشرية من الشقر ذوي العيون الزرق إلى الأفارقة السود ، فأديت معهم المناسك نفسها في إخاء ووحدة كنت أحسب من تجربتي في أمريكا أنهما أمران مستحيلان بين الإنسان الأبيض والأسود ". لأن هناك يكون المسلم مسلماً ، بل جاء ليكون مسلماً :" وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ". (٦) " ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ". (٧) وروى أبو داوود وابن خزيمة في صحيحه عن أسامة بن شريك قال : خرجتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم حاجاً ، فكان الناس يأتونه ، فمن قال : يا رسول الله سعيتُ قبل أن أطوف ، أو قدمتُ شيئاً أو أخرتُ شيئاً فكان يقول : لا حرج ، لا حرج . إلاّ على رجلٍ مسلم وهو ظالم ، فذلك الذي خرج وهلك . في كتابه " رحلة حاج أمريكي إلى مكة " يقول مايكل ولف :" رحلة تعطي الفرصة للحاج ليستعد شيئاً من المساحة النقية في حياته . هذا كشيء مركزي في هذه الفريضة هو أمر ثمين جداً لأننا جميعاً نضيع في هذا العالم ". وفي حوار لجريدة " سان خوزيه ميركوري " الأمريكية يقول وولف :" عندما ترى الكعبة لأول مرة تنظر

إليها بعد أن تكون قد صليت باتجاهها لسنوات لتجدها رائعة جداً وجميلة جداً . الناس دائماً يبكون عندما يرون الكعبة بالرغم من كونها مبنى مربعاً بسيطاً . عندما تؤدي الطواف تشعر بإحساس عظيم من السمو الروحي ، ولكن في الوقت نفسه تحس بالتجمع الهائل والتكامل مع الآخرين وهذا يجعلك تسمو روحياً دون أن تشطح عن حدودك الجسدية واتزانك الطبيعي ". إن مكاناً قال الله فيه :" وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود " . هو قادر على أن يحل أعقد مشاكل المسلمين والعالم برمته . وهو مكان عادل أكثر من أي محكمة عدل دولية . إنها حالة غريبة من الازدواجية ، فمرة نتحدث بأننا غُـزينا ثقافياً من الغرب ، ومرة نذهب وندفع لهم كي يحكموا بيننا في نزاعاتنا بالعدل ، وندفع لهم ليحموننا من أنفسنا ويجعلونا في ديارنا آمنين من بعضنا البعض .

إن سورة فقه الواقع تشرح أمامنا المزيد من قول الله بأنه خلق كل شيء فقدره تقديرا وواقعنا يشرح لنا أن الإخلال بهذا " القدر " والتدخل في شؤون الفطرة لتحقيق غايات آنية يعكس حالات ازدواجية غاية في التعقيد إلى درجة إحراج الدين الإسلامي كله في المجتمع الإنساني من خلال مواقف ازدواجية بعيدة عن جوهر الإسلام . فمرة يقف عالِم إسلامي بارز ويعلن على مرأى من العالم بأن دينه جاء منذ ١٤٠٠ سنة ليقود العالم كله ، وفي ذات اللحظة يكون هو نفسه محمياً بالمكان الذي يجلس فيه من قوة لا تمت للإسلام بصلة لتحميه من المسلمين أنفسهم .

تلك الأوتار التي تأتي من بعيد من قلب إنسان معذّب ، فإنها تدعو إلى المحبة ، إلى أن يتكاتف الإنسان مع أخيه الإنسان . كل شيء يكاد يذر منّا حتى الكرة الأرضية فإننا نكاد نفقدها ، لاشيء يقتل المحبة في ضمير الإنسان كالأنانية وشهوة التملك ومتى ما فكّر الإنسان بأنه لن يكون سعيداً وهو يتسبب في آلام غيره ، وأنه لن يشبع ما دام قد سرق خبز غيره . بالطبع فإن الآلام البشرية هي آلام مشتركة ، وأن الجوع البشري هو جوع مشترك . فمهما اتسعت دواعي الرفاهية في مجتمع في وقت يرى فيه نشر الفاقة والاضطهاد ، فإنه يخفق كثيراً في كل محاولات الاحتفال برفاهيته ، وهكذا فإنه لا يوجد شخص بوسعه أن يرقص على قرع طبول الحرب مهما كانت بعيدة عنه .

هاهي المحبة عادت مرة أخرى تنشد نشيدها الأزلي وتروي بأنها طريق خلاص الإنسان من كل نزعات النرجسية . إن الشمس تشرق للجميع ، وأن الله هو للجميع .. وأن الليل كذلك للجميع . إننا نستطيع أن ننفتح على الحياة المغلقة بنور المحبة .. وكل إنسان لديه نور المحبة ، ولكن الإنسان ذاته يميل إلى فجوة الظلامية حتى ينطفئ هذا النور في أعماقه فيرتمي في ظلام .. إنه

يحوّل نفسه إلى كائن مظلم ، وأنك تكاد تميّز بين كائن مظلم ، وبين كائن منير .
يبدو بان هذه السطور لن تنتهي الليلة وأنها ستحلّق مع خيوط الشمس الدافئة التي تتهيأ للعودة الرائعة إلى أرض بدت وكأنها فقدتها أو فارقتها منذ دهر .
إننا نحتاج إلى أن ننشر ثقافة المحبة بيننا أيها السادة .. في وطننا اليتيم . وأصارح شوارعه ومدنه وعواصمه بأننا بالفعل أصبحنا عالة حقيقية على / الآخرين/ . تعالوا نبحث عن شارع واحد من شوارعنا يحمل اسم " المحبة " فإننا لا نجد ، تعالوا نبحث عن مدينة .. عن عاصمة .. عن جمهورية .. عن مملكة .. عن إمارة ..
لكن ما السبيل لثقافة المحبة .. علينا أن نبحث عنها في ثناياها .
تروي لك الأبجدية الأولى من أبجديات ثقافة المحبة أن تحب عملك وتشبع حباً فيه ، ومتى ما ضجرته ، دعه واتجه لعمل آخر تحبه . دوماً عليك أن تنظر إلى ما تعطي وتذّكر بأن هذا العطاء هو " أنت " إن كان جيداً فهو " أنت " وإن كان فارغاً فهو " أنت " . لاتنتظر مكافأة ما تعطي .. عليك أن تعطي وتعطي واعتبر ما تعطيه هو مكافأتك ولا تطلب هذه المكافأة إلاّ إذا جمعت وتوقفت عن العطاء بسبب الجوع . تذكر دوماً أن ما تعطيه هو الذي يُسجَل لك ، وأن ما تأخذه يُسجَل عليك . كن كثير العطاء ، قليل الأخذ . ما تزال الأبجدية الأولى من أبجديات ثقافة المحبة توصيك بان تمد يد المحبة خاصة لأولئك الذين ماعرفوا غير البغض عليك أن تدربهم كيف يتحابوا .. وتعلمهم أن المحبة لهي خير من البغضاء وأن كل الكون الجميل قد بُني بمحبة الإنسان وأن الكراهية وحدها كانت خلف كل حروب العالم .
عليك أن تحب الشجرة والكتاب وتعطف على حيوان ضعيف لجأ إليك .
إذا تحدثت في مجلس ، فقل كلاماً طيباً يفوح حباً كن دائم البحث عن صداقات جديدة ، ولكن على ألاّ ينسيك هذا صداقاتك القديمة ، فمن لا يقف على ماضٍ لايقف على جديد .
المحبة هي النور الذي يحيي الإنسان ، كما أن البغضاء هي الظلام الذي يطفئه تبقى حاجتنا إلى المحبة أكثر من حاجتنا إلى أي شيء آخر لأن كل هدف نبيل لا يتحقق إلاّ عبر المحبة .. المحبة التي تملئ الإنسان إنسانية وتسمو به إلى أعلى مراحل الجمال الروحي .
قال النبي : إن من عباد الله لأناساً ما هم بأ نبياء ، ولاشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله .
قالوا : يا رسول الله : فخبرنا من هم ؟

قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها . فوا لله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس . (٨)

مراجع:

١- سورة البقرة ، الآية ١٤٣

٢- أخرجه الحاكم في " المستدرك " (٣/ ٥٩٨) من حديث مصعب بن عبد الله وسكت عنه وتعقبه الذهبي بقوله : سنده ضعيف . والبيهقي في " دلائل النبوة " (٣/٤١٨) وابن جرير الطبري في" تفسيره " (٢١/ ٨٥) من طريق كثير بن عبدالله المزني وابن سعد في " الطبقات " (٤/٨٣،٨٢) من حديث الحسن مرسلاً ووصله أيضاً (٧/ ٣١٩،٣١٨) من طريق كثير بن عبد الله المزني وهو ضعيف ، وذكره الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٦/ ١٣٠) وقال : رواه الطبراني وفيه كثير بن عبدالله المزني وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه وبقية رجاله ثقات . من حديث عمرو بن عوف المزني وذكره الألباني في " ضعيف الجامع " (٣٢٧٢) وقال : ضعيف جداً .

٣- سورة الأنعام ، الآية ١١

٤- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الثالث عشر ، ص ٣٦٠ ، ٣٦١ ، طبعة جامعة الدول العربية

٥- جان بول رو ، الإسلام في الغرب ، ترجمة نجدة المهاجر ط ١ ، ١٩٦٠

٦- سورة البقرة ، الآية ١٢٥

٧- سورة الحج , الآية ٢٥

٨- الحديث في كتب السنن عن ابن مسعود رضي الله عنه بسند صحيح .

٧- السلوك الإيماني

الإيمان يقود الإنسان المؤمن نحو ممارسة سلوك إنساني يميِّزه ، لقد كان الإنسان عبر تاريخه جاهلاً مظلماً إلى أن جاءت الأديان فعلّمته وأنارتْ ظلمته . هذه هي طبيعة الإنسان ، فهو لايتعلم إلاّ من ربه ، فلو لم يعلّمه ربه من خلال الأديان والأنبياء والصحف والكتب السماوية للبث يمارس سلوكاً حيوانياً ، ولما استطاع أن يحقق كل هذه الثورة العلمية والفكرية والثقافية التي تؤكد تميزّه وتأثره بما تلقاه من الله . ليس للإنسان أي مصدر لعلمه وثقافته سوى الأديان وتاريخ الأنبياء ولم يكن ليتثقف لولا أن ثقفه الله ، إذ لا يوجد شخص عبر التاريخ البشري كله ادعى بأن ثقافته أتتْ من كوكب آخر ، وحتى العلوم الإلحادية فإنها تستمد إلحاديتها من تاريخ الأنبياء والأديان ،إذ لا يوجد فكر بشري يخلو من ذكر الله ، إنه موجود في فكر البشر أينما ذهبوا ، فرغم تاريخ الإلحاد لم يظهر إنسان واحد ادعى بأنه استطاع أن يلغي الله من تفكيره, وحتى لو سعى إلى ذلك فإن الله هو الذي يكون محرّك تفكيره ، أي أنه في ذروة محاولة نسيان الله يفكر أنه كيف سينسى الله ، وبذلك فهو علمياً يفكّر بالله وهو يقول بنسيانه . الإيمان بالله وعبر تاريخه الطويل من ذاك العدد الهائل من الأنبياء والأديان أراد أن يرسخ قاعدة " الأخلاق " في ضمير الإنسان ، ليتمتع هذا الكائن الجديد على كوكب الأرض بالمشاعر الإنسانية على قدر اكتسابه للأخلاق حتى أن خاتم الأنبياء سيأتي ليخّلص أنبياء البشرية ورسلها فيقول :" إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق "
وعندما يثني عليه الله فإنه سيقول له :" وإنك لعلى خلق عظيم " وهذه شهادة كبرى ليس لمحمد وحده ، بل للإنسانية كلها التي شهد الله لأحد أبنائها وحفدتها بأنه كذلك . وعندها سيغدو الإنسان أكثر رقياً وأكثر حضارة وأكثر قيمة وأكثر قرباً من الله . لسوف ينفتح الإنسان على إنسانيته بصورة أوضح بعد أن يلخّص هذا الرسول مهمة الأنبياء والرسل ، ولسوف يتعرف الإنسان على ربه كما لم يتعرف عليه من قبل ، سيخطو خطوات هائلة نحو استثمار هذا العلم والانفتاح البشري الذي لم يكن يخطر ببال إنسان من قبل حتى في الحلم ، وسينجز في قرن ما لم ينجزه أجداده في مليوني سنة . لم يكن ذلك من فراغ ، فالإنسان هو الإنسان ذاته ، بل ربما كان الإنسان الأقدم أكثر قوة وأطول عمراً ، ولكنه لم يكن أكثر انفتاحا لأن الله لم يكن قد قال له كل شيء ، وكان قد قال له أشياءً فقط من كل شيء ، ولم يكن الله قد أرسل إليه رسوله

الأخير ليلفظ آخر كلماته في مسألة انفتاح الإنسان على ذاته وعلى الله ، وفي مسألة معرفة الإنسان لذاته ولله . وليس صحيحاً في مكان اجتماع العلم والإلحاد ، بل الصحيح هو اجتماع العلم والإيمان ، لأن الإنسان كلما ازداد علماً ، ازداد معرفة بقدرات الله ، وهذا يزيده إيماناً ، حتى لو لم يفصح عن إيمانه ، أو يفصح عنه بإبهام كأن يقول :" ثمة قدرة خارقة تضبط الكون " إنه لايختلف في حقيقة الأمر عن أي مؤمن يقول :" الله قدرة خارقة تضبط الكون ". ولكن الأول يكون أكثر ترسخاً في الإيمان لأنه أكثر إطلاعاً وأكثر علماً ، فالعلم هو ذروة الدين ، وليس من تباعد بين العلم والدين . وحتى عندما يُقال عن شخص متفرّد ما بأنه " علماني " كتهمة إلحادية ، فإن مجرد قراءتك لأفكار هذا الرجل " العلماني " تبيِّن مدى ترسخه في معرفة الله ، ومن ذلك لا حرج ان تتشكّل لديه مفاهيم خاصة عن صلب العلاقة مابين الإنسان والله قد تصطدم هذه المفاهيم مع مفاهيم سائدة . ومن حق الإنسان أن يفكّر ويتعرف على نفسه وعلى ربه بمفاهيم جديدة لتتحقق أسباب استمرارية الإنسان في اكتشافات واجتهادات جديدة ، فالله الذي يحقق هذه الاستمرارية في السلسلة البشرية ، يحقق كذلك استمرارية في علوم ومفاهيم جديدة على الإنسان بصورة عامة . والقرآن ذاته هو دعوة إلى مزيد من التفكير والتأمل ، والإنسان بالفعل يحقق منجزات هائلة علىكافة الصعد التأملية والفكرية والتقنية والصناعية .

لقد كان طه حسين شخصاً " علمانياً " بامتياز ولكنه كان يستمد ذروة إيمانه من أعماق هذه العلما نية التي أهلته لأن ينظر إلى الدين نظرات ايما نية خاصة به وكان هذا قد حدث مع الحلاج ، ومحي الدين بن عربي ، وابن رشد كما يمكن أن نلمح شذرات " علمانية " لدى ابن سينا ، والطبري ، وابن تيميه . كل هؤلاء كانوا مؤمنين رغم أن بعضهم قد تعرض لأسوأ أشكال التعذيب والتجريح والإحراج من قبل أناس أرادوا أن يلغوا التفكير ويجمّدوا دور العقل والتطور وكأن الإنسان يعيش فقط بانتظار قيام الساعة وعليه أن يغمض عينيه ويعيش بانتظار أن تباغته الساعة . إن أي باحث يعجز أن يستوعب العلمانية بشكل سوي قبل أن يستوعب الدين والحرية .

وهذا كله كان دوماً ضد دواعي الاستمرار البشري ، لأن جيلاً واحداً مهما أوتي من قوة في التفكير والمعرفة فإنه لايستطيع أن يقدّم تفسيراً كاملاً لكتاب بحجم القرآن ، بل أن كل جيل يأتي فيجد فيه مالم يجده الجيل السابق ، والقرآن لم ينزل ليفسره جيل واحد ، بل نزل لتفسره كل الأجيال البشرية ، فالزمن يعرّف الإنسان بربه على نحو أوثق ، وهكذا فإن كل جيل يعيش حرارته وحيوته ويترك بصمة مميّزة في تاريخ البشر . ودوماً فإن أهل العلم هم الذين ينيرون الدروب الداجية أمام الأجيال بقناديل علومهم . كما أن لكل

جيل موقع من الزمن ، فإن لكل اكتشاف موقع زمني قُدّر له ألا يظهر إلاّ فيه . إن ولادة كل جيل تتلازم مع ولادة مكتشفاته ولذلك ترك الله العقل البشري مفتوحاً للتأمل والتفكّر والاكتشاف لأن كل اكتشاف لايتحقق إلاّمن خلال عقل مفتوح على كل جديد والواقع فإن سمة العلم ميّزت الإنسان حتى عن الملائكة الذين تعلّموا من آدم كما ينص القرآن ، والله علّم الإنسان ما لم يعلّم الملائكة ، والملائكة تلقوا هذا العلم من الإنسان في بداية قصة الخلق .
يخبرنا الحق تبارك وتعالى :" وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين " . وينقل الله لنا ما قاله الملائكة في ذلك :" قالوا : سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم " . ثم يكمل الله هذه الوقائع بقوله أنه :" قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم " ويقول : " فلما أنبأهم بأسمائهم قال : أ لم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ".
(١) ٠إذاً فقد خص الإنسان وحده بأن علّمه مالم يعلم وعلى ذلك فأصبح الإنسان يعلم مالم يكن يعلم وهو أيضاً يعلّم غيره من مخلوقات الله شيئاً من هذا العلم الذي خصه به الله . فلم يقل الله : إنما يخشى الله من عباده الجهلاء ولكنه قال :" إنما يخشى الله من عباده العلماء " ولذلك تجد العالِم أكثر أخلاقاً من الجاهل . ولايمكن بأي حال أن تجد عالماً يمشي عارياً في الطريق سواء في ستوكهولم أو في باريس أو في قَطَر . ولذلك فإن العلماء حتى في المجتمعات المنادية بالإباحية يعيشون أكبر قدر من التحفظ . لأن السلوك الإنساني هو مغاير عن السلوك الحيواني ، ولو تأ نسن الحيوان ذاته لرأى تردداً في مسألة إباحيته وهمجيته . الحيوان يأتي الطعام فيلتهمه إلتهاماً دون أن ينظر فيه حتى لو كان في ظلمة ، ولكن معدة الإنسان قد لا تقبل طعاماً إلاّ إذا كان في ضوء ومعرفة نوعية هذا الطعام ، وتذوّقه أولاً ، وقد ترفض هذا الطعام جملة إذا وقعتْ فيه حشرة . والإنسان لا يلتهم أي طعام يلقاه ، بل إن المطاعم تقدّم بياناً بأنواع المأكولات ، فينتقي الإنسان الأنواع المحببة إليه ويمضغ اللقمة على مهل ، ويستمتع بالنكهة والطعم واللون ، ولايدفع اللقمة إلى معدته إلا بعد مضغها بشكل جيد والتمتع بنكهتها وطيبها ورائحتها . وهو يكون في فراشه الآمن مع زوجته متأدباً ، وحتى هو في حجرة مغلقة آمنة ، فإنه يطفئ الضوء ، وحتى وهو يطفئ الضوء فإنه يتغطى ، وإن أراد حديثاً فإنه يتحدث همساً ، وإن أراد ملاطفة ، فإنه يلاطف بلطف . وهذا هو ذروة السلوك الإنساني الذي يحفظ له إنسانيته ، فهو له مقدسات وأسرار ومحرمات على عكس الحيوان الذي لا يجد حرجاً من الاغتصاب والإباحية والمطاردات .فنجد شريحة ترى في هذا السلوك الحيواني الغريزي حرية ، وتريد أن تعيش هذه الحرية البهائمية بكل لامحرماتها ، ولاأخلاقياتها ،

ولاآدابها ، وكان هذا قد حدث مع الإنسان البدائي عندما عاش في الغابات والكهوف ، فكان يقلّد الحيوان في كثير من السلوكيات ، ولكنه عاش شقياً لأنه كان يعيش ازدواجية حقيقية ، لأنه بكل واقعية لم يكن حيواناً ، وكان دوماً يصطدم بحقيقة أنه إنسان وعليه أن يترفع عن هذه السلوكيات التي لا تناسبه كما تناسب الحيوان . رغم كل هذا التطور والتاريخ الطويل من الحضارة والرقي البشري فما زال البعض يريد أن يعيد الإنسان إلى الغابات والكهوف ليعيش ببهائمية البهائم ، ولكن هؤلاء أنفسهم يعانون إزدواجية حادة ترهقهم لأنهم لايستطيعون أن ينسوا انتماءهم إلى السلسلة الإنسانية وبذلك يعيشون في عزلة حقيقية عن دفء العلاقات الإجتماعية الراقية والنزيهة إلى جانب أنهم ينحرفون عن أعظم شعور إنساني ، ينحرفون عن الحب الذي به يكتمل الإنسان ، ويتذوّق حلاوته كلما سمى ، وعليكم أن تتصوروا حياة كائن لايحب ، حتى البيت الذي لاتحبه فإنك تكره الجلوس فيه ، حتى السيارة التي لاتحبها فإنك تكره قيادتها ، حتى المدينة التي لاتحبها فإنك تكره العيش فيها ، حتى الأغنية التي لاتحبها فإنك تكره سماعها حتى المرأة التي لاتحبها فإنك تكره النوم معها . ولكنك تعيش في البيت الذي تحبه بفرح ، تقود سيارة تحبها وأنت تبتسم وتمضي في مدينة تحبها كأنها مملكتك ، تستمتع بأغنية تحبها كأنها غُنيتْ لك ، تحتضن امرأة تحبها كأنها ستغادرك غداً ولن تترك بين يديك غير بقاياها .

وإن كانت تلك الفئة التي تطالب ببهائمية السلوك البشري ، تعنيه وتتقصده ، تقف إلى جانبها فئة أخرى تعيش السلوك البهائمي دون أن تعنيه أو تتعمده ، فهي تلتهم الطعام أياً كان وعلى عجلة البهائم ، وتلاحق غرائزها في الطرقات والأزقة وإن حدث ذلك وقوفاً على طريقة الحيوان ، تدخل البيوت قبل أن تطرق أبوابها ، تقتحم الناس بدون ضوابط أو مواعيد ، وإن أكلت طعاماً لاتغتسل منه ، إن بالت لاتستبرئ من بول ، إن تحدّثتْ ألقت الكلام على عواهنه .

إن الإيمان دوماً يوصيك :

لاتخط خطوة إلى موضع لايسبقك إليه قلبك

لا تأكل لقمة لا يسبقك إليها قلبك

لا تلبس لبساً لا يسبقك إليه قلبك

لا تزر شخصاً لا يسبقك إليه قلبك

لا تنكح إمرأة لا يسبقك إليها قلبك

لا تعمل عملاً لا يسبقك إليه قلبك

لا تقرأ آية اً لا يسبقك إليها قلبك

لا تصل ركعة لا يسبقك إليها قلبك

عندما تأوي إلى الفراش ليلاً[⊗]، احمد الله الذي منحك ليلاً جديداً تتمتع فيه بنعمة الاستلقاء والنوم والأحلام . وعندما تنهض صباحاً ، احمد الله الذي أهداك نهاراً جديداً تتمتع فيه بممارسة حياة كاملة . ولا تنس أن الله كان بمقدوره أن يجعلك خالياً من الحياة هذا الصباح ، وأنه هو الذي أحبك وأكرمك بيوم جديد تنعم فيه بدفء العيش .

لاحرج عليك أن تسعى بذاتك نحو الأفضل ، أن تكرّم ذاتك أن تبدو في مظهر حسن وأنت في بيتك وفي الناس ، أن تكافح الفقر بالعمل ، أن تحسن وضعك المعيشي والمالي فقد كان النبي يتعوذ بالله من الفقر والجهل وغلبة الدين وقهر الرجال ، وكان يسأله الهدى والتقى والعفاف والغنى . ولا ينحصر الغنى هنا بغنى المال ، بل يشمل غنى الصحة ، وغنى المودة ، وغنى الإيمان ، وغنى التسامح . وأمرك الله في كتابه العزيز أن تحرص على أموالك ولا تعطيها للسفهاء .

واعلم أنك لاتقدر على نظافة ما حولك إن لم تنظف ذاتك فلا يقدّم نظافة للآخرين مَنْ به روائح نتنه ، ولا يستطيع أن يُطعم جائعاً مَنْ به جوع . تمتع دوماً بدقة اللمسات الأخيرة لأي عمل مكّنك الله منه ، وهبك الله جسداً ، وهبك حياةً ، كن سيداً على جسدك وسيداً في الحياة ، أكرم جسدك ، تكرمك الحياة . احفظ جسدك حتى يحقق لك الصفاء الذهني والسكينة الروحية . إن جسدك يحتاج إليك حتى يكون في حالة سلم معك ، عليك أن تغذيه ، تنظفه ، تعالجه ، تحميه برد الشتاء ، حرارة الصيف ، أذى الأماكن الموبوءة ، تحفظ كرامته ، تستره ، تكسيه، إنه يحتاج إلى حركة ، يحتاج إلى رياضة ، يحتاج إلى استرخاء ، يحتاج إلى استحمام ، يحتاج إلى تنزّه ، يحتاج سفر . إن جسدك كوردة إن حافظت عليها لبثت متفتحة ، وإن أهملتها ذبلتْ واحتضرت ، وكما أن للوردة تربة طيبة صالحة تمنحها النضارة والإشراق ، فإن تربة الأجساد هي الأخلاق الحميدة الصالحة . عليك دوماً أن تصلح من تربة جسدك حتى يبقى نضراً ومشرقاً ٠ وعدك الله مخاطباً إياك :" إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرا ت أعد الله لهم مغفرة وأجراً

[⊗] – ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلا . الإنسان ٢٦

- ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . ق ٤

ثم تأمل قول الله :" قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، مَنْ إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " القصص ٧٢ –٧٣

عظيما " . ففي عالم الإيمان :" كُلُّكم رَاعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته . فالإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راعٍ ومسؤول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته ". (٢)
ويقول السلوك الإيماني :" ما من إمام يُغلق بابه دون ذوي الحاجات والمسكنة إلاّ أغلق الله أبواب السماء دون خلته⊗وحاجته ومسكنه ". (٣)
ويقدّم النبي سلوكاً إيمانياً حسناً عندما يعرض رغبته بالزواج من امرأة يهودية⊗من بنات قريظة بعد أن أصبحتْ هذه المرأة في ملكه ، فتقول له : يارسول الله ، بل تتركني في ملكك ، فهو أخفُّ عليَّ وعليك ". (٤)
فانظر إلى حال الإنسان إذا خلا قلبه من إيمان بالله ، روي عن ابن عباس أنه قال :" كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة ، فإذا ولدتْ بنتاً ، رمت بها في الحفرة ، وردت التراب عليها وإذا ولدت ولداً جلبته ". (٥)
يُروى في كتب التراث أن أبا حمزة الضبي قد هجر خيمة امرأته وكان يقيل ويبيت عند جيران له ، حين ولدت إمرأته بنتاً ، فمر يوماً بخبائها وإذا هي ترقص ابنتها وتقول :

ما لأبي حمزة لا يأتينا — يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أ لاّ نلد البنينا — تاالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا — ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا (٦)

وحتى في المجتمعات الأخرى لم تكن أفضل حالاً فقد عبّر سقراط عن مفهوم مجتمعه قائلاً :" إن وجود المرأة هو أكبر منشأ ومصدر للأزمة والانهيار في العالم ، إن المرأة تشبه شجرة مسمومة ظاهرها جميل ولكن عندما تأكل منها العصافير تموت حالاً ". أما في عهد الإمبراطورية الرومانية فكانوا يعذبون النساء بسكب الزيت الحار على أجسادهن تارة ، وأخرى بربطهن بذيول الخيول الماهرة وجرهن . وفي الهند فإن عقيدة / سانتي / تقضي

⊗ – الخلة : الحاجة والفقر . اللسان جـــ ١١ ص ٢١٥

⊗ – هي ريحانة بنت عمرو بن جُنافة ، إحدى نساء بني عمرو بن قريظة ، كان النبي قد اصطفاها لنفسه ، فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفى عنها وهي في ملكه ، وكان قد عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب ، فقالت : يا رسول الله ، بل تتركني في ملكك .. الخ ، وقد كانت حين سباها قد تعصّت بالإسلام ، وأبتْ إلاّ اليهودية .

بموافقة المرأة التي مات زوجها على حرق جسدها بجانبه وإن رفضتْ ستكون شاذة ومذمومة حتى من أقرب الناس إليها . وفي الصين فقد تم تلخيص المرأة بأنها مثل / المياه المؤلمة / . وعقيدة / نيوك / تقول بأن على المرأة أن تضطجع مع غير زوجها حتى تتجب الأولاد . أما في عقيدة / بها كوداكينا / يقول السير بندرا كان :" يرون المرأة ما هي إلاّ تجسيد للأرواح الخبيثة المجرمة التي ولدتْ على هيئة امرأة ".
وفي كتابها " وضع المرأة في مها بهارتا " تقول أنديرا :" تشبه المرأة بالسيف الحاد إنها تولد النيران ومن أجل هذه الخصائص على الرجل ألاّ يحبها ولا يعشقها أبداً ".
ولبث الأمر على ماهو عليه حتى عند المجتمعات اليهودية التي نظرت للمرأة الحائض على أنها نجسة وأنها تنجّس كل ما تلمسه حتى إذا كان حيواناً ، والمرأة هي المسؤولة الأولى عن أي عمل غير أخلاقي يقوم به الرجل ، وفي هذه المعتقدات فإنه يجوز للأب مثلاً أن يبيع بناته بيع الرقيق ، وفي حال الولادة فإن عليها تقديم ذبيحة تكفيراً عن نجاستها بعد مرور أربعين يوماً للمولود الذكر وثمانين يوماً للأنثى . وهذا ذاته استمر ، فهي المسؤولة عن خطيئة الإنسان الأولى لدرجة أن البعض رأى أن الله قد بعث عيسى حتى يتعذّب ويُصلب ليغسل ذنوب الإنسان ، وقد امتنع البعض بالفعل من الاقتران بالمرأة لأن عيسى نفسه لم يلمس امرأة . ففي خطابه إلى النساء يقول ترتولين :" يستمر إلى اليوم توبيخ الله لكن ولجنسكن عامة ، وعلى هذا يجب أن يبقى في نسلكن الشر والحقد . أنتن أيتها النساء مدخل للشيطان ، أنتن اللاتي قطفتن من ثمار تلك الشجرة الممنوعة ، أنتن اللاتي حطمتن القانون الرباني ، أنتن اللاتي خدعتن آدم ، وذلك قبل أن يبدأ الشيطان حملاته ، أنتن اللاتي أضعتن أسماء الله بسهولة كاملة من طبيعة البشر ، وإن شقاء الموت يرجع لعملكن القبيح ، وحتى موت ابن الله يرجع لعملكن الشنيع ".
أما القديس بولس فيخاطب عامة مريديه بقوله :" دعوا المرأة تتعلم السكوت والهدوء أمام كل المصاعب والمتاعب التي تتحملها ، ولكنني لا أتمكن أن أصمت أمام امرأة تدرس أو تتسلط على زوجها ، لأن أول خلق كان آدم ، ومن ثم خُلقتْ حواء ". ويصف جريجوري توماركوس المرأة بقوله :" لقد بحثتُ عن العفة بينهن ولكن لم أعثر على أي عفة ، يمكن أن نعثر على رجل من بين ألف رجل ذي عفة وحياء ولكن لن نتمكن أن نعثر على امرأة واحدة لها عفاف وخجل .
إن الوحشية والافتراس خاصة الكواسر ، والغضب المملوء بالموت خاصة الثعابين ، ولكن المرأة علاوة على امتلاكها لهاتين الصفتين تتصف بالحقد

والحسد أيضاً " . فجاء الإسلام وأعطاها ما لم تُعط في تاريخها ، وقد أنصفها الله وأمر المسلمين تحقيق هذا الإنصاف فمن قوله تبارك وتعالى لعامة الناس في القرآن :" ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ". وجعل لهن بيعة كبيعة الرجال في قوله :" يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ". ومنحها كامل حقها في قوله :" وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل أو كثر نصيباً مفروضاً ". وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم :" مَنْ كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة "، وخرج أبو نعيم الحافظ عن حديث الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال رسول الله :"مَنْ كانت له بنت فأدبها فأحسن أدبها وعلمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه كانت له ستراً وحجاباً من النار ".
وهذا عمر بن الخطاب الذي وأد ابنته في الجاهلية يقول :" والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل فيهن ما أنزل وقسم لهن ماقسم ". ويمر ذات يوم ومعه أناسٌ في طريق ، فتستوقفه امرأة ، فيقف يحدّثها ، فيقول له رجلٌ :" يا أمير المؤمنين حبستَ الناس على هذه العجوز ". فيقول عمر :" ويلك أتدري مَنْ هي ؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات .. هذه خولة بنت مالك بن ثعلبة التي أنزل الله فيها :" قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ". وهو ذاته يخطب في الناس مرة طالباً منهم تخفيف المهور ، وأن مَنْ دفع لامرأته مهراً أكثر من مهر نساء النبي فسيأخذه لبيت المال . فترفع امرأة صوتها قائلة " وما ذلك لك .
يقول : ولِمَ ؟
تجيب : إن الله تعالى يقول :" وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ".
فيقول عمر جملته الشهيرة :" أخطأ عمر وأصابت امرأة ".
وعن عائشة رضي الله عنها أنها: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها ,فأطعمتها ثلاث تمرات , فأعطت كل واحدة نمرة , ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما , فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :" إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار ". (٧) و ورد في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود أنه سأل رسول الله : أي ذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل الله نداً وهو خلقك ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك ". ويمضي السلوك الإيماني بالمؤمن ليجعله كائناً مسالماً رفيقاً فيمتثل لشرح

فاطره :" وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم ". (٨) ثم يأتيه نداء الإيمان :" مَنْ قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول : يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة ". (٩) إن هذا العصفور هو مِنْ خَلْقَ الله ، فلا يجد أحداً يشكوه غيره ، فيرتقي إلى أن يتحدّث مع الله .

المؤمن كله خير وهو " كالغيث أينما وقع نفع " وهو شخص لايعرف اليأس ولا القنوط ، فهو مؤمن بأنه لو ذهب إلى الله ملء الأرض ذنوباً ، أتاه الله ملء السماء رحمة . وفي الوقت الذي تستولي فيه الكآبة على شخص أصابه الأرق وعجز عن النوم وبدأ يستخدم أدوية منوّمة بسبب إيمانه الضعيف ، فإن المؤمن الراسخ في إيمانه يُدرك بأن الله قد رحمه هذه الليلة واختاره ليسهر معه ، فتراه بسرور يساهر الله الذي لا ينام عن عباده .

ما من شيء إلاّ تراه يهرع إلى يدَي ربه سائلاً إياه . قال البخاري :" صنفتُ كتابي / الجامع /في المسجد الحرام ، وما أدخلت فيه حديثاً حتى استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وتيقنتُ صحته " ٠ ونقل الذهبي عن الإمام محمد بن اسحاق بن خزيمة قوله :" كنت إذا أردت أن أصنف الشيء ، دخلتُ في الصلاة مستخيراً حتى يقع لي فيها ثم أبتدئ ". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من سعادة ابن آدم استخارته الله ، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله ". (١٠) يجد المؤمن متعته الكبرى على قدر ما يمكّنه الله من فعل الخير .

ها هو مؤمن يمضي على طريق عام قائداً مركبته ، فتقفز قطة إلى العجلات يهتزّ المؤمن ويوقف مركبته بكل قوة ، لكنه يدرك دهس القطة ، يرتجف خوفاً من الله ، تعلو حنجرته غصة ، تنذرف دموع من عينيه ، ويأبى المضيء كأن شيئاً لم يكن ، يشرد بعض الوقت ، ثم يهتدي إلى حمل الضحية فيحفر لها حفرة صغيرة ويبتعد عن القبر الصغير بخطوات وجله . بعد شيء من مسير يتوقف لشخص مقطوع فيوصله إلى بيته ، يرى سائلاً فيعطيه ، يرى ضائعاً فيرشده ، يرفع ضائقة عن شخص يئن تحتها . إنه يكفّر عن خطيئته ويسأل ربه ألاّ يسلط عليه بذنبه مَنْ لا يخاف الله ولا يرحمه . إنك لا تستطيع أن ترفق بالحيوان ما لم تحبه ، وتنظر إليه على أنه إبداع الله ، وهذا التنوع في الأحجام والتراكيب إنما هو دليل غنى خلق الله . يمكن لك أن تتعبد الله وأنت تنظر إلى أي حيوان تراه .

لا يمضي الإنسان في نهج معصية حتى يزينها في نفسه ، ويرتكبها بينه وبين نفسه ، لأن الشهوات تسبقها الشبهات ، فالسارق ، يخطط لسرقته ، ويمارسها في مخيلته حتى يجيز لنفسه أن يكون سارقاً قبل أي فعل سرقة على أرض الواقع ، ثم تليها مرحلة التنفيذ المادي فتنتقل هذه السرقة من داخل

النفس إلى أرض الواقع . وهكذا يكون الأمر في الخلوة بين رجل وامرأة ، فالرجل والمرأة يكونان في حالة اشتباه ويقبلان هذا اللقاء ويجيزان لنفسيهما هذه المعصية حتى يتمكنان من الاندفاع إليها . قال أحمد شوقي : نظرة ، فابتسامة ، فسلام ، فكلام ، فموعد ، فلقاء . ويمكن أن يكون الأمر عكسياً ، فرجل مؤمن يحمل في نفسه قيماً تمنعه من السرقة ، وهو يدفع الشبهة فلا تتحقق في ذاته ، في هذه الحالة حتى لو اختلى هذا الرجل بالمال فإنه لا يقدم على سرقته لأن هذه السرقة لم تتحقق في نفسه أولاً ، فينسحب من المكان وهو يتعوذ الله ، وإن تكرر الموقف فإنه يستغني عن الموضع المشبوه كله ، فيبحث عن عمل آخر لا شبهة فيه ، وهكذا الأمر بالنسبة للرجل والمرأة ، فكم من رجل امتنع عن دخول بيت بسبب شبهة تراوده ، وكم من إمراة تركت عملها في دائرة بسبب شبهة تتحاشاها . من هنا جاء خطاب الله إلى الإنسان جلياً :" إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " . لم يكن الخطاب : إن الله لايغير ما بنفوس قوم .. ولا : حتى يغيروا ما بهم . فالأعمال كما بيَّن النبي لاتكون إلاّ على أساس " النيات " فإن أصابك مرض فأنت تتخيَّل ذهابك إلى طبيب ، وتتخيَّل أن مرضك له دواء لأنك تؤمن بأن ما من داء ، إلاّ وله دواء ، وبدون هذا التخيّل الذي يوصلك إلى قناعة الذهاب إلى الطبيب ، فإنك لن تذهب إليه . علاقتك الكلية هي مع نفسك ، لا مع جسدك ، لأن الجسد يمضي إلى حيث تدفعه النفس ، ومن هنا فإن النفس هي تلك التي تتمتع بما أباحه الله لها ، وهي التي تتألم بما نهاه الله عنها ، فإن خرجتْ النفس من الجسد ما تألم الجسد حتى لو قُطع منه عضو ، وإن خرجتْ النفس لن يتمتع الجسد حتى لو وُضع في جنة من جنان الأرض . فإن أردتَ التخلص من معصية لن يكون لك ذلك ما دمتَ لا تقلع عنها في نفسك ، عليك أن ترفضها جملة وتفصيلاً في نفسك ، ولا تتمثلها ولا تتخيّل نفسك بها ، عند ذاك فإن فعل المعصية لاتقع . وليس كل ناوٍ لمعصية مرتكبها ، بل يمكن أن تعقبها نية لتركها ، كما ليس كل ناوٍ لحسنة مرتكبها ، فقد تعقبها نية سيئة فتقلبها ، ومن رحمة الله بالإنسان أنه يعفو عن النية السيئة إذا أعقبتها نية حسنة .

إذا اعتراك شيء من الظن فتذكّر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الظن هو أكذب الحديث . وإذا تلبّستك شبهة ، فاستعذ بالله قبل أن تتبعها شهوتك ، واعلم أن الشهوات هي نائمة حتى تأتيها الشبهات فتيقظها ، وتجنّب مواطن الشك من الأمور . أعلمك رسول الله أنه ما من رجل اختلى بامرأة إلاّ وكان الشيطان ثالثهما . خذ هذا الحديث منهاجاً لعموم حياتك . ويمكن أن تقيس هذه الخلوة على جل حدود ربك .

مراجع:

١- سورة البقرة ، الآيات ٣١ ــ٣٢ ــ٣٣
٢- صحيح البخاري جـ ٩ ص ٦٢ وصحيح مسلم جـ ٢ ص ٢١٣
٣- سنن الترمذي جـ ٦ ص ٧٣
٤- أخرجه ابن جرير الطبري في " تاريخه " (٢/ ١٠٣) والبيهقي في " الدلائل " (٢٤/٤) وابن كثير في " البداية "(١٢٦/٤) وابن سيد الناس في " عيون الأثر " (١١٢/٢) وابن سعد في " الطبقات " (١٣١/٨) وانظر " الإصابة " لابن حجر (٨ / ٨٧،٨٨) و " أسد الغابة " لابن الأثير (١٢٠،١٢١/٧) .
٥- انظر تفسير البيضاوي ، ج ١ ، ص ٦٧٠ بلوغ الأرب ج ٢ ، ص ٤٣
٦- الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٠٤
٧- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ص ١١٧ ــ١١٨
٨- سورة الأنعام ، الآية ٣٨
٩- النسائي وابن حيان
١٠- رواه الإمام أحمد (١٦٨/١) والحاكم في المستدرك (١/ ٥١٨)

٨- آخر رسل الإيمان

سوف ينذر هذا الرجل بنحر أحد أولاده أمام الكعبة لله إذا رُزق بعشرة أولاد من الذكور . فيرزقه الله بـ : العباس ، وحمزة ، وعبد الله ، وأبي طالب / عبد مناف/، والزبير ، والحارث ، وحجلا ، والمقوِّم ، وضرار ، وأبي لهب /عبد العُزِّى / . ويرزقه بست نسوة : صفية ، وأم حَكيم البيضاء ، وعاتكة ، وأميمة ، وأروى ، وبَـرَّة . وهو في ذروة الفرح بهذه الذرية يتراود إليه نذره السابق ، فيجمع هؤلاء ويخبرهم بأمر نذره الذي نذر فيبدون استعدادهم لما

يراه ، يقول لهم : ليأخذ كلّ رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتوني . يفعل الأبناء ذلك ، فيدخل على / هُبَل / في جوف الكعبة ليرى على مَنْ من أولاده سيقع النذر ويقول له : اضربْ على بني هؤلاء بقداحهم هذه . ثم يخبره بالنذر ، فيتقدم الأخوة كل واحد يقدّم القِدح الذي فيه اسمه , بينما يبتهل الأب ألاّ يقع النذر على أقرب واحب أولاده إليه عبد الله . فتناول القادح القِداح وضرب ، فخرج على عبد الله . لم يبق أمام الأب إلاّ أن يرضى بهذا فتناول السكين وراح به إلى إساف ونائلة ليذبحه . فلما بلغ الخبر قريشاً أتته قائلة بدهشة : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ أجابهم : أذبحه . تقول قريش : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذِرْ فيه ، لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجلُ يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا . وكان الخوف أن يغدو ذبح الذكور عادة كما الحال في وأد الإناث لدى طائفة من الناس . وأجمعوا أن يفدوه بأموالهم ، ثم انتهى الأمر إلى قول قريش : انطلق به إلى الحجاز ، فإن به عَرّافةٌ لها تابع ، فسلها ، ثم أنت على رأس أمرك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فَرَج قبلته . اقتنع الأب بهذا الاقتراح الأخير لعلّه يجد مخرجاً من هذه الشدّة التي وضع نفسه بها . وبالفعل وقع على العرّافة وأخبره بأمره ولكنها تقول له : ارجعوا عنّي اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله . فعادوا إليها حيث رأت وعبد المطلب يسأل مخرجاً مهما كلّفه ذلك من ثمن . عندها قالت العرافة : قد جاءني الخبر ، كم الدية فيكم ؟

قالوا : عشرٌ من الإبل .

قالت : فارجعوا إلى بلادكم ، ثم قرّبوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقِدَاح ، فإن خرجتْ على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجتْ على الإبل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم . لقد كان في الأمر بعض الفرج ، أو بعض التأجيل في ذبح هذا الفتى الذي لا ذنب له سوى أنه يطيع والده ، ولكن لبث الأب قلقاً لأن القِدح إذا تكرر على الفتى فهذا يعني إضافة المزيد من الإبل في كل مرة ، وإن لم يقف هذا التكرار عن حدّه يتوقف الأب فيؤثر ذبح الولد . لم يتردد هذا الأب لدى عودته من اللجوء إلى هُبَل وهو يدعو الله نجاة ابنه ، وثم وضع عبد الله وعشراً من الإبل ، و ضربوا فخرج القِدْحُ على عبد الله ، فزادوا عشراً إلى العشر السابقة ، وعبد المطلب يدعو الله النجاة ، ثم ضربوا فعاد القدح إلى عبد الله ، فزادوا عشراً إلى العشرين ، وعبد المطلب يدعو الله أن يخرج القدح على الإبل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، ولم يترددوا من إضافة عشر إلى الثلاثين ، وعبد المطلب يسأل الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . أضافوا عشراً إلى الأربعين ، وعبد المطلب يدعو الله نجاة فلذة كبده ، فضربوا القِدح وخرج على عبد الله ، وزادوا

عشراً على الخمسين ، وضربوا فخرج القدح على عبد الله ، ثم زادوا عشراً على الستين ، وعبد المطلب لديه أمل في فرج الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على ابنه ، وزادوا عشراً على السبعين ، ثم ضربوا فعاد القدح إلى عبد الله ، فزادوا عشراً على الثمانين وعبد المطلب ما يزال يتمسك ببعض أمل ، فعادوا وضربوا القدح فوقع على عبد الله , فزادوا عشراً من الإبل على التسعين وعبد المطلب منهمك في دعائه ، وضربوا فبقيت الإبل المائة بعيدة عن القدح الذي عاد إلى عبد الله . وهنا فقد الجميع الأمل وحتى قريش ذاتها التي كانت تمانع قالت لأبيه : قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب . لكن الأبوة أبقت شيئاً من بقايا أمل في قلبه فطلب فرصة أخيرة قبل أن يذبح ابنه وهي أن يجربوا ثلاث مرات إضافية أخيرة ، فكان له ذلك ، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وعاد القدح إلى عبد الله ، أعادوا الثانية ، فعادت إلى عبد الله ، لبثت الضربة الأخيرة , فقاموا وضربوها فخرج القدح على الإبل . كان هذا بمثابة عرس لقريش كلها ، واحتفالا بذلك نُحرتْ الإبل لكل مَنْ يريد لحماً .

يمسك الأب بيد ابنه ويمضيان ، فتراه امرأة من بني أسد ، رقية أخت ورقة بن نوفل

وتقول له : أين تذهب يا عبد الله ؟

يقول : مع أبي .

تقول : لك مثل الإبل التي نُحِرَتْ عنك وَقَع عليَّ الآن .

يقول لها أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه .

وعند ذلك يذهب به الأب إلى وهب بن عبد مناف سيّد بني زهره نسباً وشرفاً فيزوّجه ابنته آمنة , فيدخل عليها عبد الله .

ولم يكن هذا الرجل الذي نجا من الذبح يحمل في ظهره سوى مَنْ سوف تحمل به هذه المرأة ، وعندما ينتقل إلى حمل آمنة يعود عبد الله هذه المرة بدونه إلى / رقية / قائلاً لها : ما لك لا تعرضين عليّ اليوم ما كنتِ عرضتِ عليّ بالأمس ؟

فتقول له : فارقك النور الذي كان بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة . ثم أنه لعل عبدالله كان يعمل في طين فمر على امرأة له دون آمنة ولما دعته ، أبى واتجه إلى آمنة فحملت بمحمد ، ثم بعد ذلك عاد إلى امرأته الأولى قائلاً : هل لكِ ؟

قالت : لا ، مررت بي وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت عليّ ودخلتَ على آمنة فَذَهبتْ بها . تقول : فدعوته رجاء أن تكون بي – غُرّة مثل غُرّة الفَرس – فأبى علي ودخل على آمنة فأصابها فحملتْ برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعندما حملت آمنة خرج منها نورٌ رأتْ به قصور بُصرى من أرض الشام . لقد كان العالم كله في انتظار ما ستقدّمه آمنة بنت وهب يوم الاثنين ، الثاني عشر من ربيع الأول ، عام الفيل ، ولسوف يغيب عبد الله بعد أن يضع هذا النبي في بطن آمنة وأنه لن يحظى برؤيته ، ولكن آمنة سوف تبعث إلى جدّه : قد وُلد لك غلام ، فأته فانظر إليه . فيحضر الجد وينظر إلى الحفيد اليتيم ويدخل به الكعبة شكراً لله ، ثم يبحث عمن ترضعه .
وكما حُظيتْ امرأة بحمله ، ستحظى امرأة بإرضاعه لتجعل من أبنائها : عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذاقة بنت الحارث التي تُعرف بـ الشيماء أخوة لآخر أنبياء الله . وهي ذاتها ستروي فيما بعد : في سنة شهباء لم تبقِ لنا شيئاً ، خرجتُ على أتان لي قمراء معنا شارف لنا ، والله ما تَبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكنّا نرجوا الغيث والفرج ، فخرجتُ على أتاني تلك ، فلقد أَدَمْتُ بالرَّكب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفا ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منّا امرأة إلاّ وقد عُرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذ قيل لها : إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول : يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده ، فكنا نكرهه لذلك . فما بقيتْ امرأة قدمتْ معي إلاّ أخذت رضيعاً غيري ، فلما أجمعنا الانطلاق قلتُ لصاحبي : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم ، فلآخذنّه . قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبتُ إليه فأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره . فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجري أقبلَ عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى رَوِيَ ، وشرب معه أخوه حتى روى ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا تلك ، فإذا إنها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة .
قال صاحبي : تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة .
قلت : والله إني لأرجو ذلك .
ثم خرجنا وركبتُ أتاني وحملته عليها معي , فوا لله لقطعت بالرَّكب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم ، حتى إنّ صواحبي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحكِ اربعي علينا ، أ ليستْ هذه التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله إنها لهي هي . فيقلن : والله إن لها لشأناً .
ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانتْ غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لُبَّناً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة من لبن ، وتروح غنمي شِباعاً لُبّناً . فلم

نزل نتعرّف من الله الزيادة والخير حتى مضتْ سنتاه وَ فَصَلْتُهُ ، وكان يشبّ شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً . فقدمنا به على أمه ونحن أحرصُ شيء على مُكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلّمنا أمه وقلتُ لها : لو تركتِ بُنَيّ عندي حتى يغلُظَ ، فإني أخشى عليه وباءَ مكة . فلم نزل بها حتى ردّته معنا . فرجعنا به ، فوا لله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يَشْتَدُّ ، فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيضاء فأضجعاه ، فشقّا بطنه ، فهما يسوطانه . فخرجتُ أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه . فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : ما لك يا بني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقا بطني ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو . قال أبوه : يا حليمة ، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أُصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به . فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت : ما أقدمكِ به يا ظِئر وقد كنتِ حريصة عليه ، وعلى مكثه عندك . فلم تدعني حتى أخبرتها . قالت : إن لبنيَّ لشأناً ، رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بُصرى من أرض الشام .

تسلسل أنبياء ورسل الله في حمل رسالة الإسلام إلى أن انتهوا بمحمد النبي والرسول الخاتم . كل نبي أو رسول أتى بشيء من رسالة الإسلام بحسب مرحلته الزمنية في هذا التسلسل ، وطبيعة مجتمعه . فلم يبدأ أبو الأنبياء إبراهيم إلاّ مسلماً وقد قال عنه الله بأنه :" كان حنيفاً مسلماً ".
عندما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة قدم عليه وفد من النصارى فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغ الحديث بينهم فيما سألوه للنبي تلا عليهم القرآن . عند ذاك فاضت أعينهم بالدمع ، فآمنوا به . ويقال بأن الوفد كان من أهل نجران فأنزل الله :" الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ". (١) وذكر الله :" فلما أحس عيسى منهم الكفر قال مَنْ أنصاري إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون " .
وفي عهد النبي سليمان كانت بلقيس ملكة سبأ مشركة ، ولكن عندما تعرّفت بسليمان ودين الله الذي دعا إليه قالت بأنها " أسلمتْ " وآمنتْ برب سليمان :" فلّما رأته حسبته لُجَّةً وكشفتْ عن ساقيها.. قالت : ربي إني ظلمتُ نفسي

وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين[⊗].ولذلك فإن حضور هذه الشخصيات الإسلامية " الأولية " في القرآن يفوق حضور الشخصيات التي كانت موجودة في أثناء نزول هذا الكتاب فيقول محمد في سورة الواقعة من كلام ربه :" والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخِرين " إنهم يشكلون تراثه وماضيه والصراط المستقيم الذي اهتدى إليه . وعلى هذا فإن آخر الرسالات ليست قطيعة عن الرسالات الأخرى السابقة ، بل هي تواصل معها ، وحتى عيسى فإنه لن يكون نبياً ورسولاً جديداً كما يتفق الجميع ، بل إنها عودة ثانية له للتأكيد على رسالة زميله الخاتم ، إذ أنه لن يأتي برسالة جديدة ولا بكتاب جديد . ولذلك فإن الإيمان برسالة الإسلام يحقق تكاملاً في الذات البشرية لكل الشرائح والمعتقدات حتى لو لبثوا في مذاهبهم لأنها سلسلة إيمانية متكاملة . فكيف تقرأ جزءاً من كتاب ولا تقرأ جزأه الثاني ، وكيف تقرأ الجزء الثاني ولا تقرأ الجزء المكمل للجزأين السابقين . وعلى هذه الحقيقة فإن المؤمن المسلم الذي فاته أن يؤمن برسالتَي الإيمان السابقتين سوف يكون عليه أن يؤمن بهما حتى يقبله الإسلام مسلماً ، وإن لم يقتنع بهذه الحقيقة ولا يؤمن بهما قلباً وقالباً كإيمانه بالإسلام وبرسول الإسلام فإن هذه الرسالة المتممة تلفظه ولا تُدخله ملة الإسلام ، وهذا ذاته يكون بالنسبة لمن هم خارج الإسلام ، فإن إيمانهم سيبقى ناقصاً ما لم يؤمنوا بالجزء المتمم من كتاب الإيمان المقدّس الكبير. وإذا كانت الأجيال البشرية السابقة غير محظوظة بعدم تمكنها من الإطلاع على كلمات الله الأخيرة للبشرية ، فإن الأجيال التي ولدت فيما بعد نزول هذه الكلمات أكثر حظاً بإمكانية الإطلاع على ألفاظ الله ومعانيه في كتاب قيِّم تعهد الله بحفظه من أيدي العابثين . عندما نقرأ القرآن فإننا نشم رائحة التوراة ورائحة الإنجيل منه , وما ذلك إلا لأنه مكمل لهذين الكتابين الإلهيين ٠إن أي تصور خلاف هذا الترتيب الإلهي الدقيق يُحدث خللاً حتى في دائرة التصور . إن كان محمد بكل ما أتى وبشّر قد جاء قبل موسى لما ترك للتوراة والإنجيل شيئاً يقولاه ، فكيف يتمم للناس دينهم ويأتي مَنْ يُزيد الناس حديثاً جديداً من أحاديث الله . ولو كان رسول الله عيسى خاتماً كيف يتحقق ذلك وهو يُبشّر الناس بمن سيأتي من بعده حاملاً إليهم ما لم يحمله ، وكيف سيكون خاتماً وهو لم يخبر الناس بأنه أتم لهم دينهم وألاّ رسالة من بعده . ولم يكن رسول الله موسى بحاجة لأن يكون بينهما لأنه لن يمهّد لشيء سيُقال ، إذ قال رسول الله محمد كل شيء وأتم للناس دينهم .

[⊗] – فتزوجها على الإسلام ، الوقائع في سورة النمل

لقد جاء محمد برسالته مؤمناً بالعهدين السابقين له حتى يستطيع أن يكون خاتماً لهما وإلاّ لكان بادئاً ، لا خاتماً ، وأن يتحدى كل الأجيال البشرية بألاّ عهد ولا نبي من بعده . وأظن بأننا سنبلغ قناعة أو شبه قناعة أن المسلم الكامل هو كامل أكثر من أي شخص آخر ومستقر في إيمانه أكثر من أي شخص آخر . سُئل خاتم الأديان عن معنى كلمة " الشرح " في قول الله :" ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " قال :" هو نور يقذفه الله تعالى في القلب ".

فالأنبياء والرسل جميعاً ما دعوا لغير الله ، وليس من دين عند الله غير الإسلام بنص قوله :" إن الدين عند الله الإسلام ". ولذلك فإن الذي يدخل الإسلام إنما هو يدخل دين الله الذي اكتمل وتم بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم فهو دين مفتوح للعالم كله ، ويضم كافة أبناء البشر بمختلف أجناسهم وألوانهم وأديانهم وأنبيائهم ورسلهم .

للأنبياء والرسل خصوصية تميزهم عن سائر البشر ، وقد شاء الله أن يجعلهم في درجات وأزمنة ومراحل . قال في وصفهم :" تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ". (٢) وقال :" ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ". (٣) هؤلاء وإن كانوا أبناء البشر إلاّ أن الله اصطفاهم من خيرة الناس وربّاهم للقيام بهذه المهمة الإلهية السامية في الناس . والأنبياء دوماً يمرون بظروف قاسية وقد اشتركوا جميعاً في تحمّل هذه الظروف القاسية والهجرة من بلادهم . فهم جميعاً رعوا الغنم ، ودُفنوا في ذات الأماكن التي ماتوا فيها . وهم جميعاً بُعثوا شباباً وأن الله قد حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، وما بدأت نبوة نبي ، إلاّ تبعتها خلافة ، وما كانت خلافة إلاّ تبعها ملك . ومن خصوصيات الأنبياء الأخرى أن عائشة قالت للنبي : يا رسول الله إنك تأتي الخلاء فلا نرى شيئاً من الأذى إلاّ أن نجد رائحة المسك . فقال : إنا معشر الأنبياء نبتت أجسادنا على أرواح أهل الجنة ، وأمرت الأرض ما كان منا أن تبتلعه ". (٤)

صبر نوح على أذى قومه حتى رأى له الله مخرجاً فهاجر هجرته مع الطوفان تاركاً وطنه الذي كان يقيم فيه إلى حيث استوت به سفينته على الجودي فبات آدم الثاني . وهاجر أبو الأنبياء إبراهيم من أرض العراق إلى الشام ، ومنها إلى مصر ، ثم إلى فلسطين ، ثم إلى مكة مصطحباً معه وليده إسماعيل وأمه هاجر في وادٍ غير ذي زرع إلى أنه قال :" إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ".(٥) وقد صبر على النار والبلاء بالوالد والمال والوطن والنفس . وهاجر موسى وهو يفلق البحر لتيبس الأرض كي يكمل مسيره ، وكان دائم التنقل وهو الذي رعى الأغنام ثمانية أعوام من أجل أن يدفع مهر زوجة . وهاجرت مريم بوليدها عيسى حين رأت الخوف من بني

إسرائيل :" وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ". (٦) وصبر إسحاق على الذبح ، ويعقوب على فقد الولد وذهاب البصر ، وأما يوسف فصبر على البئر والسجن ، وأيوب على المرض . وهكذا فإن المقولة الشهيرة " لا كرامة لنبي في وطنه " تكاد تسري على جميع الأنبياء . فلا تكاد تخلو حياة نبي من المعاناة حتى أن رب العزة قال في بعضهم :" أولو العزم " وذلك لصبرهم وتحملهم الأذى والبلاء وأمر خاتم أنبيائه – المهاجر من مسقط رأسه إلى يثرب أو ما يُعرف بـ المدينة المنورة – أن يقتدي بهم في قوله :" فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل"⊗

إن إلقاء نظرات إلى ذلك التاريخ البشري الحافل بالأنبياء والرسل والخطابات السماوية ترينا ترتيباً زمنياً ، خطابياً ، نبوياً ، رسلياً غاية في الدقة والدهشة والتكامل إلى أن استقر الإنسان أخيراً على الأرض لم يعد بحاجة إلى أنبياء جدد ، لم يعد بحاجة إلى دين جديد . وخاتم الأديان والأنبياء عنى ما قاله وهو يوشك أن يودع الناس :" اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ". (٧) قول حاسم لم يقله نبي أو رسول من قبله للناس . على رأس كل دين كان دائماً هناك نبي يبيّن بأن كلمته هي ليست الأخيرة ، وقول الله الذي يحمله هو ليس آخر قول الله ، وأن هناك مَنْ سيأتي ليكون نبياً جديداً يحمل للناس كلمات جديدة من الله ، تلك الكلمات التي هي خاصية النبي الخاتم ، إلى أن جاء " محمد " بالفعل إلى الناس حاملاً هذه الرسالة الإلهية الأخيرة لفظاً ومعنى إلهياً مبشراً الناس بأنه هو النبي الذي انتظرته البشرية كلها ليحمل كلمات الله الأخيرة لهم بلفظها ومعناها معاً . وهذه الكلمات ستتزل سطراً .. سطراً وستستغرق ثلاثاً وعشرين سنة بين نزول الكلمة الأولى والكلمة الأخيرة ، وهذه خاصية رسالة الله المباركة الأخيرة للبشرية التي استغرقت كل هذا الزمن في التنزيل ،وهذه خاصية النبي الأخير الذي لبث أمياً لم يمح أميته شخص ليتهيأ لاستقبال هذه الرسالة الإلهية الكبرى ، بل الكلمة الأولى منها هي التي سوف تمحي كل أمية فيه⊗ ، ولسوف يقرأ أول ما يقرأ كلمة في حياته وهو في سن الأربعين ، كلمة الله الأولى من كتاب الإيمان الأخير ، هذه الكلمة التي ستجعله يمحو بها أمية أمة بأسرها .

⊗ –في سورة الأحقاف ، الآية ٣٥ . قيل أن هذه الآية نزلتْ عليه يوم أحُد وفيها أمر الله له بالصبر تسهيلاً عليه وتثبيتاً له . قال ابن عباس إن أولي العزم من الرسل هم ذووا الحزم والصبر . قال مجاهد : هم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم الصلاة والسلام ، وهم أصحاب الشرائع .

⊗ – محمد ، هو النبي الوحيد الذي بُعث أمياً من بين أنبياء البشرية كلها ورسالته هي الوحيدة التي لم تتزل جملة واحدة .

إلى جانب ذلك سيجد وقتاً كافياً لرواية أحاديث الله القدسية⊗
وسيتولى أمر شرح تفاصيل التنزيل ليكون الشارح الأول وقنديل الشرّاح من بعده بما سيصطلح عليه الناس مرة أخرى بـ :" الأحاديث النبوية " . إن مهمته تكمن في أن يقرّب الناس إلى رحمة الله ، وهي أسمى مهمة إنسانية على الإطلاق ، وهو يبذل كل ما بوسعه ليتفهم بأنه الرسول الأخير إلى الهدى وأن كلمات الله التي ينقلها هي آخر الكلمات ولذلك فإنه سيكرر وهو في غاية الحذر : أ لا هل بلّغت .. اللهم إني بلّغت . إنها مسؤولية كبرى سيتولاها هذا الإنسان في سبيل خير أخيه الإنسان ، وسينجح في إبلاغها وسيحبه الناس ، يفتحون له بيوتهم ، إنه النبي الأخير ، وسيجد وقتاً كافياً وهو في ذروة الانشغال باستقبال التنزيل الذي يستغرق كل ما تبقى في العمر القصير أن يدفع كذلك عن نفسه أذى ذوي القربى وأبناء العشيرة ، وسيجد أن يتزوج وينجب أطفالاً ، سيجد أن يكون إنساناً اجتماعيا واصلاً للرحم ، عائداً لمريض ، ماشياً في عزاء ، مصلحاً خلافات الناس ، سوف يكون هذا الرجل النوراني الاستثنائي " أسوة حسنة " للناس فيكون بشخصه متميّزاً عن سائر رفاقه الأنبياء ، كما تميّز برسالته . فكيف (يؤتسى) إن لم يكن قد أحب امرأة ، إن لم يكن قد تزوج ، إن لم قد جاع ، إن لم يكن قد أغتني ، إن لم يكن قد أنجب أطفالاً ، إن لم يمت له أولاد ، إن لم يمرض ، إن لم يُظلم ، إن لم يغترب ، إن لم يصل الرحم ، إن لم ييتم ، إن لم يكن متسامحاً محباً للبشرية جمعاء .
وكما أن الأنبياء من قبله صدقوا بأن يأتي نبي بعدهم فأتى ، فقد صدق محمد أن لا يأتي نبي من بعده ، ونحن نؤمن بأنه لن يأتي ، لأن لا حاجة بشرية إليه ، ونؤمن بعلم الغيب هذا بأن لا وجود له حتى في غيب الله . إنه مفتي الله ، يفتي عن الله بتشريع جديد لم يعرفه البشر من قبل .
لم يُبعث محمدٌ نبياً لقومية أو قبيلة أو لغة فهو أتى للناس أجمعين بمختلف لغاتهم وأعراقهم وأجناسهم عبر الزمن الذي سيليه من تاريخ البشر ، وهذا يتضح من أعداد المسلمين في العالم في وقتنا الحالي ، فإنهم يبلغون ملياراً وثلث المليار ، في حين أن عدد العرب لا يزيد عن ثلاثمائة مليون عربي ، منهم قسم كبير غير مسلم .وثمة أمر هام أود أن أوضحه في هذه المسألة وهو أن الإسلام لم يكن عبر أنبيائه ورسله ولغاته دعوة إلى انقراض لغات الناس ولهجاتهم المتعددة . فالإسلام يدعو الناس لأن يكونوا مسلمين حيثما

⊗ – كما أنه جاء بذات الوقت الذي يستقبل فيه التتريل بمعاني الله القدسية في صيغة لفظية محمدية بما سوف يصطلح عليه الناس بـــ: " الأحاديث القدسية " وما يميّز التتريل عنها أنها لاتأخذ حكم التتريل في التعبد بتلاوتها ، ويحظر تلاوتها في الصلاة عن آية مُترّلة ، أو التعبّد في تلاوتها وقد تلقى النبي معانيها عن طريق الوحي والرؤيا وصاغ ألفاظها بكلماته .

كانت لغاتهم ولهجاتهم وألوانهم وطباعهم ، وبذلك فإن محمداً دعا الناس ليكونوا مسلمين لله ، لا أن يكونوا عرباً للغة محمد ، فمن آيات الله اختلاف ألسنة الناس ولغاتهم ولهجاتهم وتركيبا تهم الاجتماعية بما ينسجم مع خصوصياتهم الشعوبية والقبائلية التي شاء الله لها التنوع والميزة .
والعبادة دائماً تكون على قدر الاستطاعة ، فالله الرؤوف الرحيم لا يحمّل شخصاً فوق طاقته ولا يضع أمام عباده شروطاً تعجيزية لعبادته ، فرجل في الصين هو أمّي حتى في لغته الصينية لا يشترط عليه الإسلام أن يأتي إلى مكة فيمكث فيها حتى يتعلّم اللغة العربية ليتهيأ لدخول الإسلام ، فهو إن آمن وشهد باللغة التي يعرفها ، أصبح مسلماً مثله مثل أي مسلم ولد وترعرع بجوار الكعبة .
اللغة هي وسيلة للدين ، وليست غايته ، وهذا بذاته كان خلف دخول شعوب وأقوام وبلاد بأكملها – من غير اللسان العربي – إلى دين الإسلام فقدّموا خدمات جَلية ، وقدّم لهم خدمات جلية . فالإسلام ليس دين لغة ، ولا دين بقعة جغرافية ، إنه دين اللغات جميعاً ، ودين بقاع الأرض جميعاً . لكن الإنسان وبحكم فطرته الطبيعية إذا أحب أمراً ، مالتْ نفسه إلى كل ما يخص أمره . فمادام هذا الشخص قد اطمأن إلى دين الإسلام ، وأحب محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإنه وبدافع فطرته يميل إلى زيارة المكان الذي عاش فيه محمد ، وإلى مشاهدة المكان الذي تلقى فيه هذا التنزيل الحكيم ، وإلى قراءة النسخ الأولى التي كتبها الصحابة بأياديهم بذات اللغة التي نزلتْ بها . إنه يريد أن يتعلّم شيئاً من اللغة التي شاء الله أن يختتم بها آخر رسائله إلى عباده جميعاً . وهذا كله يحدث في غاية من الروحانية والهدوء والمودة ومشاعر الطمأنينة لأنه نابع من الرغبة الذاتية ، كون الإسلام يلفظ غير الراغبين فيه ، وليس منه مَنْ لم يكن الله ورسوله أحب إليه من نفسه . فالإنسان يحب الله ورسوله وهذا الحب يشرح صدره للإسلام . لا يولد حب في الذات البشرية . وإلا سوف تتحول الطاعات إلى عادات وليس إلى عبادات ، فالعادة هي تقليد اجتماعي محض ، ولكن العبادة هي محبة إلهية خالصة .
إن هذا الرجل الذي رغب في الإسلام يكتسب كل هذه الخواص التي ولّدتها المحبة الإلهية ، وهذا شكل من أشكال المعرفة البشرية ، فهو يتعلّم لغة جديدة ، وينفتح على تراث إنساني غني ، ويشاهد أماكن جديدة ، وبذات الوقت فإن الإسلام يدعوه لأن يحافظ على لغته الأصلية ، وعلى علاقاته بمجتمعه و وطنه ، و ألاّ يُقتَلَع من جذوره .
رسالة الإسلام هي رسالة شاملة مؤمنة بالإنسان قبل أي اعتبار آخر :" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحدٌ ونحن له مسلمون ". (٨)

" فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ". (٩)
والناس من مختلف مذاهبهم يدخلون الإسلام وهم يؤمنون بقول الله في رسالة الإسلام الخاتمة :" ومَنْ يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ". (١٠) هذه الرسالة التي هي القرآن ، أو الفرقان ، أو الكتاب ، أو الذكر ، أو التنزيل . التي نزلت على محمد بوساطة جبريل والمبدوءة بسورة الفاتحة ، والمختومة بسورة الناس . وكانت قد مرّت بتنزيلين قبل بلوغ التنزيل النهائي على محمد ، حيث ذكر الله تبارك وتعالى :" بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ". (١١) ثم التنزيل الثاني من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا بقوله :" إنا أنزلناه في ليلة القدر " ثم التنزيل الثالث إلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم . ورغم استغراق الزمن منذ الآية الأولى التي على الأرجح :" اقرأ باسم ربك الذي خلق " وحتى نزول الآية الأخيرة التي هي على الأرجح :" واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ". (١٢) فإن كل آية أخذت مكانها المناسب في سورتها المناسبة . حتى عندما يعجل النبي في ترداد الآية لسرعة حفظها تفادياً من النسيان فإن الله يقول له :" لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ". (١٣) فكان جبريل كل سنة يراجع الآيات معه .
روى الإمام أحمد بإسناد عن عثمان بن العاص قال : كنتُ جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال :" أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ". (١٤)
روى الواقدي عن ثعلبة بن أبي مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا مالك ثعلبة بن هلال وكان من أحبار اليهود فقال : أخبرني بصفات النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة .
فقال : إن صفته في توراة هارون التي لم تُغير ولم تُبدل هي :" أحمد من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وهو آخر الأنبياء ، وهو النبي العربي الذي يأتي بدين إبراهيم الحنيف . يأتزر على وسطه ، ويغسل أطرافه . في عينيه حمرة ، وبين كتفيه ختم النبوة . ليس بالقصير ولا بالطويل ، يلبس الشملة ، ويجتزئ بالبلغة ، ويركب الحمار ، ويمشي في الأسواق . سيفه على عاتقه ، لا يبالي من لقى من الناس . معه صلاة لو كانت في قوم نوح ما أُهلكو بالطوفان ، ولو كانت في عاد ما أُهلكوا بالريح ، ولو كانت في ثمود ما أُهلكوا بالصيحة . يولد بمكة ، وهو أمي لا يكتب و لا يقرأ المكتوب . وهو الحمّاد يحمد الله شدة ورخاء سلطانه بالشام ، وصاحبه من الملائكة جبريل . يلقى من قومه

أذى شديداً ، ثم يدال عليهم فيحصدهم حصداً . تكون الواقعات بيثرب منها عليه ، ومنه عليها ، ثم له العاقبة . معه قوم هم أسرع إلى الموت من الماء المنحدر من رأس الجبل إلى أسفله ، صدورهم أناجيلهم ، وقربانهم دماؤهم ليوث النهار ، رهبان الليل . يرعب عدوه مسيرة شهر ، يباشر القتال بنفسه ، ثم يخرج ويحكم لا شرطة ولا حرس . الله يحرسه ". ليس هدف القرآن أن يفصل بين الأديان على قدر ما يجمع بينهم ويجعل الناس يتحابون فيه , القرآن هو دعوة لمحبة الناس أجمعين على معنى الله الواحد الذي لاشريك له .

إنها رسالة متكاملة منزّهة من أي تحريف أو إضافة أو حذف وهذا ما لم يتحقق في غيرها لأنها تميّزت بخاتميتها وأنه لن يأتي ما لسوف يصححها فيما بعد . :" قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً "، "وما أرسلناك إلا كافة للناس " . " ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ". وقد ورد عنه أنه قال :" أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ". وقال في عالمية وخاتمية رسالته :" فو الذي بعثني بالحق لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني ". وهذا بذاته ما جعل فريقاً من أهل الكتاب يؤمن بهذه الرسالة بنص قول الله تبارك وتعالى :" ومن قومِ موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " :"وإذا أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي " "الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ". " إن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين ".

وقد جعل الله لهؤلاء خصوصية ، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين أنه ذكر ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين وأحد هؤلاء هو رجل من أهل الكتاب :" آمن بنبيه وبي ".

قال صلى الله عليه وسلم :" مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون ويعجبون له : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين ".(١٥)

جاء في كتاب الإعلام لابن قتيبة عن وهب بن منبه قال : قرأت في بعض الكتب القديمة أن الله قال :" وعزَّ تي وجلالي لأنزلنَّ على جبال العرب نوراً يملأ ما بين المشرق والمغرب ، ولأخرجنَّ من ولد إسماعيل نبياً أمياً عربياً ، يؤمن به عدد نجوم السماء ، ونبات الأرض ، كلهم مؤمن بي رباً ، وبه رسولاً ، يكفرون بملل آبائهم ، ويفرون منها " وفي قوله تبارك وتعالى لموسى عن محمد يقول : يا موسى وإني أنتقم من عدوه في الدنيا والآخرة ، وأظهر دعوته على كل دعوة ، وسلطانه ومن معه على البر والبحر وأخرج له من كنوز الأرض ، وأذل من خا لف شريعته ، يا موسى بالعدل ربيته ،

وبالقسط أخرجته ، وعزَّتي لأستنقذن به أمماً من النار ، فتحتُ الدنيا بـإبراهيم ، وختمتهـا بمحمـد ، مثـل كتابـه الـذي يجـيء بـه كمثـل السـقاء المملـوء لبنـاً يمخض فيخـرج زبـداً ، بكتابـه أختم الكتـب ، وبشـريعته أختم الشـرائع ، فمن أدركـه ولـم يـؤمن بـه ، ولـم يـدخل شـريعته فهـو مـن الله بـريء ، أجعـل أمتـه يبنون في مشـارق الأرض ومغاربهـا مسـاجد ، إذا ذُكـر اسـمي فيهـا ذُكـر اسـم ذلك النبي معه ، لايزال ذكره من الدنيا حتى تزول ".

مراجع:

١- سورة القصص ، الآيتان ٥٢-٥٣
٢- سورة البقرة ، الآية ٢٥٣
٣- سورة الإسراء ، الآية ٥٥
٤- أنظر منتخب كنز العمال فـي سفن الأقوال و الأفعـال جــ ٤ ص٣١٨
٥- سورة العنكبوت ، الآية ٢٦
٦- سورة المؤمنون ، الآية ٥٠
٧- روى البخاري في الإيمان ، ومسلم في أول كتاب التفسير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال لـه : يا أمير المـؤمنين ، آيـة فـي كتـابكم تقرؤونهـا ، لـو نزلـت علينـا معشـر اليهـود لاتخـذنا ذلـك اليـوم عيـداً . قـال : أيّ آيـة ؟ قـال :"اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتـي ورضـيت لكـم الإسلام ديناً " قـال عمـر : قد عرفنـا ذلـك اليوم والمكـان الـذي نزلت فيه علـى النبـي صـلى الله عليـه وسـلم ، وهـو قـائم بعرفـة يـوم الجمعـة . و واضـح مـن كـلام عمـر أن المسـلم فـي واقـع الأمر يكون في عيد في اليومين المذكورين .
٨- سورة العنكبوت ، الآية ٤٦
٩- سورة الروم ، الآية ٣٠
١٠- سورة لقمان ، الآية ٢٢
١١- سورة البروج ، الآيتان ٢١-٢٢
١٢- سورة البقرة ، الآية ٢٨١

١٣- سورة القيامة ، الآيتان ١٦-١٧
١٤- سورة النحل ، الآية ٩٠
١٥- رواه مسلم

٩- ثمار شجرة الإيمان

• مَنْ قال أن العبادات وحدها تقودنا إلى رحاب الله ، رب ذنب قادنا إلى رحابه بقلب لم يعرف خشوعه في أي عبادة ، بدموع ما عرفتْ وجلها في أي عبادة .

- قد ترى مذنباً قادته ذنوبه إلى الله بقوة ألف عابد .
- دوماً فإن سعة عفو الله تدفع المذنب إلى الأوبة ، وهو في ذروة أوبته يكون أكثر علماً بسعة هذا العفو من غيره ٠
- من الناس ناسٌ إنتهت بهم ذنوبهم إلى رحمة الله ، ومن الناس ناسٌ إنتهتْ بهم عباداتهم إلى الخروج من رحمة الله

٠ ٠ ٠

• يكفيك سمواً أن الله شاء أن يخلقك ويمدك بكل هذه الحواس الدرّاكة وصفاء
الذهن ٠

- لو لم يخلقك الله لما كان لك حق عليه , لكنه فضلك على خلق أي كائن بديل يحظى بكل اهتمامه وعنا يته ٠
- خلقك الله لتتعرف إليه , لالتنساه , خلقك ليكون معك , لاليكون عليك ٠
- لولبثت طوال عمرك خاشعا تتعبد الله لما استطعت أن تفيه شيئاً من فضل خلقه لك ٠
- لاتظن بأنك قادر على تقديم شيء لله , إن كل ما تحسنه هو لنفسك , وكل ما تجنيه هو عليها ٠
- أعطاك الله كل شيء فقط لأنه أراد أن يخلقك ليحبك , إن الله يحبك , ولولم يحبك لما كنت , فلاتجعل من نفسك كائنا غير محباً ٠
- لاتذهب بعيدا في بحثك عن الله , ابحث عنه في نفسك ٠
- إن الله يعرف الإنسان جيدا ,ولكن الإنسان لايعرف الله جيدا , ذلك أن الله يعرف ذاته جيدا , والإنسان غير مدرك بذاته جيدا ٠
- الله يعرف أين يكون الإنسان , ولكن الإنسان هو الذي لايعرف أين يكون الله ٠

٠ ٠ ٠

• الحوار دليل العقل ودليل رقي الإنسان وشفافيته , والإنسان بدون حوار هو كائن غير عاقل يعيش تحت قانون غريزته •الحوار هو انفتاح فكري على وجهات الفكر الأخرى وهو إيمان من المتحاور بوجود الآخر وأحقيته في التفكير واتخاذ المواقف والقرارات •

- إذا أعطيت نفسك الحق في رفض الآخر , فعليك أن تعطي له الحق ذاته في رفضك •
- إن تاريخ السيف يروي لنا بأنه يخرج من غمده عندما ينعدم الحوار , وأنه يلبث في غمده ما لبث الحوار قائما•
- حالة السلم بين الأفراد والكيانات لاتتحقق في إجماعهم على رأي وموقف , بل تتحقق عند إعطاء كل ذي موقف ورأي هذه الحرية للآخر •الخصومة لاتولد عند وقوف كل ذي موقف موقفه وتمثله رأيه , تولد الخصومة مع سعي ذو موقف لأن يتخلى الآخر عن موقفه ويمتثل موقف ورأي الطرف المقابل له ولو بالقوة •يكفيك أن الآخر يمنحك حرية موقف مختلف منه , ولكنه حر في ألا يقبل أن يتخلى عن موقفه ليمتثل موقفك •
- ليس هدف الحوار أن تقنع الآخر بموقفك ولا أن يقنعك بموقفه , ولكن هدف الحوار أن تعبر بقوة عن موقفك وأن يعبر بقوة عن موقفه بغية إظهار الحق •
- عندما تحاور شخصا عليك أن تكون مستعداً للإصغاء أكثر مما تستعد للحديث , بقدر ماتحترم الإصغاء لما يقوله الآخر , فإنك تجعله يحترم إصغاءك لما يقول •
- خلق الله لك لساناً واحداً وخلق لك أذنين اثنين وجعل اللسان خلف بابين , ولم يجعل الأذنين خلف شيء وذلك حتى تسمع أكثر مما تتحدث لأن السمع هو أكثر فائدة من النطق , فإن أردت النطق احتجت إلى فتح باب الأسنان , وفتح باب الشفتين , وتحريك اللسان , واستخدام الصوت والاستعانة بأكثر أوتار الجملة العصبية حساسية , وبشيء من التركيز والحدة قد تستعين بيديك وعينيك وحاجبيك ورأسك , وهذا كله يسبب الإرهاق لك , فيتفصد العرق من كامل جسدك , ويختل قلبك في نبضه • أمّا وأنت تسمع , فلا تحتاج لأي جهد ويمكن أن تدخل بكامل حواسك حالة استرخائية من الإصغاء تنتهي بك إلى غفوة لم تدرك لذتها في ألف نوم •
- إن سماعك عن شخص ليس واقع الشخص ذاته ، إنه مفهوم مَنْ يُسمعك تقييمه لهذا الشخص . المفاهيم في أمر من الأمور تختلف من شخص لآخر ، وهذا يأتي على الأخلاق والجمال والحق ، فما أسمعك من

الأخلاق قد لا يكون كذلك ، وما أسمعك من الجمال قد يكون مختلفاً لمقاييس الجمال ، وما أسمعك من الحق قد يكون ظلماً . وها هنا فإن معرفة مفهوم سامعك لهذه القيم تبيّن أمامك الحقائق وفق مفهومك ٠

٠ ٠ ٠

- بؤس البلد الذي لا أفاضل فيه
بؤس البلد الذي لاكرام فيه
بؤس البلد الذي لامصلحين فيه
بؤس البلد الذي ليس فيه إلافئة لصوص يعادي بعضهم بعضا , يسطو بعضهم أعراض وأموال بعض في الليل وفي وضح النهار ٠

٠ ٠ ٠

٠ يبحث الإنسان طويلا عن السعادة في الآثام دون أن يبلغها , ولكنه يهتدي إليها وهو يمد خطوته الأولى نحو مملكة الفضيلة ٠

- لاتظنوا أن الرذيلة مجلبة المتع لأهلها , إنها لاتجلب لهم غير وجع الضمير ٠
- إن ألم الفضيلة لهو أهون على الفاضل ألف مرة من ألم الرذيلة ٠



السيرة الذاتية للكاتب

عبد الباقي يوسف
روائـي وقاص ســــوري
عضو اتحاد الكتاب العرب
عضو جمعية القصة والرواية السورية

صدر له في مجال القصة القصيرة :
١- سيمفونية الصمت – قصص –١٩٨٩
٢- الحب في دائرة العبث – قصص – ١٩٩١
٣- طقوس الذكرى – قصص – ١٩٩٢

وفي الرواية :
١- بروين - ١٩٩٧
٢- جســـد - ٢٠٠٣
- فاز بجائزة / المبدعون / للرواية العربية في الإمارات عام ٢٠٠٢
بروايته / خلف الجدار / ٠
- جائزة نادي الطائف الأدبي للقصة القصيرة ٢٠٠٣

العنوان كاملا : الجمهورية العربية السورية

محافظة الحسكة – ص ب ٢٦٧

هاتف : ٠٠٩٦٣٥٢٣٦٧٤٦٢

خليوي : ٠٠٩٦٣٩٤٣٨٤٢٦٧

البريد الإلكتروني : a-osso@scs-net.org